الانتصارات المذهلة لعلم النفس الحديث

(٢)

استكشاف أغوار الذهن

التنويم المغناطيسي

تأليف

بيير داكو

ترجمة

رعد اسكندر   اركان بيثون

مكتبة التراث الاسلامي
القاهرة

دار التربية
بغداد



مكتبة التراث الإسلامي

٨ شارع الجمهورية - عابدين ت : ٣٩١١٣٩٧ - ٣٩٢٥٦٧٧ - فاكس: ٣٩١٣٤٠٦

مدخل

● ميسمير والتنويم المغناطيسي

حصلت لثلاث فتيات اختلاجات شديدة فقد سقطن على قفاهن بسبب الضحك التشنجي والحازوقات القوية ومن هنا بدأت الأزمة العصبية.

وكان ينظر اليهن رجل يرتدي ملابس حريرية. هذا الرجل هو السيد الكبير لهذا المكان الغامض. كان الظلام يلف المكانَ بصورة شبه كاملة والنوافذ كانت مغطاة بستائر سميكة لتمنع دخول اشعة الشمس. ومسمير الذي يُعد أبو «المغناطيسية الحيوانية» ورائد التنويم المغناطيسي كان يمسك بيده عصا معدنية وهو يتأمل. لقد كانت الفتيات الثلاث في أزمة شديدة.

وفي وسط الغرفة «المعجزة» كان يتبؤها دلواً خشبياً في داخله ماء وزجاج مسحوق وبرادة وتخرج من الدلو عن طريق الغطاء المثقب أذرع من الحديد انطري.

لقد ولج المرضى الى هذا المعبد في احتفال مهيب حيث كانت تسمع اصواتاً موسيقية وكان الصمت كاملاً بالنسبة

للمرضى. كل واحد منهم كان يضغط على احد الاذرع الحديدية في الموضع المريض.

بعدها ظهر ميسمير بلباسه الفاخر ومر ببطء أمام المرضى مركزاً نظرة على عيونهم، ومن ثم مرر عصاه على اجسادهم... وفي تلك اللحظة سقطت الفتيات الثلاث على الارض...

وها هو ملخص عن حياة ميسمير المنوم المغناطيسي الشافي...

في عام ١٧٣٤ ولد مسمير في مدينة رودولفزيل التي تقع على بحيرة كونستانس. وماذا عن أبيه؟ لقد كان يعمل حارساً في الغابة وتنفيذاً لرغبة والدته يدخل الى الدير وهو في العاشرة من عمره ليتعلم كيف يصبح كاهن المستقبل. ويستمر في دراسة اللاهوت حتى دخوله الى الجامعة. كما درس ايضاً علم الفلك والفيزياء والرياضيات. وكان يقرأ بارسيلز هذا الرجل الذي كان يعتقد بتأثير الكواكب... ويقوم مسمير في هذه الاثناء بنصف دورة اذ تتغير توجهات حياته فيترك الكنيسة ويتجه نحو الطب. فيصبح بذلك كاهناً للجسد..

وهكذا يدخل مسمير مرفوع الرأس الى عالم الطب العلمي لذلك العصر الذي كان يقر ان كل شيء يمكن اثباته مادياً. بينما كان يؤمن ميسمير بقوى مجهولة وغامضة. وألم يعتبر من قبله غليوم ماكسويل ان الامراض كافة ما هي الا طرح للسائل الحيوي

لاعضائنا؟

ألم يكن يؤمن ان استعادة التوازن يتم عن طريق استرداد «القوة المغناطيسية»؟ وسيتبع ميسمير ايضاً الطريق ذاته.

في عام ١٧٦٥ كان ميسمير في الحادية والثلاثين من عمره وكان موزارت في التاسعة من عمره. انه موزارت الذي سيقوم ميسمير برعايته في حوالي عام ١٧٦٨ . . . ويقدم ميسمير اطروحته الطبية الموسومة «تأثير الكواكب على الجسد الانساني . . .»

كان هذا الاختبار بمثابة تحد للطب العلمي الذي درسه.

ولكنه استطاع ان ينجح! ولم يصرخ الكهنة البوذيون في ذلك العصر قط بأنه دجل. الا يعني ذلك ان ميسمير كان طالباً ممتازاً! وهكذا اصبح هذا الطب شرعياً وتم الاقرار بالرجل صاحب الدلو.

انه يكسب قليلاً من المال . . . وهو فقير. تصوروا لقد كان يمضي وقته في معالجة البؤساء دون مقابل ودون شهرة . . .

غير ان حياته تنقلب مجدداً. ففي عام ١٧٦٨ يتزوج ميسمير من ارملة ثرية. وهو الذي لم يكن يبحث لا عن الشرف ولا عن الجاه سيجدهما فجأة في طريقه.

لقد كان ميسمير يعتقد: ان هناك سائلاً كونياً تسبح فيه الاجساد كافة . . . وكان يرى ان الارادة البشرية لها القدرة على استخدام هذا السائل وجعله يخرج من نقطة ومن ثم يتراكم على

واحدة اخرى. . نحن الان اذاً في عام ١٧٦٨ . ان لدى السيدة ميسمير فتاة تصاحبها وتدعى الانسة فرانتزل جيشترلن وسيكون لصحتها السيئة الاثر الكبير على مستقبل ميسمير. ممَّ كانت تشكو الانسة جيشترلن؟ من كل شيء. شلل مؤقت واضطرابات معوية وتقيؤات تشنجية وكآبة وارتعاش الاعصاب والاغماء والعمى العابر وباختصار الهستيريا* .

وقد نجحت معالجة ميسمير في شفاء هذه الامرأة .

ها هي الطبول تقرع لتعلن النجاح الكبير لمسمير الذي كان يؤمن بعمله ويملك الشجاعة ايضاً لمجابهة متبجحي العلم في عصره. لقد لمع أسمه وبدأت شهرته بالاتساع .

غير ان ميسمير الذي كان يمتلك ذهنية عملية اكتشف ان الامر سيطول اذا ما قام بمعالجة كل مريض على انفراد . . . فاخترع طريقة الدلو الجماعي! وهكذا اصبح بوسع المرضى الولوج الى المعبد على شكل جماعات . . . وقدامسكت شخصيات معروفة باذرع الحديد الخارجة من الدلو. فالكاتب لاهارب كان موجوداً هو الآخر والذي كان يتراسل مع الدوق الكبير بول في روسيا! كل شيء كان جيداً على ما يبدو والمغناطيسية الحيوانية ينتظرها مستقبل باهر. . .

---

* سيتم التطرق اليها لاحقاً.

غير ان قوتين كانتا تراقبان الحالة: الطب والموضة.

* الموضة: تخيلوا نساء العصر يفضحون اسرار المغناطيسية! ألم يفعلوا الشيء ذاته عندما أباحوا بعقدهم في عصر هيمنة فرويد؟

* الطب: ان اساتذة الطب انفسهم الذين قبلوا الاطروحة الشجاعة لمسمير كانوا ينتظرون الفرصة للنيل منها. وقد جاءتهم على هيئة فتاة بصيرة (تيريزا فون بارادي) عازفة بيانو تحت حماية الامبراطورة. لم يفلح أحد في شفائها حتى أفضل اطباء العيون في فينا.

وبسبب فقدان الأمل تقرر عرضها على مسمير... الذي تمكن ان يعيد النظر اليها بمعالجة متقدمة. هل انها قصة عجيبة؟ ربما لكنها حقيقية. لقد كان يدعى بالعمى الهستيري... والان استمعوا... لقد عاد النظر اليها غير ان الفتاة لم تعد تعزف جيداً على البيانو. وهذا يعني انها قد تفقد الدخل الذي كانت تحصل عليه كعازفة بيانو. لقد أقروا بانها استعادت بصرها ولكنهم أنكروا قدرتها على النظر لانها لم تكن تعرف بماذا تسمى الاشياء! (بينما كانت هذه الفتاة بصيرة وهي في الثالثة من عمرها).

واخذ الاطباء يلعنون مسمير ويذيعون هذا الخبر ويروي مسمير بنفسه ان والد الفتاة دخل الى منزله كأنه مجنون يحمل السيف في

يده! غير أن البصر فارق الفتاة مجدداً (وهو ما يؤكد حالة العمى الهستيري) وطرد مسمير من الجامعة ولجأ الى فرنسا.

وكما يحدث دائماً فان اللجنة المكلفة بدراسة المسميرية لم تهتم قط بمعرفة فيما اذا كان ميسمير قد أشفى أم لا بل ان همها الوحيد هو اكتشاف دقة نظريآته! أية نظرية؟ ما هي «المغناطيسية الحيوانية»؟ يستحيل البرهنة على ذلك وان حالات الشفاء التي قام بها ميسمير وضعت في خانة... الخيال. وقد نجحنا(كما يقول المشعوذون).

● التنويم المغناطيسي والايحاء

في عام (١٨١٤) اصبح مسمير في الظل... غير ان طريقته ما تزال باقية. وهناك شخص معروف جداً يدعى السيد دوبو سيغور وهو ضابط في الجيش وباحث يعمل في مجال التنويم المغناطيسي في منزله في منطقة سواسون. غير ان هذا الاسلوب من التنويم المغناطيسي تجاوز الطابع الاحتفالي حيث تستخدم الموسيقى وتسدل الستائر ويقوم هذا الشخص الخارق باللجوء الى العلم وذات يوم (القصة معروفة) لم يسقط احد الرعاة الشباب (المنوم مغناطيسياً) في حالة من التشنجات وبدلاً من ذلك استغرق في نوم عميق ليس بسبب التعب او اللامبالاة ولكن نتيجة لنعاس غريب وأحدثت ضوضاء وحركات وصراخ دون

جدوى فالراعي الشاب لا يستطيع النهوض ولكن فجأة ينهض الشاب ويمشي ويتحدث وهو يخضع كلياً للسيد دبوسيغور الذي لم يكن بعيداً عن اعتبار نفسه ذو ارادة كونية لقد اكتشف التنويم المغناطيسي وكذلك الايحاء المنوم. وبعد ميسمير ودوبو سيغور اكتشف دولوز الايحاء ما بعد التنويمي. ويشير الى ان الشخص عندما يكون يقظا فانه يرد على الاوامر المعطاة له عندما كان نائماً. (مثال لحالة بسيطة وشائعة ـ نقوم بتنويم شخص ما مغناطيسياً ونوحي له ان الماء الذي سيرتشفه سيكون مليئاً بالفلفل بعدها نوقظه من النوم، سيصق الشخص حينئذ باشمئزاز ولن يكون بمقدور أي انسان في العالم ان يبعد عن ذهنه هذه الفكرة وبغية انتزاعها منه يتوجب تنويمه مجدداً).

وتابع الكثير من البحاثة اعمالهم حتى وصل التنويم المغناطيسي الى مرحلة الصعود.

غير ان الميسميريين كانوا يتحدثون كثيراً... ورغم النجاحات الكبيرة العملية بتأثير التنويم المغناطيسي (ونحن في القرن التاسع عشر!) فان الميسميرية تدهورت اكثر مما تطورت. وقد اندلعت الموجة الاخيرة في انكلترا حيث تحول الدكتور اليوتسن الى الميسميرية الامر الذي أدى الى تقديم استقالته القسرية في عام ١٨٣٨...

واليوم وفي عام ١٩٥٥ تقر انكلترا بفعالية التنويم المغناطيسي

وتطلب على لسان الجمعية الطبية البريطانية ان يستخدم التنويم المغناطيسي في المستشفيات ويدرس بنفس القدر والاهمية التي تدرس فيه الفروع الاخرى. وحدث ذلك بعد أن أقر الشيء ذاته في الاتحاد السوفيتي وكثير من البلاد التي تتحدث بالانجليزية.

وفي عام ١٨٣٨ اجريت عمليات بتر رهيبة دون ألم باستخدام التنويم المغناطيسي، اذاً فعصرنا الحاضر يقوم باعادة دراسة مشكلة علاجية مثيرة للاهتمام...

وصلنا الى الدكتور ايسديل وهو طبيب انجليزي يعمل في الهند.

فهو يستخدم التنويم المغناطيسي وينجح في اكثر من ثلاثمائة عملية كبيرة باستخدام التنويم وبدون اية اوجاع! وكيف استقبل هذا الانجاز المدهش؟ قوبل بالاحتقار.. .فقد اغلقت مستشفاه.

● التنويم المغناطيسي - بوابة اللاواعي

لقد وصفته المجلات الشعبية وصفاً جيداً... ماذا تريدون، المدهش!... مريض مستلقٍ اذا كان ذلك ممكن... وبيئة هادئة... وصوت منخفض رتيب ومخادع ومتعب وهو صوت المُنوم. حيث يقول «سوف تنام... ان لك رغبة جامحة بالنوم.. انظر الي... انظر في عيني...» وفي الوقت ذاته يركز

الشخص موضـوع البحث على جسم لامع موضـوع فوق عينيه على بعـد عشرين سنتمتراً تقريباً أمامه. والصوت المنخفض يردد دائمـاً: «سوف تنـام.. لك رغبـة جامحـة في النوم...» ويقوم المـريض بخفض اجفـانه الثقيلة او تنظيف دماغه الذي غدا فارغاً وخـائـراً... أو تصغـر مُقلتيـه في الوقت الذي يصبح فيه التنفس عميقـاً وبطيئـاً ومتنـاغمـاً.. والصوت الذي يسـاعد غالباً ما يكون صوتاً دافئاً سهل التغلغل يعمل في صالح منفذ العملية...

ومن ثم يبـدأ الايحـاء المنـوم: «وابتـداء من هذه اللحظـة لن تزعجـك الحكـة... ومنـذ الان ستشفى كافـة الـدمـامـل... وستختفي الاكـزيمـا.. هل تسمعني؟ ستشفى اكـزيمتـك... سيغدو جلدك جميلاً وممتازاً وصقيلاً وخالياً من الدمامل...».

وغالباً ما تشفى الاكزيما وتختفي الدمامل...

وهناك التنويم المغناطيسي الذي يسبق العملية.

وهنا نشير الى حالة امرأة انكليزية اجريت لها عملية باستخدام التنـويم في عام ١٩٥٦ حيث كان لهـذا الخبـر وقعاً كبيراً آنذاك. فقد قام الطبيب برسم مربع وهمي على بطن المريضة طول ضلعه عشـرين سنتمتـراً. ونـامت المـريضـة مغنـاطيسيـاً، وأوحى لها الطبيب «سـوف أخـدر بطنـك... والتخـدير سيحدث في داخل الحـدود الي رسمتهـا.. وفي داخـل هذا المـربـع لن تشعـري بشيء... ولن تشعري بأيَ ألم..»

وبدأت العملية وتمت دون الشعور بأي ألم.

وقد يتسبب التنويم المغناطيسي في ظهور انتفاخات على الجلد اذا افترضنا ان هذه المنطقة كانت محروقة. وعن طريق الايحاء التنويمي بوسعنا ان نرفع او نخفض عدد ضربات القلب عندما نوصي الشخص ان يتعرض لحادثة مثلاً. وهنا ايضاً تحصل تغيرات قلبية ناجمة عن تحفيز العاطفة. وتأثير التنويم المغناطيسي كبير على الجهاز التنفسي وشديد على الجهاز الهضمي. ويؤثر النوم المغناطيسي على حركات وافرازات المعدة والامعاء كما يؤثر على الجهاز البولي (زيادة أو نقصان في كمية البول) وهناك تأثير على الوظائف الجنسية ايضاً ويبدو انه بالامكان تأخير او تقديم مواعيد العادة الشهرية. أما تأثير النوم المغناطيسي على الاعصاب المحركة للعروق فكبير جداً وبخاصة على الجلد عند ظهور ندب دموية وانتفاخات... (فالجلد يرتبط بعلاقة حميمة مع الجهاز السمبثاوي).

ماذا يبرهن ذلك؟ ان مظاهر التنويم المغناطيسي توضح العلاقة الوثيقة القائمة بين «الروح» و«الجسد». وسأعود الى هذا الموضوع عند دراسة الهستيريا والطب النفسي ـ البدني. وسيكون بوسعنا معرفة امكانات النوم المغناطيسي. ونفهم لماذا نحاول ان نجعل منه ترياقاً عالمياً!

● كيف يتجسد النوم المغناطيسي

النوم المغناطيسي هو رقاد ناقص ينجم عن الايحاء المغناطيسي (بينما الخدر هو رقاد ينجم عن تقنيات كيمياوية) والرقاد المتعلق بالتنويم المغناطيسي هو ليس رقاداً كاملاً حيث يسترخي الشعور لكنه لا يشرد ويحتفظ الشخص بقدرته على التركيز والانتباه اما مداركه الحسية فتبقى قائمة ولا تفقد العضلات حيويتها قط الامر الذي يتيح للشخص النائم مغناطيسياً المشي والنهوض والقيام ببعض التصرفات التي قد تكون متعبة جداً للشخص العادي لنفترض جدلاً اننا نقول الى أحد الاشخاص المنومين مغناطيسياً بأنه يتعذر عليه تحريك ذراعه اليمنى وحتى لو اراد سنرى:

- انه سيقلص العضلات القابضة كي يطوي الذراع
- وانه يقلص العضلات الباسطة لمنعها من الالتواء.

وخلال النوم المغناطيسي نعرف ان الشخص موضوع البحث يبدي الكثير من الانصياع - الى حد معين! - نحو الشخص المُنوم.

انه يجيب على الاسئلة ويمتثل لبعض الاوامر. وحيث ان الاوامر يجب ان تنفذ بعد الرقاد المغناطيسي فهي غالباً ما تكون كذلك، غير اننا لم نكتشف قط إن إتمام فعل من هذا القبيل قد يكون في تناقض صميمي مع المشاعر الأخلاقية للشخص.

* هل بالامكـان تنـويم الشخص رغمـاً عنـه؟ في عصر شاركو كان يُعتقـد بامكـانيـة تحقيق ذلـك غير ان العصر الحديث يرفض ذلـك وعلى الـرغم من صعـوبـة التصميم فالشخص المصـاب بالهستيريـا قابـل للتنويم المغناطيسي بسهولة فائقة . . . وهذا لا يعني ابداً ان كل شخص قابل للتنويم هو مصاب بالهستيريا!

ويدعي بابنسكي قائلاً:

ـ ان الشخص المعني لا يفقد ذاكرته خلال ما كان يجري اثناء النوم المغناطيسي.

ـ وان الرقاد السباتي ليس لا شعورياً.

ـ وان الشخص لا يفقد مطلقاً سيطرته الارادية ونتيجة لذلك لن يرد بدون تبصّر على كافة الاوامر التي يوجهها له المنوم.

ويضيف بابنسكي: «في الحـالات الجـديـة يصبح المنومون مغناطيسياً مجدداً سادة افعالهم كما لو أنهم كانوا في حالة يقظة».

وهـذا الانعكـاس الاخيـر يجعلنا نفكر بالحكاية المُسلية التي حدثنـا عنهـا جانيـه عندما قدم المنوم مريضة منومة مغناطيسياً الى تلامـذتـه في كليـة الطب وطلب اليهم تقديم بعض المقترحات. أحـد هؤلاء الطلبـة اقترح ان تخلع ملابسها. وبعد هذه الكلمات استيقظت المنـومـة مغناطيسياً فجأة وخرجت غاضبة . . . وهو أمر مطمئن جداً في نهاية المطاف. وينطبق الشيء ذاته على امكانية اقناع شخص بارتكاب جريمة قتل وهو تحت تأثير التنويم

المغناطيسي.

ولكن اذا كان للشخص ذاته استعداد داخلي نحو ارتكاب الجرم؟ التجربة بمفردها حسب تستطيع الاجابة على هذا التساؤل.

كيف يجب النظر الى النوم المغناطيسي؟

ننظر اليه ببرود كما هو الحال في العلاجات النفسية الاخرى على الرغم من مظهرها «المدهش» للوهلة الاولى. ولسوء الحظ لا يزال الايمان بالتنويم المغناطيسي على النطاق الجماهيري كما كان عليه الحال عام ١٨٧٠. فالمنوم المغناطيسي يُعد وكأنه دجال يمتلك قدرات ويمسك بين يديه المصير الكامل لمريضه! والحقيقة هي أقل اعجازاً مما نتصور فهي تستند بشكل كامل الى النشاط العصبي كما سنراه لاحقاً.

وقد يكون النّوم المغناطيسي عاملاً مخدراً. واذا ما نجحت بعض العمليات الكبيرة تحت تأثير النوم المغناطيسي فعلينا الا ننسى قط بانها كانت موجودة منذ القرن التاسع عشر ولنحيي اولئك الرواد!

فالقدرة الكبيرة للتنويم المغناطيسي تتمثل اذن في امكانية التعويض عن التخدير الكيمياوي. غير اننا نستطيع ان نستنتج ان ١٠٪ من الاشخاص فقط يمكن ان يخضعوا لتأثير التنويم

المغناطيسي وهو أمر يضعف امكانياته العملية.

والقدرة الاساسية الأخرى تتمثل في الايحاء التنويمي الذي قد يساعد على تفادي الالام التي تلي العملية الجراحية.

ما هي قدرة المنوم المغناطيسي من وجهة النظر السيكولوجية؟

● في الامراض العقلية، يبدو انه لم يتم الحصول على أية نتائج ايجابية. فالكثير من المتخلفين عقلياً يقاومون المنوم المغناطيسي لان الاخير يولد فيهم رد فعل هذياني.

● وفي علم النفس: يمكن الحصول على «نجاحات كاذبة» مذهلة.

وكان يبدو أمراً منطقياً جداً ان نتمكن عن طريق التنويم المغناطيسي التخلص من الافكار الجاهزة والرهاب والتأتأة والاستحواذ.

وغالباً ما نكتشف ان بعض الاضطرابات تختفي بسرعة. كما تختفي الاعراض غير ان النتائج لا تتميز بالديمومة. لماذا؟ لان الاتجاه الصميمي يبقى قائماً.

ولكن الاعراض تتولد من هذا الاتجاه الصميمي. واذا ما اختفت احدى الاعراض فان هناك احتمال كبير ان يحل محله آخر. واذا اختفى الثاني ظهر الثالث... وهذا يعني ان الاتجاه المرضي لا يمكن التخلص منه عن طريق التنويم المغناطيسي.

وهذا ما سيولد توالي الاعراض المتأتية من السبب ذاته الذي

يعيش دائماً في الصميم. (والهستيريا هي احدى الامثلة الساطعة). لاننا اذا أردنا ان نقتل الثعبان لا يمكننا تحقيق ذلك بقطع ذنبه حسب.

العُصاب

يفسر العُصاب عادة بكونه آلية الأمن الداخلي. والمصاب بالعُصاب هو شخص لجأ الى العُصاب ليجد فيه أمنه الذهني.

وبما انه يجد فيه الأمن، يصبح أمراً بديهياً ان العُصاب ذاته (شعورياً أولا شعورياً) ضروري. وبصفة عامة لا يشتكي الشخص من اصابته بالعصاب. انه يشتكي من الشيء الذي يسبب له المعاناة. والحقيقة لا يسبب العُصاب ذاته المعاناة لانه سيصبح أمراً لا شعورياً. غير ان العُصاب يولد اعراضاً وهذه الاعراض مؤلمة وهي ما يتمنى الشخص التخلص منه.

● **لنأخذ هذا المثال البسيط: الاستكمالي**

لنفترض ان الاستكمالي يعاني من الوحدة والاهمال ومن انفعاليته وخجله. ويقرر اذاً الشفاء من هذه الانفعالية ومن هذه الوحدة وهذا الخجل وهي كلها مجرد اعراض مرضية. لكن هل

سيرغب الشفاء من عصابه الصميمي الا وهو الاستكمالية؟ كلا. . . لان هذه الاستكمالية تمثل الطمأنينة بالنسبة اليه!

ونلاحظ اذاً في حالة مثل هذا القبيل ان التنويم المغناطيسي عديم الفائدة. اذ ستدخل ارادة المنوم في صراع مع الارادة الصميمية للشخص المنوم مغناطيسياً ولن يتم الحصول على أية نتيجة.

والحل الوحيد في مثل هذه الحالة يكمن في اللجوء الى العلاج النفسي المعمق. ولكن لنعيد للنوم المغناطيسي قيمته الحقيقية التي هي على أية حال كبيرة!

● شاركو ومستشفى دولا سالبيتر يير

دخلت دراسة التنويم المغناطيسي المرحلة التي يمكن تسميتها «بالرسمية» مع قدوم البروفيسور- شاركو (١٨٢٥-١٩١٣) طبيب الامراض العصبية في مستشفى دولا سالبيتريير. . . هل اصبحت الدراسة افضل واكثر علمية؟ شاركو الذي كان منهمكاً بامراض الجهاز العصبي اكتشف الاهمية الكبيرة للتنويم المغناطيسي الذي كان يُبجل ويرفض بالشغف ذاته. غير ان شاركو كان طبيباً للامراض العصبية وليس طبيباً نفسياً. وفي ميدان الامراض العصبية كان يهتم بفسلجة المنوم مغناطيسياً وبحركاته وردود افعاله. كل ذلك جعله يقترب من المظاهر السيكولوجية وهو

خطر التخصص. . . ! وتجدر الاشارة الى ان شاركو لم يقم بتنويم أحدٍ قط، وبوسعنا ان نتصوره يدخل الى صالة. . يقوم فيها التلاميد بعرض أحد الاشخاص المنومين مغناطيسياً عليه.

وعلى الرغم من كل ذلك فقد كان شاركو على حق. . . وباكتشافه ان المظاهر السيكولوجية كانت ترتبط بدراسة حساسة فقد كان يرغب قبل كل شيء في معرفة الصفات الطبيعية لهذه الحالة الشاذة بغية التعرف عليها عن طريق علامات لا تُعزى ابداً الى التصنع. لنكرر اذاً ان شاركو انهمك قبل كل شيء في دراسة الحركات وردود فعل الاشخاص الواقعين تحت تأثير التنويم المغناطيسي.

وهكذا ابتدأ شاركو الكبير بدراسة فسلجية للتنويم المغناطيسي. وهذا ما جرى: فمدرسة مُستشفى دولا سالبترير كانت «تتزود» بالنساء المصابات بالهستيريا (يسهل تنويمهن مغناطيسياً) ويخضعون للملاحظة. وكان شاركو يتحول من الخاص الى العام بكثير من السهولة وأعلن ان المرضى من هذا النوع فقط كانوا مستعدين للنوم مغناطيسياً! وبالنسبة اليه تعد حالات النوم المغناطيسي مظاهر شاذة

برنهايم أو إعلان الحرب

برنهايم الذي يمثل مدرسة نانسي لم يكن متفقاً قط ولم يتردد

في ذكر ذلك.

هل ان المرضى بمفردهم مستعدين للتنويم المغناطيسي؟ يجيب برنهايم، كلا أبداً! فالتنويم المغناطيسي يعد ظاهرة طبيعية جداً والغالبية العظمى من الاشخاص يمكن تنويمهم مغناطيسياً. وهاكم ما قاله: «ان ما ندعوه بالتنويم المغناطيسي ما هو الا اشغال حيز طبيعي من الدماغ بنشاط معين وهو: الايحائية، أي الاستعداد للخضوع الى تأثير معين دون مناقشة الفكرة. ليس هناك تنويماً مغناطيسياً وما أريد قوله هو انه ليس هناك سوى اشخاصاً لديهم استعداد بدرجة ما لتقبل الايحاء ونستطيع ان نوحي لهم بافكار وانفعالات وافعال وهلوسات. . . »

ماذا يمكننا ان نستنتج؟ . . . ان إمكانية تقبل التنويم المغناطيسي مشروطة بالحالة العضوية في تلك اللحظة، وان مظاهر النوم المغناطيسي تعود الى السبب ذاته: الايحائية وهي ما سنراه لاحقاً.

● بابنسكي، الرجل الذي يستنتج

أكد جوزيف بابنسكي (١٨٥٧-١٩٣٢) آراء برنهايم. ويُعد التنويم المغناطيسي حسب رأي بابنسكي مجرد ايحاء معزز بحالة من عدم القدرة على السيطرة. ويرى التنويم المغناطيسي على انه «حالة نفسية تجعل الشخص الموجود فيها قادراً على تقبل

الايحـاءات الخـارجيـة». وبالتحول نحو الهستيريا فانه لا يعتبرها مرضاً عضوياً بل حالة نفسية تجعل الشخص موضوع البحث قادر على الايحاء لنفسه والخضوع لايحاءات الغير.

● الايحاء الانفعالي

محكمـة الجنـايـات منعقـدة ورأس أحـد الاشخاص سيكون موضـوع المحـاكمـة. محـامي الـدفاع يشمر عن ساعديه ويبدأ مرافعته وتـستمتـع هيئـة المحلفين اليـه وهي متعبـة من الحجـج المقـدمـة. الم تتم مخـاطبـة عقـولهم وفضيلتهم واستقـامتهم الانسـانيـة؟ ويتحـدث المحامي محاولاً اقناع هؤلاء القضاة... وفجأة يعـود المتـرافـع للتـذكيـر بطفـولـة المتهم. أب سكيـر وأم سكيـرة، منـازعـات وبؤس وعـراك مستمر... ويصرخ المحامي قائـلاً: «فكـروا مليـاً بهـذه الطفولة الشنيعة ايها السادة المحلفين وأحكمـوا بالبـراءة!..» أحـد المحلفين يصفر وجهه فهذه الوصية اصـابتـه كالسهم ليس في عقله ولكن في قلب عاطفتـه، لان هذا المحلف تذكـر ايضـاً ان والـده كان يتعـاطى الكحـول وان والدته كانت متـوفيـة كمـا تذكر بؤسه وطفولته التعيسة. لقد توغل حديث المحـامي داخـل «اعماقه»، استطاع هذا المحامي ان يكسب أمام هذا المحلف، فقد خسر العقل والاقناع أمام العاطفة. والاندفاع المتـولـد عنهـا بقي سيـد المـوقف. فمن هذا المحلف قد تصدر

البراءة أو تخفيفاً في الحكم . . .

. ومتى كان المنطق والعقـل في حيـرة من أمرهما ينتصر الايحاء الانفعالي في المعركة . ويعرف قادة الجماهير جيداً ماذا تعني قوة الايحـاء! وكـانت تعـرفها ايضاً السينمائية ليني ريفنتال من الرايخ الالماني الثالث التي أخرجت فلم دخول هتلر الى الاعياد الكبيرة للحزب! اكثر من مائة الف رجل منتظمين جيداً في صفوف والاف الرايات واجراس نورمبورغ تقرع وحلبة من الحجر والرخام وباحة طويلة أمـام الغـابـة . . . وداخل هذه الساحة النباتية ، يتقدم هتلر بمفـــرده بدون حرس في الـــوقت الـــذي تصـدع فيـه الانـاشيـد وتستعـرض المـدافع من بعيد . . . أهو مشهد مسرحي؟ بالتأكيد . ولكنـه ايحـائي قبـل كل شيء ومرتبط بعاطفة كبيرة ، لانه في هذه اللحظـة كان بامكـــان أمـر ايجـائي واحـد ان يحـول هذا المـد الانساني الى سيل . . .

وهـذه العروض العسكرية المنسقة التي تشبه عرضاً في الباليه والمـوسيقى التي تصـدح وهـذه الطبـول التي تقـرع والتي تجعل النـاس المعـادين للعسـكـريـة يقـولـون ان ذلـك يؤثر في انه ايضاً الايحاء الانفعالي .

● ما هو الايحاء؟

يجب عدم الخلط بين الاقناع والايحاء . فاذا ما أردت اقناعك

فانني أتـوجـه الى عقلك، فاحـاول أن أحصـل على موافقتـك الارادية والـواعية. وتكون مقتنعاً اذا اعترفت فاني كنت على حق وستمنح مصادقتك لبراهيني.

أمـا اذا اردت أن أوحي لك فاني ساستخـدم طريقة مغـايـرة تمـامـاً، فعلي التـوجـه الى ايحائيتك. . . وهذا ما يبدو وكأنه امر بديهي. ولهـذا علي أن اتجـاوز وعيـك وعقلك والامسّ مراكـزك العصبيـة الـلاواعيـة، الامر الذي يتطلب وجود ظروف خاصة لان العقل والارادة يجب ان يختفيا أو ينخفض حجمهما. ونصبح اذاً موحى لهم متى ما فقدت الارادة القدرة على المقاومة.

● ما المقصود بالايحائية أو الاستعداد الايحائي؟

انـه الاستعـداد الـذهني الذي يتيح احترام الاوامر بسهولة تامة ودون مناقشة الاوامر.

ويمكن ان يتوضح هذا الاستعداد في حالات متعددة:

- الايحائية قد تأتي من السذاجة أو من سرعة التصديق.

انهم الاشخاص المستعدين لتقبل كل شيء. غير انها ليست الايحائية بمعناها الصحيح.

- الايحائية تتجسد في بعض حالات الاختلال العابرة: التعب الشديد مثلاً، والنهك العصبي وكافة الاضطرابات الانفعالية التي تؤدي الى فقـدان السيطـرة على الـذات (نحن نعـرف الهلع

الجماعي) والانفعالية الشديدة (كالمحلف الذي اقتنع في البداية واصبح موحى له في النهاية). والدرجة الاعلى والايحائية تظهر في الهستيريا (وستدرس لاحقاً).

وباختصار:

الاقناع: يحدث على اثر مناقشة واعية. والطرف الآخر يقتنع طواعيه.

الايحاء: حالة يقبل بها الطرف الآخر دون مناقشة أو تسبيب. والفعل يعد حقيقة فور حصوله، والايحاء يتوجه الى اللاوعي (كما هو الحال في الايحاء التنويمي).

* مثال عن الايحاء: أحد اصدقائك يجلس على كرسي طبيب الاسنان ويخضع الى علاج قاسٍ. وقد يكون أمراً وارداً ان تشعر أنت فجأة بألم سواء في أحد أسنانك أو غيره. وفي هذه اللحظة تعاني دون ان تشكو من أي مرض عضوي. وسيقال لك ان ذلك من وحي «الخيال» بينما انت تعاني فعلاً. فنشك فوراً ان الجهاز العصبي قد يكون وراء ذلك وسنلاحظ ذلك لاحقاً.

* من جانب آخر، فان الايحاء غالباً ما يتطابق مع فكرة موجودة في اعماق الفرد. انظروا الى هذا الانسان الخجول الذي يخرج من قاعة السينما التي يعرض فيها فيلم لدوجلاس فيربانكس! انظروا اليه جيداً: انه يريد ان يكون فيربانكس، انه حقاً فيربانكس وهو يشعر بخفة ومرح وينظر بجرأة!

هذا الرجل موحى له... فقد ايقظ فيه فيربانكس شعوراً لا واعياً: الشعور بالقوة التي يحتاجها في مواجهة ضعفه.

فالايحاء اذاً فكرة تدخل الى الدماغ ويقبلها، انها تهدف الى خلق نزوة غير واقعية ينجم عنها الفعل.

● شروط الايحاء

اذا كان الايحاء شيئاً خاصاً فان شروطه يجب ان تكون خاصة هي الاخرى. ولا يمكن للايحاء ان يتحقق الا في مثل هذه الشروط.

١ـ الايحاء المعتاد نسبياً:

اذكّر بالخجول الذي غادر قاعة العرض انه يرغب بالحصول على القوة لانه يشعر بالضعف. هذه الرغبة تجد نفسها اذاً في اعماقه. هل الرغبة تجد نفسها اذاً في اعماقه. هل أوحى فيربانكس الى هذا الخجول؟ كلا. انه أوقد فيه الآلية حسب، وتولى الاعياء الذاتي للخجول ما تبقى. لقد تحولت الرغبة الى ايمان مؤقت يولد افعالاً (المشية والنظرة والصوت والايحاءات الخ)

■ شرط رقم (١): الايحاء المعتاد يجب ان يتوافق مع شعور موجود مسبقاً في اللاوعي للشخص المعني والذي قد يولد النزوة.

■ شرط رقم (٢): يجب الا يتم رفض الايحاء، والحالات الشائعة هي: التعب والانفعالات والخجل والرهبة والكآبة

والهلع . . . الخ

وهكذا تتقلص المقاومة الذهنية ويتصرف الموحي بسهولة.

مثلاً: اذا قلنا لشخص شديد الانفعال وفي ازمة تامة من الرهبة «. . . ربـاه، كم تبـدو مضطـرباً وشاحباً . . !» لن يواجه مثل هذا الايحـاء ايـة مقاومة فضلاً عن ذلك فانه يلامس شعوراً موجوداً في هذا الشخص. ويظهر الهلع عليه فوراً.

ماذا يفعـل المـوحي اذاً؟ انه يحفز ويدفع الفكرة اللاشعورية. ويتحـول الشخص موضـوع البحث الى الايحاء الذاتي ونرى اذاً ان الايحـاء صعب أو مستحيـل اذا كان الشخص يمتلك كافـة وسـائله لانـه سينـاقش ويسبب . . الـخ وبـذلك نتحول الى حالة الاقنـاع. ان للايحـاء المعتـاد اذاً تأثيـرات مؤقتة لانه يعتمد على حالة عجز مؤقتة.

٢ـ الايحاء المرضي

هذه حالة أخذت من الملاحظات المتعددة لجانيه.

ايـرين شابـة في الحـاديـة والعشـرين من عمـرها تتعرض الى مرض شديـد نتيجة لوفاة والدتها. كانت ترفض شرب ماء الحنفية لانها كانت تعتقد ان هذه الحنفية لا تخرج ماء، بل دماً أحمر، متى بدأ هذا الايحاء الذاتي أو هذه الهلوسة؟ عندما رأت ايرين يوماً ما انسياب الماء قطرة قطرة . . «كما سال الدم من شفتي والدتها . .»

لقد تحول الايحاء الذاتي لابرين الى فكرة ثابتة متسلطة. والفكرة المتسلطة هي احدى اشكال الايحاء الذاتي في اقصى حالاته. ويعد التنويم المغناطيسي الارضية المثالية لزراعة الافكار المتسلطة في دماغ شخص ما. وفيما يأتي تجربة عادية للتنويم المغناطيسي: شخص نائم، نوحي اليه وهو واقع تحت تأثير التنويم المغناطيسي ان القدح الذي يمسكه بيديه مملوء بماء شديد الملوحة. ومن ثم نوقظه. ويشرب هذا الماء (الصافي تماماً!) ولكنه يصفه فوراً مع علامات الاشمئزاز الشديد. ويقول ان الماء شديد الملوحة بصورة لا تصدق. ولن يكون بالامكان اقناعه بعكس ذلك مهما قدمنا له من براهين واثباتات. وبغية تغيير تلك الفكرة يجب ان يعاد مرة اخرى ويمارس عليه الايحاء في الاتجاه المعاكس.

اصيب هذا الشخص اذاً عن طريق التنويم المغناطيسي بفكرة متسلطة وهي ان الماء مالح. وقد جاء الايحاء من المنوم واصبح قناعة مطلقة لدى الشخص النائم مغناطيسياً ومن ثم تحول الى ايحاء ذاتي وفكرة متسلطة. وأكرر ان هناك في كافة هذه الطرق آلية عصبية سنتطرق اليها في الوقت المناسب. والايحاء ليس معجزة ومتى ما فهمنا الطريقة العصبية يختفي اللغز المُحيّر!...

● ما المقصود بالفكرة المتسلطة؟

يمكن اعتبارها فكرة تعيش بصورة «طفيلية» داخل النفس

الانسـانيـة، وتمتلك هذه الفكـرة الطفيلية ما يكفيها من القـوة والاستقـرار للقضـاء على الافكـار الاخرى كافة. وليس هناك أي نقـاش أو تسبيب يمكنهمـا طرد الفكـرة المتسلطة التي تبدو وكأنها صخرة راسخة.

وهنـاك الاف الافكار المتسلطة بدءاً بالحالات الشاذة البسيطة وانتهاء بالافكار المرضية المتطرفة. وقد تفرض حضورها لفترات تطـول او تقصر، وفي حالات معينـة قد تستمـر مدى الحياة... وتسبب للمحيطين بالشخص تعـاسة شديدة فهناك الاف الافكار المتسلطـة اذاً التي قد تترسـخ في الدماغ البشري، وهنا ايضاً لا تكون الحالة المرضية سوى مبالغة لما هو عادي من ناحية العمق والمدة.

الافكار المتسلطة التي يمكن اعتبارها عادية

ـ أحد العلماء يسير وفجأة توقفه مشكلة ما... هذه المشكلة تغزو كامـل كيـانـه. من الـذي سيندهش عندما يرى هذا العالم يتنـاول قلمــاً ويكتب بصـورة لا واعيـة على سيـارة واقفـة؟ ومن سيتعجب «بشـروده» الكـامل؟ ان هذا العالم هو في هذه اللحظة فريسـة لفكـرة متسلطـة: انهـا مشكلتـه! غير ان هذه الفكرة مؤقتة وتنتهي مع ايجاد الحل للصعوبة... حتى تأتيه سيارة وتقف بقوة على بعد عشرة سنتمترات منه لتوقظه من نومه.

ـ فنان مأخوذ بعمله الذي هو في مرحلة المخاض لا يعرف ولا يرى سواه؟ هذه ايضاً فكرة متسلطة. ولو انها فنية ولطيفة لكنها تبقى على الرغم من ذلك فكرة متسلطة!

ـ هذا الرجل الذي تستحوذ عليه المشاكل البيتية، يرتكب الخطأ تلو الآخر في عمله وتتكدس اخطاؤه؟ انها فكرة متسلطة ايضاً ومؤقتة لكنها مزعجة ومرهقة.

الافكار المتسلطة التي تعد شاذة*

في عالمنا الحاضر المتعب الانفعالي هناك عشرات الالاف من بني البشر الذين يذهبون للنوم ليلاً وينهضون قبل الصباح للتأكد من أنهم قد قاموا بغلق صنبور الغاز. ويعودون ثانية للنوم. ويبرز شك اخر: «هل اغلقت الصنبور فعلاً...؟» والعقل يجيب: «نعم، لقد اغلقته». غير ان الوجدانية اللاشعورية تستمر بالشك. وهي «أقوى منهم». فينهضون مرة اخرى ويتأكدون مجدداً ثم يعودون للنوم. هل بوسعنا الاعتقاد ان التأكد لمرتين او لثلاث قد تقنع وجدانيتهم؟ كلا مطلقاً. انهم ينهضون مرة اخرى وهم متعبون بشكل متزايد لكنهم غير قادرين شيئاً فشيئاً على مقاومة الفكرة المتسلطة التي يقرون بتفاهتها لكنهم لا يستطيعون

(*) سأتحدث عن ذلك في موضوع «العصاب والذهان».

عمل أي شيء لوقفها! لقد ضربت هنا مثلاً عن فكرة متسلطة بسيطة غالباً ما تكون مرتبطة بقصور عابر أو تعود الى الاجهاد او القلق النفسي ولكنها مع ذلك فكرة متسلطة وهي احدى اعراض حالة مرضية. وأود هنا أن إقدم افكاراً متسلطة اخرى لكنها موجودة وباعداد كبيرة! يجب ان نفهم جيداً ان هناك الكثير منها ابتداء من البسيطة جداً وحتى البالغة الحدة ومن المؤقتة الى الدائمية، وعلى اية حال فان الفكرة المتسلطة تنجم دوماً عن آلية لاشعورية.

ما هي الافكار المتسلطة الاكثر شيوعاً؟ انها تشمل كافة حالات الاستحواذ والرهاب وغالبية حالات الضيق النفسي والهوس الشديد والخفيف والسطحي والعميق والعادات المستهجنة اذا كانت لا شعورية وميكانيكية. واستحواذ فكرة الجنون الشائعة جداً واستحواذ الخوف من السقوط في الشارع.. الخ

وبوسعنا ان نتساءل ان كان عصرنا الحاضر المليء بالتعب وحالات الكبت والانفعالات العصبية هو الارضية المثالية لظهور هذه الافكار المتسلطة التي لا أتمنى ان تنال من أي فرد على الرغم من امكانية شفائها.

الكبح داخل الفكرة المتسلطة

ان العالم الذي يركز على مشكلته يعد في نظر البعض «شارداً»، غير انه ليس بشارد: انه مكبوح. لقد تحدثت فيما سبق عن الكبح في التعب والخجل. واذا كان العالم لا يلحظ شيئاً فالسبب يعود الى كونه غير قادر عصبياً على رؤية أو سماع أي شيء آخر سوى ما هو مهتم به. لماذا؟ لان كافة المراكز العصبية في دماغه التي لا تعمل للمشكلة الانية متوقفة.

وفي حالة الفكرة المتسلطة فان الخلايا المتوقفة لا تستطيع بالتأكيد اظهار التبدلات الضرورية! ولا تؤدي الرسائل الخارجية الى أي رد فعل.

مثال: بالنسبة لهذا العالم المستحوذ، تأتي سيارة نحوه مستخدمة المنبه لكنه لا يتمكن من رؤيتها بواسطة دماغه لان الفكرة المتسلطة قد أوقفت بقية الخلايا العصبية التي من المفروض ان تكون قد اظهرت رد فعل في مواجهة السيارة أو أي شيء آخر. وهكذا نلاحظ كيف ان الاستعداد الذهني الخالي من الفكرةالمتسلطة والخالي من العناد هو أمر جميل ومقدس!

كيف تتأصل الفكرة المتسلطة مرضياً؟

خلال يوم عادي يتعرض كل شخص منا الى عدد من المناقشات والايحاءات من كافة الصنوف. اذاً لماذا لا نحمل

كلنا افكاراً متسلطة؟

وعلينا ان نفرق مجدداً ما بين:

أ ـ الفكرة الطاغية لحالة آنية.

وب ـ الفكرة المتسلطة (المرضية)

واذا ما ترسخت الفكرة المتسلطة فهذا يعني ان هناك «شيئاً ما» في حالة الشخص اتاح بقاءها.

ويدخل شرطان في هذه اللعبة:

١ ـ الايحاء

٢ ـ الحالة البدنية والذهنية للشخص في اللحظة التي يستلم فيها هذا الايحاء.

وبغية ظهورها فان الفكرة المتسلطة تتطلب تحولاً في التوازن المعتاد للدماغ. أما عن طريق الاستعداد أو الاجهاد الشديد أو الانفعالات أو الاصابات الخ انها تترسخ عندما تبالغ في عامل وجداني موجود مسبقاً. وأتناول مجدداً مثال الخجول الخارج من السينما. فالايحاء الذي ولده الفلم اصبح ايحاءاً ذاتياً. غير ان هذا الايحاء ساهم في دفع حالة موجودة «الى الامام»: الرغبة الكبيرة في ان يصبح قوياً واثقاً من نفسه وميسوراً.. الخ

والفكرة المتسلطة قد تكون:

أ– واعية: أحد المستحوذين يعرف جيداً انه مصاب بالفكرة المتسلطة: لأنه يقاومها بعقله دون ان ينجح في ايجاد حل.

ب ـ لا واعية: تلك هي حالة إيرين التي سبق التطرق اليها.

إنهـا ايضـا حالـة الفكـرة المتسلطـة المتـولدة بواسطة الايحاء التنـويمي. ولكن على ايـة حال فان السبب الـذي يسمح بظهور الفكرة المتسلطة هو دائماً لا واعي.

والتنـويم المغنـاطيسي قد يولـد فكرة متسلطة على الاقل لدى البعض. ولكن هل بوسعنـا القـول ان كافـة الاشخـاص الـذين يصـابـون بهـا قد تعرضوا للتنويم المغناطيسي؟ كلا بالطبع! فاذا لم تكـن الفكـرة قد زرعت من الخـارج فكيف يمكن للايحـاء الـذاتي ان يلعب دوراً الى هذه الـدرجـة؟ كيف يمكن لصـدمـة عاطفيـة مثـلاً ان تترسـخ وتـولـد فكرة متسلطة أو تشنج عضلي أو رهاب أو استحواذ؟ سنرى ذلك عند دراستنا لجانبه.

● أميل كويه والمباراة الداخلية

على الـرغم من الاسس البـدائيـة جداً لنظـريـة أميـل كويـة (١٨٥٧-١٩٢٦) غيـر انهـا تتمتع بمزية كبيرة. فقد قام باستخدام الايحاء الذاتي عملياً حيث يعتبرها ايحاء ينبع من المريض ذاته.

نحن نعـرف الاتي: التسبيب الـواعي قد لا ينفـع كثيـراً في الامراض النفسية كذلك الحال بالنسبة الى المحاججة المعقولة والاقناع.

مثال: يعطي خجول كبير لنفسه ودون كلل ذرائع معقولة كي لا يكون خجولاً انه يحاول اقناع نفسه عن طريق رفع معنوياته بقوة.

هل ان ذلك يصد عنه ازمات الخجل؟ كلا... على العكس! فعدم فائدة التسبيب يظهر في الاستحواذ والرهاب والضيق النفسي.. فالعالم النفسي يعرف اذاً انه من غير المفيد اقناع المريض نفسياً. وقد يكون امراً تافهاً ان نقول له ان سلوكه أحمق لهذا السبب أو ذاك وان عليه «القيام بمجهود».. الخ.

والكثير من المرضى النفسيين يتعرضون الى حالة من عدم الفهم لهذا السبب بالتأكيد: اننا نملأ رؤوسهم طيلة اليوم بمفاهيم الارادة دون التفكير ان هذا الحق مزيف منذ البداية. لماذا؟ لان الآلية العصبية التي تتيح الارادة مزيفة. وهذا الامر يشبه الطلب الى عازف الكمان عزف نوتة الـ (مي) على الوتر المخصص لنوتة الـ (فا). هذا العازف يرغب فعلاً بالعزف غير أن قوسه لا يؤدي سوى نوتة (الفا). هل علينا في هذه الحالة الصراخ والصياح واحتقاره وارغامه بالقوة على عزف نوتة الـ (مي).

إن أي مظهر من مظاهر الارادة الحقيقية يتطلب شروطاً اساسية كي يتجلى. وقد قال العالم زبندن: «ان التعليل الخاطىء هو عيب اكثر خطورة من تعاطي المورفين او الكوكايين...» ما المقصود بذلك؟ اذا كان التسبيب «الصحيح» هو نتيجة للوجدانية «الصحيحة» فان التسبيب الخاطيء هو نتيجة للوجدانية

«المزيفة».

لسوء الحظ ننسى ذلك في تسعين بالمائة من الحالات. . وأنا متفائل بعض الشيء! واذا ما قالت الوجدانية اللاشعورية «كلا»! فان التعليل يحاول عبثاً قول«نعم». انها الوجدانية التي ستكسب في كل مرة ونادراً ما يفهمها الانسان العادي. لماذا؟ لان لديه توافق بين ارادته ورغبته ووجدانيته. وهناك توافق بين ارادته وقدرته. ولكن الا يحصل ان يشعر احياناً في داخله بنوع من التمزق مصحوب بالقلق النفسي؟ لان «شيئاً ما» يدفعه ان يفعل عكس ما كان يريد؟ وفي خياله يزيد من هذا التناقض ويطيل مدته من ناحية الكثافة والعمق وربما سيفهم حينئذ!

وحيث ان أي مرض نفسي يعود الى سبب وجداني فان أية معالجة نفسية يجب ان تستهدف الوجدانية إذ نجد هناك السرطان النفسي. لقد حاول كويه اذاً ان يتوصل الى ذلك عندما قال: «عندما تكون المخيلة والارادة في صراع فان المخيلة هي التي تنتصر دون استثناء. . .».

لذلك أولى كويه أهمية كبيرة لدور الحياة النفسية اللاواعية والتي اسماها المخيلة. وبالتأكيد كانت طريقته بدائية فقد كانت تستهدف استبعاد الايحاء المرضي عن طريق ايحاء مضاد صحيح. وباختصار أمر وأمر مضاد.

نحن نعرف هذه الطريقة الشهيرة، لقد كان كويه يطلب الى

المرضى ان يكرروا حتى وان لم يؤمنوا بذلك ولكن بطريقة تؤثر على الاذنين: «إني اتحسن شيئاً فشيئاً يومياً ومن كافة النواحي . . »

هذه الاحاديث المتكررة ميكانيكياً يجب ان تتوجه هكذا نحو اللاوعي (الوجدانية)، وهذا اللاوعي الذي اقتنع اخيراً بواسطة الانعكاس يدفع الشخص الى التصرف بشكل طبيعي عقلياً وارادياً.

وتعد هذه الطريقة بدائية لانها لا تتعامل الا مع الاعراض بصورة عامة. وهي لا ترى سوى المعاناة بصفتها العامة ولا تعالج الا نادراً جداً الحالات العميقة. وتبقى نظرية كوية بالتأكيد ضمن الخط الايحائي فالشخص يسمع صوتاً (صوته) الذي يوحي اليه بتحسن وهذه القناعة تصبح الوعي الذاتي.

انه لأمر طبيعي جداً ان نقول ايضاً (بعد اكتشافات علم النفس الحديث والطب النفسي ـ البدني) ان النفس تؤثر على الجسد واذا ما استطاعت النفس ان تولد مرضاً فهي ذاتها التي تتمكن من شفائه. (المقصود «بالنفس» هنا «الدماغ»!) وهذا أمر واقع. وسنرى ان أي كائن عضوي يقع تحت تأثير الدماغ. وبذلك تكون نظرية كويه مقبولة جداً.

اذا رغبت ممارسة الايحاء الذاتي

الايحاء الذاتي كالايحاء يأتي من الغير وهو وسيلة ممتازة لتربية الفعل والارادة. واشير هنا الى ان الايحاء الذاتي المبني جيداً يولد في اللاوعي طاقات جديدة ويجمع فيه ايضاحات جديدة. انه وسيلة جيدة لتوسيع وتعزيز الشخصية. وهو يتيح تصحيح العيوب الوجدانية. واكرر مرة اخرى ان الدماغ يمتلك سلطة دكتاتورية تقريباً على الجسد. . .

شروط الايحاء الذاتي

يجب اعتبار الايحاء الذاتي كصيغة تأملية وليس نوعاً من التركيز. والتأمل هو ابتعاد للنفس وانفتاح استسلامي هادىء. انه يتيح دخول الافكار والاحاسيس دون جهد. بينما يعد التركيز جهداً موجهاً الى نقطة محددة. لقد رأينا آنفاً ان التركيز يجعل قسماً من الدماغ في حالة رقاد وهو يستبعد بذلك من تلقاء نفسه مئات الاحاسيس التي قد تكون ذات فائدة. . .

انه حاجز وحاجز كبير! لقد اعطى الدكتور دوبوا من مدينة بيرن نصائح ممتازة الى مرضاه وهي: «أبعدوا عنكم القلق ـ وتخلصوا من كافة همومكم. . . تخلصوا من مشاغلكم. . . حولوا اذهانكم نحو المواضيع المفرحة. . . الخ».

ولكن كما يقول جانيه: «انها بالتأكيد نصائح لطيفة، ولكنها تهكمية بعض الشيء خاصة بالنسبة للاشخاص الغير قادرين على توجيه افكارهم. فعندما لا يتحركون في فراشهم فانهم غالباً ما يختلقون اوهاماً ويتعبون في حساباتهم وفي الاحتمالات الصعبة...».

انه لامر بديهي حقاً ان نقول لشخص مصاب بالاستحواذ: «لا تفكر باستحواذك...» او نقول لشخص انفعالي: «ولكن عليك ان تكون هادئاً وهادئاً جداً!...»

اليس ذلك طفولياً بعض الشيء؟

ما السبيل الى التخلص من هذا الحاجز؟

نساعد الى الدرجة التي تبعد فيها الفكرة المريضة الى اقصى درجة عن النفس. اذاً علينا ان نمس بقدر الامكان المراكز العصبية للاوعي تاركين الوعي «جانباً». وهكذا يصبح الاسترخاء أمراً لابد منه، كيف نحصل على هذا الاسترخاء؟ يجب ان يكون الجسد مستلقياً وساكناً. وتوجد تقنيات خاصة تساعد فى الاراحة التدريجية للعضلات ويجب ان يتم الاشراف عليها من قبل شخص متخصص وبعدها يشعر الانسان بثقل اطرافه الواحدة تلو الاخرى.

وتغلق العينـان وتتـرك الاجفـان معلقة . ونصل بذلك الى حالة من الفتـور والاحسـاس بالتحليق فوق الجسـد . ويجب ان يكون المكان صامت ومظلم ، فيصعب الحصوْل على التأمل عند وجود الضوضاء!

ما هي اللحظة المثلى؟

بالنسبة للاشخاص الذين لم يتدربوا على الاسترخاء العضلي فيجب اختيار اللحظة التي يتحقق فيها الخليط الواعي ـ اللاواعي بصورة ذاتية . أي عند حصول الفتور والنعاس الذي يسبق النوم .

أو في حالـة الفتـور الذي يعقب الاستيقاظ وعندما تبدأ النفس بالتقاط الاشياء التي تراها مجدداً .

عائق : هناك الكثير من الاشخاص الذي لا يتوصلون قط الى حالة الفتور (الانفعاليين والمنحصرين ذهنيا والمصابين بالارق . . الخ) .

وهكـذا يصبـح استخدام الادوية ضرورياً في بعض الاحيان.
وعلى أيـة حال فان التمـرن على الاسـترخاء العميق يجب ان يتم بواسطـة مختص. وبعدها؟ تصل حالة الفتور (احساس بالذهول السطحية)، ويتحرر من أية مشاغل وتدخل الفكرة المفيدة الى اللاوعي.

هذه الفكـرة ستتعـارض بالتأكيـد بالنسبة للمرضى مع حالتهم المتردية. ولا تحاول قط توجيه هذا التأمل السطحي الى التركيز: فمجرد ظهور الجهود يفرض الزُهد نفسه.

هل هناك لحظة مثالية؟

نعم هناك مثل هذه اللحظة غير انها صعبة المنال دون تمرين.
يجب الا يكون هناك انفصال شديد ما بين الوعي والعقل الباطن: فالايحـاء (الـذي يجب ان يبقى ارادياً) قد يفقـد بالتأكيـد من فعاليته*.

وقبـل الـوصول الى خطة الحُلم يستغرق الدماغ في النعاس. غير أنه يبقى واعياً دون أن تشغله فكرة معينة. وكل فرد يعرف حالة

(*) لا تنسى ان الوعي والعقل الباطن يعتمدان على عمل المراكز العصبية.

النـوم النصفي وهي حالـة تقـع ما بين الحلم والحقيقـة . في هذه اللحظـة يصبـح الانسـان متفـرجاً بعد ان كان ممثلاً في السابق، ويتـوقف عن تمثيـل اللعبة ويتحول إلى مرحلة تأمل اللعبة . وكأنه يحضـر فعـلاً سينمـائيـاً أمام عينيه . انه يشاهد مشاهد متلاحقة لا تتطابق مع الواقع . وهو يعلم جيداً انه لا يحلم بسبب بقائه واعياً . فدقات الساعة وضجيج الشارع وصرير الباب ونباح الكلب يصل اليه بدقة متناهية . إنه يبدو محلقاً فوق الحياة وفوق جسده . وهذه الظـاهـرة مستحبـة جداً حيث تمـر الصور والاحاسيس من أمامه كالصور المتحركة مع بعض التفاهات التي يقبلها الانسان لكونها طبيعيـة . وبـاستطـاعتـه ايضـاً ان يتـلاعب بالصور فيحـذف هذه الشخصية ويستبدلها باخرى. . . الخ . انها حقاً اللحظة المناسبة لممارسة الايحاء الذاتي .

اذاً : ننتظـر حتى تغمـر موجـة الكبح القشرة الدماغية التي تعد مركز الوعي الارادي . والحالة التي سيتم الحصول عليها هي حلم اليقظـة وحقـل الوعي يصل الى اقصاه (بينما يتقلص حقل الوعي بشكل ملحوظ في حالة التركيز) .

وسـائـل اخـرى : هنـاك الكثير من الوسائل الأكثر قوة : غير ان مؤازرة العـالـم النفسي أمـر لا بد منه ، ان عرض الصور الرمزية قد يكون شيئاً مفيداً غير اننا ندخل هنا في حقل علم النفس

المعمق.

وسأتحدث عن ذلك لاحقاً في الفصول المتعلقة «بالرموز واحلام اليقظة».

الى ماذا تفضي ممارسة الايحاء الذاتي؟

إنه يتيح التهيئة لحالة ذهنية مواتية، وقد يكون له تأثير على الجسد (وهناك الاف الحالات الكلاسيكية بهذا الصدد).

هوذا مثال أخذ من أحد المستشفيات: رجل مريض منذ فترة طويلة يبدو انه يعاني من السرطان والاعراض واضحة عليه. يتقرر اجراء عملية ويقوم الجراح بفتح بطن المريض ويجد فيها امعاء ناقصة ولكن ليس هناك أي أثر للسرطان. ويصاب الاطباء بالدهشة فكافة الاعراض التي يعاني منها هذا الرجل ترتبط بهذا المرض الرهيب.. ما الذي حصل؟ قد يكون أمراً مملاً الحديث مفصلاً عن الحياة القاسية لهذا الرجل المسكين. انها حياة تتميز بسوء الحظ والوحدة والانعزال والضعف الجسدي والبؤس المعنوي الكبير.

وفي أحد الايام يمرض هذا الرجل ولكونه لا يمتلك ما يكفيه من المال فانه يعالج في احد المستشفيات العامة. وفي هذه الاثناء وللمرة الاولى في حياته التعيسة يشعر هذا الرجل بالسعادة داخل الغرفة المشتركة التي كان يعالج فيها. انه بين اشخاص

آخرين يعانون مثله والكل يعلم كم ان المعاناة المشتركة توحد البشر. . .

وها هم الاطباء لطفاء ومبتسمين واولئك الممرضات متفهمات وإياديهن رقيقة. وهذا سرير انساني انه لم يعد فراش الوحدة والبؤس. وهذا هو الأمن الذهني والمادي، وتبدأ الالية اللاواعية بالعمل. «يجب عليك البقاء هنا. . . يجب ان تبقى مريضاً وتزداد مرضاً. . . » يجب الا تخرج من هنا لانك تشعر بالسعادة. . . »، لقد بدأ الايحاء الذاتي المعذب والمقتدر والمستمر.

واصبح الشخص غير المريض مريضاً حقيقياً. واخذت اعراض السرطان تظهر بعنف اكثر فاكثر حتى وصلت الى العملية غير المجدية. . . لقد كان «السرطان» يمثل بالنسبة لهذا الرجل نوعاً من «الامن» المثالي. وهذه الحالة توضح جيداً قدرة الدماغ التي سنراها في الطب البدني ـ النفسي.

ـ هل تعرفون السيد الذي اصيب «بدوار البحر»؟

كان القارب على الرصيف والسيد يرتاح في كابينته ويحل الظلام في وسط الليل تجتاز ضوضاء المحركات الجدار. «السفينة هي الآن وسط البحر. . . » هذا ما قاله السيد ـ وبدأ كل شيء: الغثيان والقيء والضيق النفسي العميق والرغبة في

المـوت . . . انـه لأمـر مخجـل اذ يختبىء السيـد ويعاني بصمت حتى بزوغ الفجـر وهـوذا يستيقـظ ويلقي نظرة من النافذة . . . ان السفينـة لم تتحـرك! ان قدرة الايحـاء معروفة جيداً . ولكن اليس شيئاً حسناً التذكير بها من وقت لآخر»؟ .

هكـذا ندرك بدون تعب قدرة الايحـاء الجيد في الظروف التي تسمح بظهوره . ويجب ان تتكرر التمارين الذهنية الشخصية كل يوم اذا لم يكن يمتلك الشخص سوى تقنية بدائية .

ما الذي يمكن معالجته بالايحاء؟

اريـد التحـدث هنا عن الايحاء في العمق وهي تقنية خاصة لا يمكن ان يستخـدمهـا الشخص بمفـرده اذا لم يتمـرن . وبين الحالات الشائعة ، الضعف الجنسي والبرودة الجنسية لدى المرأة والخـوف والرهاب والضيق النفسي والارق والتشنجات والعادات الضـارة وضعف الطبـاع وبعض الاضطـرابات الجلدية وعدد كبير من الامـراض الهستيـريـة ، ونـرى اذاً انـه على الرغم من طبيعتها البدائية فقد وضعت طريقة أميل كويه الاسس لعلم نفس الغد . . فلنحيي هذا الرجل ولنواصل المسيرة .

بافلوف الروسي : صديقنا الكلب وآلية النفس

لنتحـول الآن نحـو افق آخـر ، الى التبعـات التي قد يستحـال

حسابها. من هو بافلوف ايفان؟ انه الطبيب الشهير الفقير الغير قادر على تحمل مصاريف شهر العسل مع زوجته سيرافينا كارشينوسكايا؟ ولكنه اصبح استاذاً في علم الفسلجة عام ١٨٩٥ وحصل على جائزة نوبل عام ١٩٠٤؟

انه بكل بساطة رجل نزيه شغوف بالابحاث وبدأ يفكر في بعض المظاهر التي رصدت منذ قرون واستخدم ما كان معروفاً بغية محاولة تفسير ما هو غير معروف. . .

كلنا يعرف بالتأكيد ان الانسان يسيل لعابه عندما يرى ليمونة! وكلنا نعلم ايضاً ان التحدث عن وجبة أكل لذيذة يفعل الشيء ذاته. . . غير اننا كنا نعتبر ردود الفعل هذه على انها «ظواهر نفسية» دون ان نعطي لها أهمية. ولكن هل فكرنا ان قصة الانسان والليمونة اذا ما دُفعت الى حدودها القصوى كان بوسعها ازالة الروح المعنوية وحرية الاختيار والعدالة والقيم الانسانية؟. .

لنقوم بتجربة سريرية: هذا المريض يُعالج منذ فترة معينة عن طريق الابر المهدئة. وفي احد الأيام يقوم أحد الممرضين الذي خطرت على باله فكرة غريبة يزرق هذا المريض بالماء المقطر. وكان التأثير المهدىء واضحاً على المريض! بوسعنا الاعتقاد من النظرة الاولى ان المريض قد سقط فريسة للايحاء الذاتي. ولكن اذا كان هذا المريض معافىً من الناحية النفسية؟ اليس بوسعنا

الافتراض حينئذ ان رد فعله كان نتيجة لعملية زرق الابرة وليس نتيجة للمادة المزروقة؟

دعونا نقوم بزيارة لكلب بافلوف.

أمامنا كلب جائع نقدم له طعاماً شهياً فيكون رد فعله ساراً وهو أمر طبيعي، ولكن في الوقت الذي يتناول فيه طعامه نقوم بحرق قدمه. فيرد الكلب باحساس من الالم. وبعد مرور فترة من الوقت على هذه اللعبة (السرور والالم) يقوم الشخص بحرق قدم الكلب دون ان يعطيه طعاماً. يصبح الكلب ماسوشياً كالانسان الذي يبدي علائم السرور وهو واقع تحت تأثير الحرق. ما الذي حدث؟

قام دماغ الكلب بربط: السرور (الطعام) في نفس الوقت مع الالم (الحرق) وهذا الربط اصبح: سرور = الم (الحرق).

لنترك الكلب ولننظر الى الانسان. فالماسوشية (انظر الحياة الجنسية) تعد شذوذاً منتشراً بصورة مقبولة. وقد اعطى الكاتب ماسوش اسمه لهذه الحالة ليس لقيامه باختراع هذا الانحراف الذي قد يكون قديماً قدم الانسان نفسه بل لانه اراد وصف سلوكه الذاتي.

وبهذا الشذوذ يظهر الكائن البشري رضى (جنسي أو اخلاقي) عن طريق الالم. هذا الارتياح أو للرضى لن يصل اليه اذا لم

نجعله يعاني أما:

- بدنياً (ضربات، او ضربات ظاهرية.. الخ)

- معنوياً (تحقير واهانة... الخ)

وبمقارنة كهذه فان الماسوشية ما هي سوى انعكاس مرتبط بالالم والذي لا يتولد بدونه.

ألانعكاسات الشرطية، باب مفتوحة الى الهاوية

الانعكاس الشرطي هو انعكاس مدفوع من قبل ظرف معين يسمى الاشراط.

هناك نوعان اساسيان:

١ ـ انعكاس الاثارة، انه رد فعل فوري للاشراط.

٢ ـ انعكاس الكبح، الذي يعمل ككابح أو كموقف.

مثال: (س) يعبر احد الشوارع وهناك سيارة تزمر على بعد خطوتين منه وبقوة. وهناك شخص ينظر اليه وهو يتحلى بصفة الهدوء في الظروف كافة (بسبب استكماليته مثلاً).

أ ـ الاشراط: المُنبه

ب ـ الانعكاس الاول للاثارة: قفزة وهلع وانفعال وركض وحروب.

جـ ـ الاشراط الثاني: نظر اليه وهو متمسك بسمعة الهدوء.

د ـ انعكاس الكبح: انه لا يهرب ويكبح انفعاله ويتظاهر

بالهدوء.

الانعكاس الثاني (د) قد الغى الانعكاس الاول (ب).

بافلوف وتجاربه

إنني اتردد في تكرارها لانها معروفة جيداً. لنعيد دراسة قصة الكلب مرة اخرى:

أ ـ نعطي قطعة من اللحم الى الكلب. يسيل لُعاب الحيوان (عن طريق الافراز الذاتي لغدده اللعابية).

ب ـ في الوقت الذي نقدم له قطعة اللحم، نقوم برن الجرس.

جـ ـ بعد فترة معينة سيحرض الجرس بمفرده سيلان اللعاب (دون وجود طعام). ومن ثم علم بافلوف الكلب ما يلي:

أ ـ ان يسيل لعابه عندما يستمع الى الجرس (كما موضح اعلاه).

الجرس: اشارة رقم (١)

ب ـ ان يجيب على اشارة اخرى، ولكن دون ان يستند الى الطعام وهكذا لا يسيل لعاب الكلب عندما يستمع الى الاشارة رقم (٢).

بعدها:

ج ـ نقدم الطعام للكلب باستخدام الاشارة رقم (٢)

د ـ لا يسيـل لعـاب الكلب بينمـا المفـروض ان يولـد الطعـام عملية سيلان اللعاب.

اذاً:

الاشارة رقم (١) : محفزة (خروج اللعاب)

الاشارة رقم (٢): كابحة (توقف اللعاب على الرغم من وجود الطعام).

نستنتج اذاً الاهمية المستحيلة الاحتساب ـ من الناحية الفنية والمعنوية ـ لهاتين التجربتين.

واذا لم يكن سلوك الانسـان سوى مجموعة انعكاسات عصبية صرفة فان ذلك يستتبع إن أية مسؤولية لا يمكن ان تعزى الى كائن من يكون وفي أية ظروف كانت وتصبح المسؤولية الاخلاقية كلمة فارغة . . .

الانعكاسات الدنيا والانعكاسات العليا

الانعكاسات الدُنيا:

إني ألمس مقلاة حارة، فأسحب يدي.

الانعكاس: سحب اليد

الاشراط: حرارة ـ ألم.

الانعكاسات:

لنعَقّد هذا الانعكاس: اني ارفض سحب يدي وابقيها لاقصى فترة.

أ ـ الانعكاس البسيط (محفز): سحب اليد.

ب ـ انعكاس الكبح: رفض سحب اليد تحت اشراط الغرور، للدلالة على «الارادة» وللبرهنة على امكانية تحمل المعاناة... الخ).

جـ ـ الانعكاس النهائي: اترك يدي

الانعكاس هنا قد تحول الى المراكز القصوى للدماغ (القشرة الدماغية) حيث تدخل الارادة في اللعبة فضلاً عن الاختيار والقرار والرفض.. الخ

وهناك ما هو أفضل: هذه ضفدعة بدون دماغ. ومنفذ العملية يضع قطرة من الحامض على احدى ارجلها، وتشاهد الضفدعة تحاول رفع هذه القطرة بواسطة القدم الاخرى!

ـ قد يكون بوسعنا الاعتقاد ان هذا هو فعل محسوب وارادي.. ولو كان للضفدعة دماغاً وعلى افتراض ان بوسعها التفكير الم تكن قد تتصور بانها «ارادت» التخلص من هذه القطرة التي كانت تزعجها؟ الن تعتبر هذا الاحساس بالارادة الحرة على انه واقع بانية عليها نظاماً اخلاقياً لا يستند الى شيء؟

لان هذه الضفدعة لم يعد لديها دماغ! نجد هنا اذاً نشاطاً ذاتياً

لهذا الارغن المثير للاعجاب وهو الجهاز العصبي الذي يجب ان نقف له اجلالاً . . .

* هل هي باب مفتوحة نحو الهاوية؟ نعم. ومن هذه الزاوية فان النشاط الارادي والنشاط الواعي والنشاط الاخلاقي ما هي الا مجموعة من الانعكاسات المعقدة المتمركزة في الدماغ. وبالنتيجة فانها لا تشمل الحرية أو المسؤولية . . .

هو بوسعنا حينئذ ان نشترط على انسان ان يصبح قديساً أو لصاً حسب الظروف المهيئة لجهازه العصبي؟ . . . (على شرط ان تطبق التجارب التي تجري على الحيوان مع الانسان).

لنفترض ان ذلك ممكناً وان كان على الانسان «الاختيار» ما بين (أ) و(ب).

- لنفترض انه يفضل (أ) لأنه يمثل بالنسبة اليه احساساً لطيفاً.

- غير انه لا يستطيع ان يأخذ (أ) لان قيمته الاخلاقية المشروطة بالتربية تمنعه من ذلك.

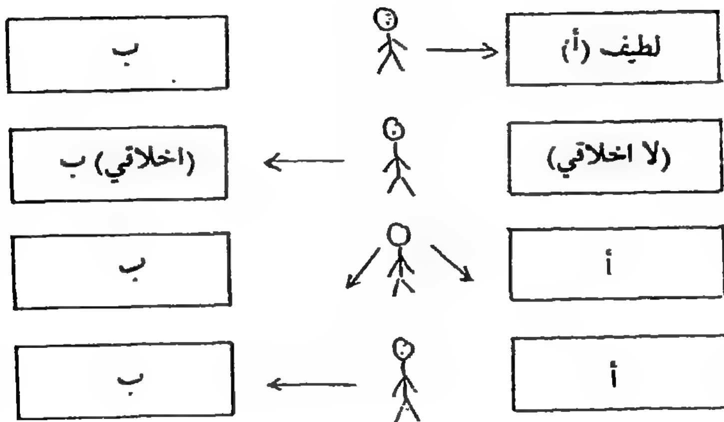
- انه يتردد وتردده مشروط بـ (أ) (رغبة واثارة) وكذلك بقيمه الاخلاقية المشروطة (موقف وكبح).

- انه يتردد بقوة ولفترة طويلة بعض الشيء. ان نوع التردد مشروط بحالته الجسدية والذهنية، والحالة المتوازنة تجعل التردد لا يدوم طويلاً.

أما حالة القصور فانها تمدد التردد حتى يصل الى الغضب

والاضطراب والاندفاع.. الخ (سنلاحظ رد الفعل ذاته لدى الكلب).

ـ واخيراً يختار (ب) وهذا الاختيار هو الانعكاس النهائي لكافة الانعكاسات الشرطية الاخرى.



إذاً لن يكون هذا الانسان مسؤولاً عن رفضه لـ (أ). ليس هناك أي اعجاب أو ميزة أو مكافأة يمكن ان يمنحها له. بل ليس هناك

سوى اللوم الذي قد يوجه له فيما لو أختار (أ). (في هذه الحالة قد تكون الانعكاسات «الكابحة» اقل قوة من انعكاس الرغبة) وبالامكان تعقيد هذه اللعبة الى مالا نهاية...

وهكذا نلاحظ الاهمية الغير محسوبة لتجارب بافلوف... الذي كان حكيماً جداً. لانه لم يوسع نطاق اكتشافاته على الانسان. لقد قام بكل بساطة بعقد مقارنة «ذات طبيعة عامة وعصبية» بين الحيوان والانسان تاركاً الابواب مشرعة للابحاث والقناعات كافة...

* كلب مصاب بالعُصاب!

اذا كنت تمتلك كلباً ربما تكون عودته على قبول الطعام من اليد اليمنى ورفضه اذا قدم له باليد اليسرى؟

اذاً:

اليد اليمنى: اثارة، وقبول الطعام

اليد اليسى: كبح، ورفض الطعام

ماذا نستنتج عندما نقدم الطعام باليد اليسرى؟

الكلب يضطرب يتقدم ويتراجع ويهتز ويعوي مقدماً كل اعراض التناقض المؤلم بين رغبته وكبحه. وفي الوقت الذي يثار بواسطة الطُعم فانه يتوقف بسبب الكبح. فتوجهه الطبيعي نحو الطعام يقول «نعم» اما تربيته المشروطة فتقول «كلا».

ويضحك المشاهدون دون ان يعلموا ان هذا الحيوان يتصرف حسب الآلية ذاتها التي يتصرف بها الانسان في غالبية حالات العصاب. قام بافلوف باشراط أحد الكلاب في تصرفه واضعاً اياه أمام دائرة مضادة موجهة على شاشة وبغية تعزيز هذا الاشراط فلقد قام بافلوف باطعام الكلب.

ويقدم الشخص المنفذ للعملية للكلب فيما بعد شكلاً بيضوياً منوراً وسطوح متشابهة ولكن دون ان يعزز الاشراط. (الشكل البيضوي بالمقارنة مع الدائرة يحصل على خاصيات كابحة لانه لم يكن هناك طعاماً).

ومن ثم بدأ بافلوف بتحويل الشكل البيضوي شيئاً فشيئاً الى دائري وحتى نقطة معينة استطاع الكلب بدقة متناهية تحديد الفرق. انه لم يتحرك أمام الشكل البيضوي غير ان سلوكه تغير عندما أخذ الشكل البيضوي يتحول الى شكل الدائرة. لقد أصبح مضطرباً وبدأ ينبح كما اصبح عديم الاحساس وغير متماسك ويولول كالمجنون...

لقد اصيب هذا الكلب بالعصاب لوجود صراع ما بين الاثارة والكبح وبين «نعم» و«لا». وهذا الصراع يجده العالم النفسي في كل خطوة... وبايقافه الانعكاس المثير فقد خلق بافلوف لدى الكلب تناقضاً بين التوجهات أي العُصاب.

ولكن اذا لم يشمل بافلوف باستنتاجاته الانسان فان آخرين

غيره قد ذهبوا بعيداً جداً في هذا المضمار. . .

واطسن الامريكي والمذهب السلوكي

واطسن مواطن امريكي (اذاً فهو شخص عملي) درس في البداية علم نفس الحيوان ومن ثم تحول فجأة الى علم نفس الانسان مطبقاً على الاخير بكل بساطة كافة السبل التي استخدمها في علم نفس الحيوان.

وفي علم نفس الحيوان علينا الامتناع عن تصور ما يدور في وعي الحيوانات الخاضعة للملاحظة.

وقد فعل واطسن الشيء ذاته مع الانسان دون الاهتمام قط بمعرفة حالته الذاتية.

وباختصار فان أي سلوك انساني بالنسبة للسلوكيين هو مجرد انعكاس.

وعند دراستنا لبافلوف رأينا أن الاثارات كانت بسيطة تتمثل في استخدام الصوت والضوء والحقن الطبية. . الخ. غير أن واطسن الذي يطبق الانعكاسات على أي فعل انساني مهما كان قد وجد كلمة تمثل هذا الجهاز الشديد التعقيد بكافة الاشراطات المحتملة، هذه الكلمة هي: الموقف.

فالسلوك الانساني والطباع الانسانية هما الوسيلتان اللتان يتصرف بموجبهما الفرد في المواقف الآنية نحو «بيئته».

اذاً بالنسبة للمذهب السلوكي تعد الحركة والتفكير والارادة والاختيار والرفض والوعي انعكاسات صرفة لموقف معين. ماذا يقول واطسن؟ . . «أعطوني اثنا عشر طفلاً سليماً صحيح البنية مع البيئة المناسبة لتربيتهم واني التزم بعد اختيارهم عشوائياً بتكوينهم بطريقة تجعل منهم اخصائيين حسب إختياري (اطباء أو تجار أو رجال قانون وحتى متسكعين أو سُراق) بغض النظر عن قابلياتهم واهتماماتهم واتجاهاتهم واستعداداتهم وبغض النظر عن مهنة وأصل اسلافهم».

الكائن البشري حسب المذهب السلوكي

* الشخصية: وتمثل مجموعة عاداتنا الانعكاسية المشروطة كلياً بالظروف. ويكون الانسان تبعاً لذلك ناتج الظروف لا أكثر ولا أقل.

* الفكر: انه فعل فسلجي صرف يتضمن التحدث الى النفس ذاتها. لنتذكر الانعكاس الشهير: «الدماغ يفرز الفكر كما يفرز الكبد مادة الصفراء».

* الضمير: انه يولد من الدماغ ويختفي معه وحتى لا يفسر فهو لا يزيد عن مجرد فعل.

* المرض العقلي: أنه «تناقض» (كما هو الحال لدى الكلب)

ما بين الانعكـاسات المثيرة والانعكاسات الكابحة (سنتطرق الى ذلك عند دراسة فرويد).

* عموماً: الانسان ماكنة مدهشة غير أنه ليس سوى ماكنة بالغة التعقيـد. وبـالنسبة للسلوكيين ليس هناك ثمة فرق ما بين الانسان والحيـوان باستثنـاء التعقيـدات الانسـانيـة التي تُعـزى الى العدد الاضافي من الخلايا العصبية.

انها ماكنة بلا حرية وبلا مسؤولية...

وحسب رأي السلوكيين فان الانسـان ليس سوى مجمـوعة من ردود الفعل الشديدة التعقيد سواء أكان ذلك في قواه العليا أم في افعاله الدُنيا.

التواضع المُلزم

لنُقـر انـه لو كان هذا الموقـف صحيحاً فقد يكون له على الاقل نتيجـة تتمثـل في ازالـة الكبـرياء الأخرق للانسان واتاحة الفرصة أمـامـه للتفكيـر في وضعـه من حين لآخر. انه يزيل أي تمييز بين النـاس وأي شكـل من أشكـال التحقيـر واللوم، وعنـدمـا يصبـح الانسان تافهاً امام الكون فانه قد يشعر انه جزء لا يتجزأ منه وأحد العوامل الواعية!

أليست هذه المـاكنـة المـدهشة المتمثلة بالدماغ هي قبل كل شيء أرغناً هائلاً يعزف مقطوعات الى مالا نهاية؟

واذا ما فكـرنـا بان حيـاة عازف الارغن غير كافيـة لمعـرفـة المقطوعات كافة التي يستطيع اخراجها أرغنه فعلينا ايضاً التفكير بالعـدد الهـائـل من الانعكاسات التي يمكن ان تظهر في مليارات خلايا الدماغ!

ومهمـا كانت الحقيقـة النهـائيـة فمن المؤكـد ان الكثير من الافعـال والافكـار ليست سوى عادات وردود فعـل مكتسبـة. انها انعكـاسـات مشـروطـة بالظـروف الاجتماعية والجغرافية والدينية والاخلاقية والعائلية والوراثية.

ولكن السنـا نرى ملايين النـاس الـذين لا يتمكنـون من عزف سوى بضعـة نوتـات من هذه الآلة الهائلة؟ السنا نراهم «يعيشون» فقط حول عاداتهم العقلية وتشنجاتهم وخوفهم وكبتهم وضيقهم النفسي؟

وهكـذا يعـزف ارغنهم الميكـانيكي بعض النـوتات المتشابهة دائماً بينما قد تخلق قدراتهم الفعلية سمفونيات كبيرة..

ولكنهم وهم ضائعـون في هذه الاعـداد الهـائلة من العـادات الـذهنيـة، الا يطـالبون بحريتهم وبمسؤوليتهم ليتحيون لانفسهم بذلك الحكم على الآخرين؟

وهكذا نجد الاهمية المخيفة للتربية.

ان التـربيـة الاولية للطفل تستند الى الايحاءات والانعكاسات المشـروطـة واذا ما كانت التربية سيئة التوجيه فانها قد ترسخ الى

الابد. ونلاحظ انه اذا ما أصبح الانعكاس السيء راجحاً فانه سيعيق التكيف الصحيح للظروف! وعندما يصبح الانسان بالغاً فسيعطي دوماً الجواب ذاته كجهاز البيانو الذي صنع ليعيد الموسيقى ذاتها. . .

● بيير جانيه (١٨٥٩-١٩٤٧)

يعد بيير جانيه أحد عمالقة علم النفس الفرنسيين. . . فهو رجل نبيه يتميز بالأصالة معروف منذ كان في الثانية والثلاثين من عمره وبقي واعياً حتى نهاية عمره المديد.

انه رجل بلا عقيدة! وفيما يلي الوصف الذي قدمه مينكوفسكي لبيير جانيه:

«بيير جانيه هو ذلك الرجل اليقظ الممشوق القوام ذو النظرة الثاقبة والطبيعة الطفولية المرنة والتصرفات المعتدلة والدقيقة. عندما يدعوك الى مكتبه فانك تتأثر فوراً بالجو الخاص المليء بالجد والمثابرة والفكر والفضول العلمي الدائم واليقظة وحب الاطلاع النابع من شخصيته الفذة حيث تبدو غرفته الكبيرة وقد تشبعت بها. تلك الغرفة المليئة من أعلاها الى اسفلها بالكتب التي تُعينه في عمله. إن صورة العمل المثابر الذي قد أنجز وما زال متواصلاً تغمرك بالتقوى».

وكانت رغبة جانيه الكبرى تتمثل في ايجاد صلة بين اهتماماته الدينية والعلمية. ألم يقولها بنفسه؟. . .

«كنت أحلم بتحقيق مصالحة بين العلم والدين والوحدة يجب ان تتم عن طريق فلسفة متكاملة ترضي العقل والايمان. لم أتمكن من تحقيق هذه المعجزة، غير أني بقيت فيلسوفاً. . .»

وبعد ان حصل على شهادة الدكتوراه في الطب بدأ جانيه في دراسة مرضى الصرع.

وقد مارس التنويم المغناطيسي بشغف شديد، وقام بابحاث متعددة. . . وعندما بلغ الثلاثين من عمره كتب الاطروحة المسماة:

العمل اللارادي النفسي. وكان ذلك في عام ١٨٨٩.

يذهب جانيه فيما بعد الى باريس ويتوجه نحوشاركو دولاسالبتريير الكبير وهو المكان المثالي بالنسبة له حيث يصادف ظواهر التنويم المغناطيسي والهستيريا.

ويتابع جانيه محاضرات شاركو ويصبح فيما بعد مديراً لمختبر علم النفس المرضي.

وتشهد المؤلفات المتعددة على الاف الملاحظات الثاقبة التي تتميز بالطابع الانساني الصميمي.

أربعون سنة من الملاحظات!

هاكم ما قاله جانيه: «ان التقلص في الاختصاصات لم يكن قط أمراً حسناً، واذا ما انصب اهتمامنا على علم النفس فان هذا التقلص قد تكون له نتائج سيئة. . . فعلم النفس ومن خلال تعريفه ينصرف الى كافة الاختصاصات تقريباً، فهو يتميز

بالشمولية لاننا نجد الحالات النفسية في كل مكان. . . ».

● **الانسان العادي والانسان الشاذ كما يراهما جانيه**

هوذا مفهوم رئيس في علم النفس وفي التوازن اليومي. ما هي المواقف المشتركة لكافة الاشخاص؟ هي ان يجدوا أنفسهم غارقين في الظروف وهذه الظروف تتطلب اذاً تكيفاً. . . مع أقل الخسائر الممكنة. وهنا يكمن الفرق بين الاشخاص العاديين والشواذ. وبغية ان نفهم ذلك بصورة أفضل نضرب مثلاً فسيولوجياً هو: وجبة الطعام.

أ ـ الانسان العادي عندما يهضم الطعام يمتص في الوقت ذاته العناصر الغذائية التي تشكل وجبته الغذائية ويتم الهضم دون عقبة تذكر ودون أي ازعاج.

ب ـ أما الانسان الشاذ فيخضع خلال عملية الهضم الى مصاعب هضمية متعددة. وكما نقول «يظل الطعام في معدته»، فضلاً عن ذلك يمكن أن تظهر اعراض اخرى كالقيء والاضطرابات والدوار. اذاً هناك مادة لم يتم تمثيلها بصورة متناسقة مع العناصر الغذائية الاخرى.

لنتحول الآن الى الجانب النفسي:

الرجل المعتاد هو رجل «بتوتر» نفسي متناغم وقوي. لنفترض ان هذا الرجل يجد نفسه أمام ظرف لم يستعد له. ما الذي

سيحدث في هذه الحالة؟ انه «سيهضم» الحدث بكل بساطة ويسر تام. أضرب لكم مثلاً على ذلك: انتم ترغبون الدخول الى صالة مليئة بالناس دون تحضير وهناك مئات العيون مسمرة في وجوهكم. فان كنتم اناساً عاديين ما الذي سيحدث:

أ ـ حيث ان الظرف مفاجىء فانك تتوقف بغية ملاحظة الموقف.

ب ـ تتخذ القرار بسرعة وتتقدم باتزان

جـ ـ وعند قيامك بذلك تتكيف تدريجياً وبسرعة.

د ـ وخلال دقائق معدودة تتطور بيسر دون خشية ودون انفعال أو عدوانية أو خشونة.

هـ ـ ومن ثم لا تشعر بالتعب أو بالانفعال، لان هذا الفعل لم يكلفك طاقة كبيرة فلقد انجز وانتهى وتكيف مع باقي الظروف مكوناً شخصيتك.

أما اذا كنت شاذاً(مثلاً: خجول أو مكبوت أو عدواني... الخ).

أ ـ بما ان الظرف مفاجىء وجديد فانك تتوقف

ب ـ تخضع للهلع ولتأثير الانفعال

جـ ـ يظهر الخوف والانفعال

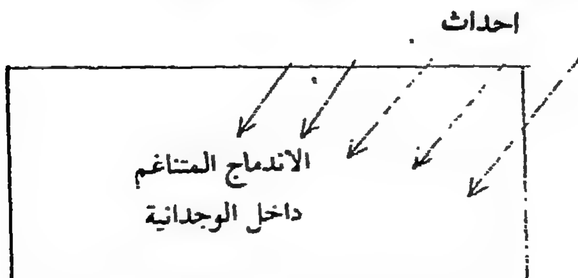
د ـ اما تبقى مسمراً في مكانك أو تهرب أو تهاجم

هـ ـ تعـاني من الاجهـاد فقـد كلفـك هذا الفعـل الكثيـر من النـاحيـة الانفعـاليـة. فضلاً عن ذلك فان الفعل لم ينته حيث قد تجتـر فشلك في التكيف وتعـزز شعـورك بالنقص أوتظهـر لديـك مخاوف ورُهابات. . الخ

الانسان العادي والشاذ في الحياة اليومية

تتطلب الحياة اليومية بالتأكيد الاف التكيفات! وهناك الظروف الجـديـدة مهما كانت وهناك الاحداث غير المتوقعة والمسؤوليات الجديدة والاخفاقات والهزات المفاجئة والانفعالات. . . الخ

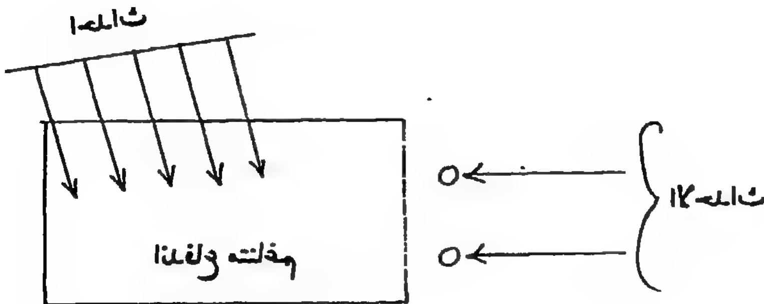
ماذا يفعل الانسان العادي؟ انه «يدمج» كافة الظروف ويبتلعها ومن ثم يقـوم بهضمهـا ذهنيـاً، وتنـدمج كافة الاحداث في «أناه» وتـدخـل بصـورة متنـاغمة ضمن شخصيته العامة. ويتم كل ذلك دون أذى أوتعب. وتشبه وجدانية الانسان العادي خزاناً تذوب فيه الاحـداث، كمـا هو الحـال بالنسبـة لمجموعة من الفواكه داخل حوض لصنع المربى (أوكالعناصر الغذائية المختلفة داخل معدة بحالة جيدة). وعلى النحو التالي:



وماذا يفعل الانسان الشاذ؟

الحدث لا يُهضم ذهنياً كما لا يتم امتصاصه من قبل (الانا).

ويبقى الظرف خارج هذه (الانا) التي تعمل لحسابها الخاص. وخارج «خزان» الوجدانية يتكون تابع أوعدة توابع ذهنية لها حياتها الخاصة ولا يمكنها ان تندمج داخل الخزان العام للوجدانية. وكل تابع من هذه التوابع الذهنية يفرض تمزقات داخلية ويولد اعراضاً (ما يشبه سوء الهضم الذهني مثلاً..) وهكذا تنفصم وحدة الـ (أنا). وهذا يبدو من خلال العقد وحالات الكبت والانفعالات.. الخ وحيئذ تظهر المجموعة الكبيرة من الاعراض ابتداء من التوعكات المعنوية البسيطة وانتهاء بالاستحواذات الرهبية*. وعلى النحو التالي:



* سترى ذلك لدى دراسة التحليل النفسي

ماذا يقول جانيه عن الضمير؟

لنتناول الصورة مجدداً: الضمير يشبه خزان كبير يحوي في داخله كافة الاحداث فالضمير يتميز اذاً بنشاط جمعي لان عليه تحقيق اندماج متناغم بين الاف الظروف المختلفة. فالضمير يجمع الظواهر المتعددة في ظاهرة جديدة واحدة لكنها تختلف عن الظاهرة المنعزلة.

حالة الانسان العادي داخل الصالة: تبقى (أناه) سليمة حيث أنه قد حصل في هذه الاثناء على تجربة جديدة، الا ان هذه التجربة اندمجت داخل شخصيته، فقد حدث تجميع للاحداث.

أما في حالة الانسان الشاذ فان الظرف يبقى خارج (أناه) وهذه (الانا) تمزق بواسطة أحدى التوابع الذهنية التي تمثل فعل المفقود وبالنتيجة فان أي مرض نفسي مهما كان يأتي من ضعف القدرة على التجميع. وينبثق حدث لا يتمكن الشخص المعنى ان يكفيه للـ (أنا)، فترتبخي وحدة الشخصية وينخفض التوتر. وفي اللهجة الشعبية الا نقول «هذا الشيء لم اهضمه بعد!»

وهذا يعني ان الحدث الذي بقي خارج (الانا) يجعله يقلق للـ (أنا) بالاستحواذ.

● **النقاط الاساسية لمفهوم جانيه في علم النفس**

من المؤكد ان افعال انسان ما لا تحمل دائماً القيمة ذاتها. فانت تستطيع التكيف بسهولة مع بعض الظروف التي تتوافق مع عادة معينة.

مثال: الحياة العادية للعمل في المكتب لا تمثل أية صعوبة في التكيف بالنسبة للشخص العادي. ولكن الأمر يتغير بمجمله اذا كانت حياة المكتب شاذة (رئيس دكتاتوري مثلاً) او اذا كان المستخدم شاذ (شديد الخجل او عدواني أو مكتئب.. الخ).

اذاً يعتمد كل شيء على الاتي:

أ ـ اذا انجز الفعل عن طريق الانعكاس المعتاد: فليست هناك صعوبة في التكيف.

ب ـ اذا تطلب الفعل سلوكاً جديداً فان التكيف قد يحدث أو لا يحدث. وكيف؟ ببساطة لان التكيف يعتمد على حالة الشخص (البدنية والذهنية). والمطلوب هنا اذاً ان نرى فيما لو كان الفعل يتطلب سلوكاً جديداً وغير معتاد!

هذا السلوك يظهر عادة في الانفعالات ووفاة شخص عزيز والنشاط الجنسي والمسؤوليات الجديدة والرحلات والتعايش مع اشخاص سمجين... الخ

مثال: الفعل المبدع والفعل الذكي هما اكثر اثارة للتعب من

الافعال العادية او الغريزية. واذا ما تركت الامور على حالها فانك ستكون أقل تعباً مما لو ركزت. . . الخ

بوسعنا ان نقول، اذاً، ان هناك افعالاً ذات «توتر عال» واخرى ذات «توتر واطىء». والتوتر المطلوب هو في ترابط وثيق مع تعقيد السلوك المطلوب تبنيه. فضلاً عن ذلك فان هذا السلوك يجب ان يتجمع ويندمج في (الانا) وهذه الانا عليها ان تبقى ميسرة ومتناغمة.

ويؤكد جانيه قائلاً: «من البديهي ان هناك افعالاً اكثر تكلفة من غيرها وتجهد القوى بصورة متزايدة، وعلينا ان نفهم ان انجاز الافعال الراقية التي تخضع للتفكير اكثر قدرة على تحديد حالات الكآبة..»

ما هي الحكمة اذاً؟

كل واحد منا يعرف ان الغنى المادي لا يمثل الشيء ذاته بالنسبة للجميع. كما يعرف كل فرد ايضاً ان الطاقة تختلف من شخص لآخر. ولكن اذا صرف الناس أموالهم استناداً لرأسمالهم فكم من الناس سيصرف طاقته استناداً لقوته؟..

هل تريد ان تكون حكيماً بذكاء؟ عليك معرفة رأسمالك! ومعرفة حدود طاقتك، وعليك ان تعرف فوق كل شيء الافعال الكثيرة التكلفة.

فرحلة بسيطة لا تمثل أي استهلاك في الطاقة لشخص ما وقد تكـون فعـلاً شديـد الانهاك بالنسبة لشخص آخر. علينا اذاً معرفة حدودنـا. اليس أمـراً ذكيـاً ان نستثمـر أمـوالنـا بغية ان نتمكن من العيش من الفوائد التي تحققها؟ ان لدى الاشخاص «العصبيين» اتجـاه نحـو الفعـل النـاقص حيث يكـون تكيفهم صعبا للمواقف الجديدة ويتطلب استناداً لذلك استهلاكاً كبيراً في الطاقة. فضلاً عن ذلك اذا كان العمل يتعب فان الانفعال ينهك اكثر. ولا ننسى الاشخـاص «العصبيين» ملاحقـون بفكـرة عدم القدرة او الخوف من التعب.

اذاً عليه معرفة قدرته على العمل البدني والذهني التي لا يجوز ان يتجاوزها. انه يستطيع ان ينفق الفائدة لكنه لا يجوز ان يلمس رأس المـال! ان التمـرن على ايقاع ثابت من العمل أمر ضروري غير ان معرفة ايقاف عمل معين فور ظهور التعب يعد أكثر أهمية. والطـاقـة التي استعيـدت تنعكس في رأس المـال الذي يثمر عن فوائد وهكذا . . . والنشاط الانساني يجب ان يتوزع ما بين العمل والراحة، والايقاع الكبير يجب ان يوجه هذا النشاط. فعليه تركيز الانتبـاه على التعب ليس بغيــة ان يثيـر الفـزع في نفسـه بل كي يحصـل بواسطتـه على المعلومـات والخبرة، كذلك ليتعلم بعمق كيفيـة ترتيب ايقـاع حيـاتـه. . . بالضبط كما يفعل في نهاية اليوم عنـدمـا يدقق حسـابـاتـه ليستنتـج فيمـا اذا تجاوزت نفقاته الحد

المعتـاد. وعلى الشخص العصبي «المـزاج» الا يعطي قط أهمية استحواذية لتعبه أو يفقد رباطة جأشه بسبب ضعف ذاكرته بل على العكس عليـه الاستفـادة من ذلـك للدراسـة ومعـرفـة حدوده التي يمكن توسيعها بسهولـة عن طريق التـدرب على نمط من الحياة يتيح له أخيراً «تقبل» أي فعل وهضمه دون بذل مجهود ويمكنه من التصرف والتفكير بيسر الذي هو في نهاية المطاف مملكة الانسان.

● الافعال المنهكة:

لقد درس جانيه بعناية الافعال المنهكة أي النشاطات التي قد تؤدي الى «انخفـاض في التـوتـر». وأهم هذه الافعـال: التعب الانفعالي المتواصل والاجهاد الذهني وكافة الانفعالات المكثبة. وغـالبـاً جداً يبقى الفعـل لدى المحبطين على مستوى الـرغبـة وضعف الارادة. وتتشتت الجهود دون أية نتيجة ايجابية.

ولا ينجـز الشخص اعمـاله بصورة كاملة ويزداد تشتت الجهود ويظهـر حينئـذ الانفعـال والجهـد عديم الفـائـدة والتـردد والشك والاجترار الذهني وعدم الرضى عن النفس والانهاك. وقد تحدثت عن ذلك في موضوع «التعب» (انظر الفهرست).

وكـل شيء يعتمـد طبعـاً على استعـدادات كل شخص. مرة اخرى نتساءل ما هي الحكمة؟ معرفة الشخص لافعاله المنهكة!

غير ان بعض الافعال تكون منهكة لان اساسها عُصاب.

وهنا من المؤكد انّ يهتم علم النفس بالعُصاب وليس بالفعل المُنهك ذاته الذي هو مجرد علامة مرضية.

وبالقدر ذاته فان تناول طعام العشاء مع العائلة ربما يكون بالنسبة للبعض اكثر اثارة للتعب من القيام بدراسة مكثفة. لماذا؟ بسبب الانقباض والكبت والعدائية «المكبوتة» التي قد يسببها هذا العشاء. هذه الحالة تقودني الى التحدث عن الاشخاص المنهكين، ان التعايش مع هذا النوع من الأشخاص غالباً ما يولد اسوأ العُصابات. والاشخاص المنهكين قد نطلق عليهم اسم «مستهلكو الطاقة»، لماذا وكيف؟ سنرى ذلك. ولكن حيث اني سبق وان قلتها فان مستهلكي الطاقة غالباً ما نجدهم في الوسط العائلي وبكل بساطة لكون التعايش طويل الأمد ويخضع الى القوانين الاخلاقية والى الاحترام المطلق والى تفادي العداوات.. الخ

غير انه من المؤكد ان مدير المكتب يستطيع ان «يستهلك» طاقة موظفيه لوجود التعايش هنا ايضاً.

● مستهلكو الطاقة أو الاشخاص المنهكين

من هؤلاء الاشخاص؟ انهم كثيرون ويرتدون اقنعة كثيرة ومختلفة سأمتنع عن ذكرها جميعاً.. وعلى أية حال فان لهم علامة

مميزة مشتركة هي : الحاجة للهيمنة!

انهم مجموعة من الاشخاص المتسلطين الدكتاتوريين والمهووسين والكثيري المطالب والمستائين والغيورين والشديدي الحساسية والحقودين . . .

هؤلاء الاشخاص المنهكين يمتلكون اقنعة مختلفة كما قلت سالفاً .

كم من الاشخاص يخفون حاجتهم للهيمنة تحت قناع «الطيبة» المبالغ فيها؟ (حتى لو كانت غير واعية) . والآلية حاذقة جداً . أحد افراد اسرتك مثلاً يهيمن عليك وانت تشعر بعدائية داخلية مشحونة بالانفعال ولكن اذا كان هذا الشخص طيب بصورة مدهشة نحوك فكيف يكون بوسعك تفريغ هذه العدائية الانفعالية؟ سيكون الكبت حينذاك بكل معانيه . . .

وبالاسلوب ذاته كم من الاشخاص يلعبون لعبة الشهادة «للحصول على ما يبتغون بصورة أفضل؟ كم من الناس يتعلق بطفله ويحتضنه»؟كم من الامهات يمنعون ابناءهم لاشعورياًمن أن يصبحوا رجالاً ويفعلون كل ما في وسعهم كي يظلوا اطفالاً صغار؟ وفي هذه الحالاتيمكناستخدام أية وسيلة ابتداء من التسلطية وانتهاء بالاقنعة المتعددة التي قد تخيفها . . .

متى يلتهم هؤلاء الاشخاص المنهكين طاقة الذي يتعايشون معهم؟ في المقام الاول عندما يصبح من المستحيل تفريغ

العدائية الانفعالية. (قد تكون هذه حالة الطفل في مواجهة والديه أو مستخدم بمواجهة رئيسه) فضلاً عن ذلك فان الشخص الذي يشعر بحاجة شديدة للهيمنة هو شخص مصاب بالعُصاب. حيث تمثل الهيمنة بالنسبة له آلية للامن الداخلي. فالتكيف لمثل هؤلاء الاشخاص لا يعد صعباً جداً فحسب بل كثير التجدد والتغير. وبالنسبة لهؤلاء الاشخاص فان نمط الحياة لا يُعد موجوداً لانهم دائماً متوترين ومكتئبين ومترصدين والتردد هو سمتهم الاساسية. ولكن علينا الا ننسى ان هذه التعايشات غالباً ما تدوم لسنوات عديدة. هل نشعر بالانفعالات وبالثورات وبحالات الغضب «المكبوت» التي يثيرها مستهلكو الطاقة هؤلاء؟ ما هي شكاوي الاشخاص الذين يعيشون معهم؟

هناك الكثير من النقاط المشتركة التي يقدمها هؤلاء الاشخاص أهمها: الاجهاد الدائم وتضاءل الشخصية واستحالة ان يكون طبيعياً واستحالة الفعل العفوي والحساب الدقيق لابسط فعل والشعور بالنقص والحرمان والتهرب من المسؤلية. . . الخ.

لقد ذكرت ان الهيمنة قد تتجسد بصيغة خالصة ولكن ايضاً قد يكون لها عدة أوجه تغطيها. وان الحالة الاخيرة هي التي تولد الداء الاكثر ضرراً.

● **المتسلط البحت**

هناك فرقاً شاسعاً بين السلطة والنزعة التسلطية، فالسلطة تعتبر القيادة مجرد وسيلة، وترمي السلطة الى تحقيق اتساع حقيقي، وهي تحترم الاشخاص الذين تقودهم. هذا ما نسميه بالقيادة الديمقراطية بصفتها الخالصة، وهذه السلطة الاصيلة تعطي لانها تمتلك الثروة والقوة.

ومن هو المتسلط؟ انه العكس تماماً... فالمتسلط يعتبر القيادة هدفاً بحد ذاته وتمثل هذه القيادة بالنسبة اليه الطمأنينة الداخلية وهو يرفض كل شكل من أشكال النقاش حول هيمنته. انه يطلب كل شيء ولا يعطي شيئاً. والمتسلط عدواني، اذاً هو شخص ضعيف! وتعد قيادته هجوماً معقداً. انه يهاجم خوفاً من أن يُهاجم وذلك لانه يشعر بالضعف والغبن. وتعد النزعة التسلطية والهيمنة بالنسبة للضعفاء تعويضات من الدرجة الاولى. ان التقليل من قيمة الاخرين يمنحهم شعوراً وهمياً بالتفوق والقوة. فضلاً عن ذلك فانهم يحسون بقدرتهم على انجاز عمل ما دون ان يضطروا الى بذل الطاقة الابداعية الضرورية الذين هم غير قادرين عليها. وفي الحياة اليومية يزداد بكثرة هذا النوع من الرؤوساء البدلاء.

وفي نفس هذه الحياة اليومية يتمكن المتسلطون البقاء بفضل عوامل عدة، وقبل كل شيء بسبب العوامل النفعية: مثلاً، أحد

المرؤوسين لا يعترض خوفاً من فقدان عمله، أو مرؤوس خائف. . . الخ.

ومن ثم سبب اللبس الابدي ما بين القوة والعدوانية، غير اننا لاحظنا عدة مرات ان العدوانية تتعارض مع القوة. . .

وهناك لبس آخر ما بين القساوة المهيمنة والارادة.

واذا كان المتسلط يبدو ارادياً بشدة فهو بالتأكيد لانه لا يمتلك ارادة حقيقية مطلقاً. . لانه لا يمتلك قوة ذهنية!

ونستنتج ان المتسلط يعاند لاتفه الاسباب. لماذا؟ لان أية معارضة تضعه أمام عدم يقينه وضعفه. وعناد المتسلط هو الأب المسكين للارادة. واذا كان بالامكان اعتبار العناد نوعاً من الارادة فان البغال ضمن هذا المنظور ستكون قوية الارادة (وسأتناول هذا الموضوع في الفصل المخصص للارادة).

ويحدث كل هذا توعكات في الصحة لان التعايش مع متسلط يُعد فعلاً متعباً وبخاصة اذا كان يمثل محرماً يمنع اخلاقياً الثوران بوجهه كما سبق وان ذكرت.

حالة من الهيمنة المقنعة:

إيف رجل في الثلاثين من عمره وقع ضحية للعُصاب والانهاك لان عمته التي اشرفت على تربيته لم تدعه قط يكمل عملاً ما دون ان تساعده. لقد فرضت هذه العمة مساعدتها عليه كما

فرضت افكارها وتوصياتها. حضور مستمر وهوس بالمساعدة وتقديم النصح.

هاكم ما يقوله إيف: «.. لم أتمكن قط من إكمال عمل ما مهما كان تافهاً دون ان تتدخل لمساعدتي... لا استطيع ان أفسر ذلك... لقد كان امراً منهكاً ان يترك الانسان نفسه يسقط في حفرة ويتيح للآخر حضانته وتدليله... وخذوا هذا المثال: جلب الفحم اليس هو عملاً في منتهى البساطة؟ ومع ذلك فانها كانت تفرض علي مساعدتها بحجج مختلفة...

لا تأخذ كثيراً... انه ثقيل... يجب علي ان اساعدك، انا افعل هكذا... الخ. أو عند القيام بعمل رزمة؟ ورزمة تافهة مثلاً؟ (ذراعا ايف كانتا ترتجفان بسبب الثوران)... ليس هناك امكانية للقيام بها بصورة منفردة... فعمتي مستعدة دائماً وملتصقة بي وبالرزمة.. كانت تلاحظني كيف أضع الشيء المقصود... وهذا يحدث كل يوم هل تسمعني؟ وعندما أفلح أحياناً بالقيام بشيء ما تسمح لي القيام به فكنتِ أشعر وكأنني أحمق لا يزيد عمره على الثلاث سنوات.

لقد كنت اشعر بفقدان رجولتي واستمر ذلك (١٨) عاماً! هل كان علي أن اثور؟ كانت عمتي شديدة الطيبة فقد كانت تغمرني بعطفها. ولم تكن تفهم ثورتي لانها كانت تعتقد ان ما كانت تفعله أمراً جيداً دون ان تعرف بانها شديدة التسلط على الرغم من

«طيبتهـا» . . . لقـد كانت تبـدو حسـاسـة ومقطبـة عندما يقال لها العكس! كنت اشعـر بالانقبـاض عنـدمـا أقوم بعمل شيء افضل ان تقوم به هي . . وحتى بالنسبة للاعمال الكبيرة كنت ابدو وكأني خامـل! لقـد ابتلعت الغيـظ الـداخلي لثمـان عشرة سنة ولم يكن لدي شعور قط باني رجل عفوي . . » .

وما هي النتيجة؟ لم يعد إيف قادراً على تحمل أية مسؤولية وتحول الى انسان شاذ جنسياً . . . هذا كل ما في الامر لكنه مأساوي .

حالة اخرى

جاك مراهق والـدتـه كانت تعتقـد انـه ليس بوسعـه عمل شيء بدونهـا . وهي حالـة شبيهـة بعض الشيء بحالة إيف وفي يوم من الايـام توجـب على جاك نقـل شيء قابـل للكسـر الى غرفـة الإستقبـال . انـه فعل اعتيـادي كمـا يبدو! وللمرة الالف تتدخل والـدتـه قائلة : « . . انتبـه جيـداً . . كنت أرغب نقـل ذلـك بنفسي . . . جسنـا فعلت بالسمـاح لي بتغليفـه ليكـون الأمر اكثر أمـانـاً . . . انتبـه جيـداً ، لا تنـزلق . . . انتبه . . . احمله برفق ولا تأخذه بشدة! انتظر : دعني أحميه بقصاصة ورق . . »

والمراهق الذي شعر باليأس رد على والدته وهو يصرخ : .

«انني انقل حاجيات منذ سنين طويلة هل تسمعيني ! هل سقط شيء في احـد المـرات؟ هل تعتقـدين باني لا زلت في الثالثة من

عمري؟» ليس هناك ما يمكن عمله، فأما ان تقاطع الام المصابة بالعُصاب أو تقـول ان ولدها «ذو طباع سيئة». أو أنها تكرر: «كلا ولكن انتبـه على الـرغم من ذلك . .» واخيراً بسبب الانهاك الذي اصاب المراهق يُسقط الحاجة من يده على الارض بعصبية رهيبة ويخرج دون ان يتفوه بكلمة .

لقـد روت لي الأم هذه الحـادثة قائلة: «. . . انه طبع لا يتسم بالعـرفـان يا سيـدي، لقد فعلت كل شيء من أجله . . أوه! انهم شباب اليوم . . !» وعندما حاولت ان أشرح لهذه السيدة ببساطة ان متـابعتهـا التسلطيـة له كانت في طريقهـا لان تسحقه وان الحاجة المكسورة لم تكن سوى فعل رجولي ثائر وكادت أن تخنقني .

حالة اخرى

انهـا حالـة من الهيمنـة المقنعة ايضاً. وهنا الطاعة غير مطلوبة عن طريق أوامـر وانمـا هي مطلوبـة كحـالـة ودية . وهذا ما يسميه جانيـه «هـوس الحب». ماذا يقـول المصـاب بالعُصـاب من هذا النـوع؟ «اني بحـاجة ان اكون محبوباً بصورة دائمة واكون محاطاً ومـدلـلاً كمـا اني بحـاجـة ان يهتموا بي ولا أستطيع تحمل شيء يجري خارجاً عني».

ويقـول جانيـه: «ان الـذين يسمـونهم بالراغبين في ان يكونوا محبوبين لا يتحملون قط التعرض للهجوم أو الغبن بأي شكل من

الاشكال. انهم بحاجة للمديح والاطراء الدائمين والثناء الذي يصعّد توترهم النفسي». وبالنسبة لهؤلاء الاشخاص فان الحب يمثل بالنسبة لهم أخذ فقط وبكل بساطة دون ان يعطوا أي شيء الهم سوى الانهاك. وعلى الشخص المتعايش اذاً ان يكون جاهزاً دون توقف لتلبية رغباتهم ولحالات ضعفهم وليتفادى احزانهم وملامتهم وتصرفاتهم الانتحارية وحساسيتهم...

● الغيورون

الغيرة هي مصدر ألم قاتل لكثير من العوائل. والغيرة قد تكون بسيطة او مرضية. والشخص «المحبوب» مقيد بصورة مطلقة ومحاط بطوق دائمي. فضلاً عن ذلك تظهر عدائية مهووسة ووحشية بدون توقف تجاه أي شيء قد يتسبب في تشتيت الشخص «المحبوب» كالدراسات الشخصية والعمل والكتب والاصدقاء... وحتى بالنسبة للافكار الصامتة (كالتأمل)، والشخص الغيور لن يُقر ان الشخص «المحبوب» يفكر أو يحلم بمفرده لماذا؟ لانه قد يخرج بذلك عن الدائرة المغلقة التي احاط بها نفسه. وهذا ما يقوله رجل يعيش مع أمرأة غيورة:

«انه لأمر منهك حقاً، فانا مجهد بصورة جنونية وأخاف العودة الى منزلي... لان أي موضوع قد يكون حجة لاندلاع الغيرة..

- فربطة العنق الجيدة والمرح والابتسامة على الشفتين كلها قد

تتسبب في اثارة الغيرة. . . وتقول لي مثلاً:

«هل صادفت امرأة اخرى جعلتك تبتسم هكذا؟

نعم لقد اكتشفت باني لم أعد جميلة لكني اريدك ان تكون لي بمفردي».

أنا لا اجيب لعدم جدوى ذلك، انها فعلاً فكرة متسلطة أني اشعر وكأني سجين تحت الرقابة الشديدة واذا لم اكن أفكر بشيء فانها تلومني لأنني لا أفكر فيها واذا لم أتكلم فتلومني لكوني لا ابالي. . .

أما في الشارع فان المراقبة لا تطاق. . . فعلي السير متصلباً لان هناك نساء يسرن في الشارع. . . تصوروا! لقد اضطررت للتخلي عن كل اصدقائي الذين يبدون وكأنهم ياخذون شيئاً من حبها. . . كما لا اتجرأ حتى على المطالعة. . . واذا ما استمر الحال معي ستة اشهر اخرى فانني قد أذهب الى المستشفى. . . لذلك وصلت الى الدرجة التي افضل فيها البقاء في محل عملي رغم كرهي الشديد له. . .» والغيرة اذاً هي تشبثية كاملة لانها تعد الشخص «المحبوب» وكأنه شيء عادي مملوك لا يحق له التمتع بقليل من الحياة الشخصية والعفوية.

والغيرة غالباً ما تكون علامة لضعف معنوي وفقر وجداني كبير. والشخص الغيور يحاول ان يسد فراغاً داخلياً تتمركز فيه غالباً مشاعر النقص. كيف نحتفظ اذاً بهذا الشيء؟ عن طريق

سجنه ذهنياً. وهو أمر شائع، وقد يكون السجن جسدياً ايضاً. وهو ما يحدث احياناً!

والحقيقة ان امتلاك شيء ما يتطلب نوعاً من الجهد للحفاظ عليه، وهذا ما لا يستطيع الغيور القيام به. لذلك يتوجب عليه اطلاق دكتاتوريته كشكل من أشكال الهروب الذي سيتطلب بدوره العمل على استرجاع ما يفقده.. ومن هنا تنبع العدوانية العنيفة ضد الاشخاص الغرباء الذين قد يتسببون في عملية الاسترجاع هذه.

(مثال: تصبح الامرأة الغيورة عدوانية تجاه اصدقاء زوجها الذين «يخطفونه منها» ويرغمونها كما تعتقد على استعادة حُب زوجها..»

والغيور يعتقد بانه يُحب غير انه لا يبحث سوى عن طمأنينته الداخلية، والغيرة لدى الكبار هي على الدوام دلالة على قصور نفسي ولدى الاشخاص الغيورين يكون فقدان الامن شديداً ومتعدداً بحيث ان ابسط هزة قد تكشف عن أزمة وجدانية.. ومن هنا نفهم أن الدكتاتورية والقوة البوليسية هي السلاح الوحيد بيد الغيور. وقد تسبب ابسط اشكال «الهروب» من الشخص «المحبوب» في احداث القلق النفسي والاستحواذ وفي بعض الاحيان البغضاء الشديدة.

والغيرة هي احدى صيغ النزعة التسلطية التي قد تتسبب

بدورها في حدوث حالات عدم توازن جديدة كالاستحواذ والفكرة المتسلطة والتفريغات العنيفة والعاطفية والاجترار الذهني . . الخ كل ذلك على حساب الشخص السجين.

واكرر اذاً ان الغيرة دلالة على عدم التوازن الوجداني .

● الغيرة لدى الاطفال

هناك الكثير من الاليات التي تتدخل في الموضوع وابسط اشكالها هي عندما يغار الطفل الاكبر من الطفل الذي بعده والذي يعتبره وكأنه قد استحوذ على كل حب والديه. وهذه غيرة طبيعية يمكن التخلص منها عن طريق الموقف الذي يتخذه الوالدين والمسؤولية التي يمنحونها للطفل الاكبر.

وفيما بعد يصبح الطفل الأصغر هو الذي يغار من أخيه الاكبر، لماذا؟ لاسباب تتعلق بالتفوق الجسدي والمعنوي الناجم عن السن. وهنا ايضاً يعتمد كل شيء على الوضع العائلي. وهناك نوع آخر من الغيرة تتعلق بغيرة الطفل تجاه أحد والديه من ذات الجنس (مثال: الولد يغار من والده). وهذه الصيغة تعد الاكثر أهمية وسنراها لاحقاً عند دراسة التحليل النفسي وبالخصوص عقدة أوديب.

وتبقى غالبية المشاعر لاواعية (وبخاصة في عقدة أوديب!) ورغم انها لا واعية غير أنها تعمل! ماذا يفعل الطفل اذاً؟ انه يفرغ

غيرته عن طريق عدوانيته الخطرة احياناً. أو يكون التفريغ رمزياً في بعض الاحيان. يقوم الطفل بتدمير الدمية العائدة لمنافسه بشدة أو يدوسها بقدمه.. الخ أو أنه يلعب مع الدمى ويظهر غريمه بشخصية حقيرة. أو يقوم الطفل برسم غريمه وهو مرفوض من العائلة مقتولاً أو قد سُخر منه.

وقد تتسبب الغيرة الطفولية في ظهور اعراض عصبية وبخاصة التشنجات وسلس البول (انظر المعجم).

والحالة الاكثر خطورة تظهر عندما يبدي الطفل تراجع وجداني حيث يتضاءل ويشعر بالنقص: يبقى طفولي ويلعب مع الاطفال الصغار بغية جذب انتباه الولدين. وهذه الحالة تُعد صعبة اذا ما استمرت حيث قد يتسبب ذلك في العُصاب.. وسيكون لدينا عندئذ مراهق مصاب بالعُصاب وطفولي ومتراجع وجدانياً وغير قادر سوى على مواجهة الفشل الدائم.

ومن حالات اخرى يشعر الطفل بغيرته العدوانية وكأنها خطأ جسيماً (ويمكن التأكد من ذلك في عقدة أوديب). واذا لم تنته هذه الحالة بصورة طبيعية فاننا سنشاهد البالغ وهو مليء بمشاعر الذنب اللاواعية ومشاعر النقص والشذوذ الجنسي المستتر.. الخ وسأتحدث فيما بعد عن كل ذلك.

● الغيرة الاسقاطية

عليّ طرح حالـة معينـة (وهي شائعـة نوعـا ما) توضـح بعض «الخفايا» الغريبة احياناً للغيرة ونقصد هنا موقف اكثر حدة لاحدى الصيغ الرهيبـة لغيـرة والتي قد تتدخل مع عوامل مختلفة. فهي تصبح فكرة متسلطة تصل الى هذيان الاضطهاد.

وهـذا ما يقـولـه السيـد (س): «زوجتي تتهمني باستمرار باني عشيق لعـدد من النســاء الـلاتي تعـرفهن وهي تدعي باني اراود صديقاتها وكل النساء اللاتي التقي بهن وهي لم تتوقف عن ذلك قط. وقـد اصبـح الامر لا يطاق وحياة كالجحيم. وفور عودتي الى المنـزل تبـدأ فورات الغضب والاتهـامـات المتـواصلة... انهـا تحـاول اختبـاري في كافة الاحيان... وعندما نكون في مجتمع معين فان ذلـك يصبـح امـراً رهيباً. وقد يصل بها الحال ان تصفع امرأة لانني نظرت اليها بكل بساطة!

وتقـول عني ان لدي الكثيـر من العـلاقـات الفـاسقـة وبـانني شخص فاسـق... صدقـني انـي أعــاني من ألم شديـد... والادهى من ذلـك ان زوجتي تعـرف جيـداً ان عشيقاتي لسن من «النوع الذي افضله». وهنا يتدخل المحلل النفسي حيث ان هذا النـوع من الغيـرة هو نوع مرضي بمـا لا يقبـل الشـك. واذا كانت الـزوجـة ذاتهـا أمـام المحلل النفـسي فانه سيكتشف بـسرعة الآلية

التي قد تفسر كل شيء.

أعـود مرة اخـرى لحـالـة هذا الـزوج اليائس، فالزوجة مقتنعة تمـامـاً ان زوجهـايخـونها مع نساء اخريات بطريقة فاسقة ومعيبة. وانــذاك تكتشف حالــة صميمية غريبـة جدا بالنسبـة للشخص الجاهل لكنها شائعة بالنسبة للمحلل النفسي.

١ ـ ان طراز النسـاء المتهمـات لا يتطـابق مع الطـراز المثـالي الانثوي للزوج.

٢ ـ ان هذا الطـراز من النسـاء يتطـابق تماماً مع الطراز المثالي الذي تفضله الزوجة. فهل ان هذه الزوجة شاذة جنسياً؟ نعم انها شاذة جنسياً ولكن بصورة غير واعية وخفية. وبما انها شاذة جنسياً بصـورة لاواعيـة فانهـا تأمل في مراودة النساء الاخريات. لماذا لا تفعـل ذلـك؟ لان شذوذهـا الجنسي لا شعوري ولان هذا الشذوذ مكبـوت عن المنـاطق الـواعيـة للدماغ بسبب المفهوم الاخلاقي لهـذه الـزوجـة. ألا تتهم زوجهـا بعلاقات «فاسقة» وهي تعبر عن اتجاهاتها الاخلاقية التي تشعر بها في داخلها؟

وعلى ايـة حال سواء أكـانت هذه الغـرائـز الجنسيـة الـلاواعية مكبوتة أم غير مكبوتة فانها تفعل فعلها!

ماذا يجري اذاً؟

١ ـ ان هذه الزوجة ترغب لاشعورياً في مراودة النساء.

٢ ـ انها لا تستطيع وهي غير قادرة على القيام بذلك.

٣ ـ من يقوم بصورة عامة بمراودة النساء؟ انه الرجل أي زوجها.

٤ ـ في هذه الاثناء تسقط الزوجة أهتماماتها الشخصية على زوجها وتصبح هي زوجها وهي مقتنعة بانه سيقوم بالافعال التي كانت ترغب القيام بها بنفسها.

٥ ـ انها تغار من زوجها لأنها كانت تتمنى ان تحل محله ومن ثم اذا كانت تعتز بزوجها تبدأ حالات الغيرة الشديدة لآلية قد تبدو «خيالية» لكنها تعتمد على الاتجاهات اللاشعورية القوية. . .

وفي هذه الحالة المحددة هناك ضحيتان: الزوج الذي يعاني من زوجته والزوجة التي تتمزق باستمرار نتيجة صراع داخلي مرير ما بين:

أ ـ اتجاهاتها اللاشعورية الشاذة جنسياً.

ب ـ وبماذا تعتقد خارجياً: امرأة اعتيادية جنسياً. .

والحالة المعاكسة قد تحدث ايضاً عندما يكون الزوج مصاب بالذهان المزمن أو الشذوذ الجنسي اللاشعوري الذي يسقط اتجاهاته على زوجته فهو يصبح بدل زوجته التي يعتقد بان الرجال يراودوها ويريد في داخله ان يحل محلها.

وهكذا نلاحظ جيداً ان الغيرة قد ترتدي رداءات مختلفة. فالغيرة البسيطة لا يجوز اعتبارها شاذة.

مثال: غيرة الطفل لا تصبح شاذة الا اذا اكتسبت صفة

الاستمرارية أو اذا أدت إلى تراجع وجداني .وقد تعلق الامر بغيرة البالغين فهي غالباً ما تكون ذات طبيعة شاذة. انها حينذاك علامة عن حالة وجدانية قاصرة ويجب ان تخضع لمعالجة نفسية عميقة.

● التفان المتسلط

«لم يعد لدي والدين» هذا ما يقوله بول. « اني أعيش مع جدتي منذ عشر سنوات ولا ادري اذا كنت احبها أو أكرهها، اعتقد الاثنان معاً. . جدتي متفانية حقاً! وبصورة مبالغ فيها ربما. انها تفرض علي ما تعتقده صحيحاً حتى وان لم يتفق ذلك مع رغبتي. وماذا عن رغبتي ورأيي الشخصي؟ انها لا تصغي اليهما فهي تهتم باعداد الطعام، وعلي ان اتناول يومياً اللحم الاحمر لانه مفيد للصحة. انه «مفيد جداً» هذا اللحم الاحمر بينما أنا أكرهه بشدة وقلت لها ذلك آلاف المرات ولكن ليس هناك ما يمكن فعله. فعلي تناول اللحم الاحمر يومياً. ويحدث الشيء ذاته بالنسبة للامور الاخرى انها تفرض علي تفانيها ومساعدتها وانا مضطر لابتلاع كل شيء خوفاً من العتاب انها تدور حولي كالذبابة الطنانة واذا حاولت افهامها بان لي ذوقي الخاص ايضاً فانني كما لو كنت اتحدث الى حائط. ان ذلك يتعبني الى اقصى الحدود. كم من المرات اضطررت الى التقيؤ بعد وجبة العشاء لانني كنت ثائراً

وغـاضبـاً؟ ولكن يحـدث في بعض الاحيـان ان يخـرج غضبي الـداخلي واصبـح قاسيـاً بصورة رهيبة لان التفسير لا يجدي نفعاً انهـا لا تفهم ان من حقي ان تكون لي رغبة شخصية. وبعدها كل شيء ينفجـر كمـرجـل واقـع تحت الضغط ويثير غضبي بصورة لا تطـاق بحيث اصيبت بالـذهـول. غيـر انني شعرت بالندم العميق لأيـام طويلة ولم أكن أعـرف ماذا أفعـل كي تسـامحني وبـدأت أتصـرف كالطفـل الصغير والاطفها. . . لقد مضت ثلاث سنوات وأنـا احـاول أن ادفـع لهـا الايجـار، اليس ذلك أمراً طبيعياً؟ انني أعمـل وهذا يمنحني انطباع باني رجل مستقل. . . . لقد رفضت ذلك دائماً وهي تشعر بالحزن لدى اصراري على الدفع.

وهنـا ايضـاً تفـرض علي تفـانيها ومساعدتها! وفي قرارة نفسـها فانهـا تتمنى ان ابقى خاضعـاً لهـا. واذا ما أردت أن اكـون رجـلاً فعلي أن اتـركهـا ولكنني لست قادراً على تحقيق ذلك. . . انها لا تشعر بالاذى الذي يلحق بي باعتقادها انها تمنحني كل الخير في هذا العالم. . . »

وهـا نحن ايضـاً أمام حالة من النزعة التسلطية الخفية، وهؤلاء الاشخاص لا يتفانون فعلاً بل انهم يفرضون تفانيهم في أي ظرف كان.

ان لهم هوس فرض قبـول الهـدايا بطريقة لطيفة وأنهم يفعلون كل شيء بمفـردهم. وهم يعطـون انطباع ان الاخرين غير قادرين

على القيام بأي عمل ناجح!

فضلاً عن ذلك فانهم يشعرون بحاجة للحصول على العرفان الـذي يعـزز طمأنينتهم الـداخلية. أما خارجياً فهم يبدون وكأنهم في حالة ممتازة وهم يتمنون ان تحس بذلك ونقوله لهم.

وهكـذا نفهم ان الانقبـاض والانهاك يظهران لدى المتعايشين معهم مع كافـة الاحتمـالات الممكنـة المتمثلة بحالات الخجل والشعـور بالنقص وانعـدام الـرجـولة والفشل والعُصاب والاوجاع المعديّة. . . الخ وساتحدث عن ذلك لاحقاً. . .

كيف يقود مستهلكو الطاقة أقربائهم الى الانهاك والعُصاب؟

انـه لأمـر مؤلـم ان يكون للمتسلطين (بدوّن قناع أومع القناع) تأثير عميق وفوري على المحيطين بهم. ما هو رد فعل الاقربون؟ انه قبل كل شيء انفعالي الى حد كبير.

ما هو رد الفعل الذي تريد الحصول عليه أمام شخص «جامد» فعلاً؟ أمام شخصٍ يفرض كل شيء ويراقب كل شيء وهو مغمور بالتفان والطيبة المهووسة؟

ستظهــر ردود فعـل تتمثـل في الثـوران الانفعـالي والمخـاتلة والفــزع والانقبــاض والكــذب والهيجــان الـداخلي والغضب المكبوت والندم والشعور بالذنب والنقص. . . وعبر كل ذلك فان

الشخص يحاول انقاذ شخصيته المستقلة! انها تتمثل في آلية الانفعال دون تفريغ ثم يثور وكأنه نوع من السرطان المعنوي الصامت.

وسنرى في الطب النفسي ـ البدني الآثار الجسيمة والنفسية للانفعال. وهكذا أستمع دائماً الى: «انه ثقل يومي رهيب، من المستحيل تفسير ذلك منطقياً... أنها نفحات تصعد الى رأسي ومضايقات في المعدة وغثيان... إني لا أدري ما يجب عمله لارضائه أو لارضائها. كنت افضل مئات الافعال الواضحة بدلاً من آلاف ردود الفعل الصغيرة التي قد لا نعرف نتائجها قط. أني أعيش دائماً في حالة ترقب... أنها أو (انه) تقتلني دون أن تعلم... كيف تريدون مني ان أكون رجلاً في مثل هذه الظروف؟ يجب ان أكافح بشدة حتى أتمكن من التصرف بمفردي...»

وهكذا نرى ان «هضم» المشاعر العديدة المتناقضة يصبح أمراً صعباً وحتى مستحيلاً. فيظهر الانهاك ولا يعد بمقدور الوعي القيام بعملية التجميع. كيف يمكن لمراهق يعيش مع متسلط ان يتقبل ويمزج مشاعر متناقضة تماماً؟ الحب حالياً والثورة والبغضاء المكبوتة مستقبلاً؟ وكيف لا تضيع وجدانيته وهي تتمزق من هذا الجانب أو ذاك ولفترة طويلة؟ هل بوسعه حفظ شخصيته سليمة وهي تتعرض للتشقق الدائم والهزات المستمرة؟

وتصبح (الانا) في مواجهة الشخص المنهك منقسمة ومشتتة ومزدحمة «بالتوابع». اننا سنصاب بالفزع اذا فكرنا ملياً بالعدد الذي لا يخصى من الامراض النفسية والتربية الناقصة والشذوذ الجنسي والفشل الكامل الناجم عن النزعة التسلطية بكافة اشكالها . . . وعالم النفس يعرف النتائج الشائعة . .

الهستيريا

لقد عرفنا جانيه مديراً لمختبر علم النفس المرضي . لقد كانت الهستيريا انذاك «الملكة المتوجة».

ما هو هذا المرض المتعذر الوصول اليه؟

تعد الهستيريا مرضاً مضطرباً بصفة عامة . وهي ليست وليدة قرننا الحالي المضطرب! فقد شغلت الاطباء والاطباء النفسيين لمئات السنين وجعلتهم يعيشون في كابوس الاخفاق . . . وفي الوقت الذي كانت لا تسبب فيه الهستيريا اختلاجات عصبية فانها كانت تسبب أوجاعاً في الرأس، وعندما تختفي الاختلاجات تبدأ حالات التقيؤ بالظهور وبعض حالات الشلل وقد يجد الشخص المصاب بالهستيريا نفسه وقد أصيب بالعمى بصورة مفاجئة ودون أي سبب عضوي ظاهر. واذا ما أختفى العمى فقد يظهر الصمم اذا جاز القول .

لقد كانت تتسبب الهستيريا أيضاً في حالات الاستحواذ

والازمات والافكار المتسلطة وأوجاع شديدة أحياناً.

وقد ادى العدد المتزايد والمتنوع لاعراض الهستيريا الى ايقاع الاطبـاء تحت وطأة الفـزع. فقـد كان لكـل واحـد منهم رأيه الخـاص، غيـر ان الـرأي الثابت الـوحيد هو الجزم ان الشخص مصاب بالهستيريا.. هل هي مجرد ازمة عصبية؟ قد يكون ذلك صحيحاً. هل هي امرأة شديدة الشبق جنسياً؟ الجواب ذاته.

لقد كان امراً يسيراً بالتأكيد ان نحلل بهذا الشكل ولكننا كنا في الواقع بعيدين كل البعد عن الحقيقة.

ويعتقد الكثيرون انه مرض انثوي فحسب. وأسم المرض نابع من هذا الاعتقاد القديم. ولكننا هنا أيضاً نبتعد عن الموضوع الحقيقي.

علينا ان نعلم في المقام الاول الآتي:

أ ـ ان الهستيريا مرض يصيب الرجال والنساء على حد سواء.

ب ـ انـه ليست هنـاك هستيـريـا وانمـا سلسلة من المظـاهـر الهستيرية. هذه المظاهر هي عادية وعارضة أو قد تكون وراثية ودائمية.

ما هو العمر المدني للهستيريا

ليست للهستيريا سن محددة.. فهي ترجع الى سالف العهود فالعصـور القـديمة قد شهدتها ايضاً. ولكنها كانت تقتصر (بسبب

الغرور الرجالي أو الجهل) على النساء فقط. وفيما بعد كان هناك اعتقاد ان لوسيفير* ذاته قد وقع في فخ الهستيريا. وفي القرن التاسع عشر بدء اطباء الامراض العصبية يهتمون بهذا الموضوع المعقد وعلى الرغم من التقدم العلمي فانهم لم يتمكنوا من تفسير اشياء ذات أهمية في البداية غير ان الجو العام تغير. ودخل الشيطان الى الكواليس وخرج اطباء الاعصاب منها، غير أن المصابين بالهستيريا بقوا على خشبة المسرح ولم يتمكن أحد من التوصل الى معرفة وجوهه المتعددة. واكتشف العلم شيئاً فشيئاً ان المصابين بالهستيريا لم يكونوا بمتظاهرين واعين ولا بملعونين بل مرضى كبقية المرضى الآخرين!

ان فضول الطب ليس له حدود فالمظاهر الهستيرية انتشرت أمامه غير ان السر ظل غامضاً. ألم يسميها لازيك: «انها سلة الورق التي نضع فيها كل شيء غير قابل للتصنيف..»

وبحلول القرن العشرين برز علماء نفس الاعماق كما تعزز اتجاه الطب النفسي ـ البدني. ومنذ ذلك الحين أخذ كل شيء يتغير وأخذت معالم الهستيريا تتضح بدقة شيئاً فشيئاً. وقد برهن شاركو على ان المظاهر الهستيرية قد تتولد بشكل ارادي عن طريق التنويم المغناطيسي كما ان الاخير قد يساعد في اختفائها.

---

* لوسيفير ـ توفي عام ٣٧٠ ميلادية وهو رجل دين انفصل عن الكنيسة

بينما الذي يذكر التنويم المغناطيسي يعني في الوقت ذاته الايحاء المتعذر القبول فوراً من المراكز العصبية اللاشعورية.

وقد اكتشف جانيه ايضاً الشبه الشديد ما بين مظاهر التنويم المغناطيسي والمظاهر الهستيرية وكان يعتقد ان المصابين بالهستيريا يضعون في ذهنهم انهم مشلولين وعميان. وهذا يعني انهم يحملون في رأسهم فكرة متسلطة على أثر ايحاء ذاتي لا يقاوم. ولكن من اين تأتي الفكرة المتسلطة لدى المصابين بالهستيريا؟ ومن أين جاء الدماغ الهستيري بالقوة الضرورية لظهور الشلل أو الاستحواذ أو الخرس؟

وهكذا نلاحظ بصورة أفضل قوة الايحاء او الايحاء الذاتي في هذه المظاهر الهستيرية ونفهم عن طريقها الآلية العصبية. فقد بحث علم النفس في الجذور العميقة. واليوم اصبحت المظاهر الهستيرية قابلة للشفاء كأي قصور نفسي آخر.

ما هي المظاهر الهستيرية الكبيرة؟

* الازمة: اضطراب غير متجانس وكامل دون عض اللسان. وليس هناك نقص في اليوريا (كما هو الحال في الصرع). انه سيل عارم من الاحاديث وفيض من الدموع والضحكات ونحيب يشوبه صراخ أحياناً. ويبقى الضمير فعالاً والذهن في حالة تيقظ واذا ما كان هناك سقوط فان المصاب بالهستيريا يختار المكان الذي يسقط عليه وهو لا يؤذي نفسه قط (الأمر الذي قد يثير

الاعتقاد انها عملية مصْطنعة تماماً . .).

* حالات الشلل: انها شائعة في الهستيريا فأما ان تكون:

شلل أحادي = شلل لعضو واحد

فالج شقي = شلل نصيفي

كُساحة = شلل يصيب النصف السفلي في الجسد

* العمى والخرس: ليس هناك اساس عضوي (لتتذكر الشابة التي عولجت على يد ميسمير وكانت بصيرة وهي في الثالثة من عمرها).

* تشنجات وتقلصات: وهذا يؤدي الى التهاب السحايا الكاذب والتهاب الزائدة الكاذب وفي بعض الاحيان الحمل الكاذب . . الخ وقد يقطع الاحساس الواعي، وفي بعض الاحيان قد يقوم بعض المصابين بالهستيريا بحرق انفسهم ويبترون اعضاءهم دون ان يشعروا بأي ألم ونحن نعلم في الوقت ذاته ان بالامكان اجراء عمليات دون الام باستخدام التنويم المغناطيسي أي استخدام الوحي لازالة الاحساس من بعض اجزاء الجسم. وهنا ايضاً نجد علاقة وثيقة بين المظاهر الهستيرية ومظاهر التنويم المغناطيسي. وهناك سؤال يطرح نفسه: لماذا لا يحس دماغ المصاب بالهستيريا أو الواقع تحت تأثير التنويم المغناطيسي بصورة واعية بالالم (كالحروق ومبضع الجراح) في هاتين

الحـالتين هنـاك سبـات للدمـاغ الـواعي سواء أكان عفوياً كما هو الحـال في الهستيـريا أوعن طريق التحفيز كما يحدث في التنويم المغناطيسي . وهنا يجب ان نتذكر ما يلي :

ان الفكرة المتسلطة تؤدي الى سبات بعض اجزاء الدماغ التي لا تتفق مع هذه الفكـرة. هذه الاجـزاء المكبوحة من الدماغ تؤشر بغية الا يصبح الألم شعورياً . .

وقـد يتعـرض المصـاب بالهستيـريـا الى فقدان الذاكرة ويجد نفسـه بعيـداً عن المكـان الـذي يسكن فيـه. نقع هنا في حالتين غريبتين احـداهمـا تؤدي الى اطـالـة أمـد الأخـرى وهما : السير والتكلم في النوم وازدواج الشخصية .

* السير والتكلم في النوم: انها احدى المظاهر الاكثر تشويقاً في مرض الهستيريا . ماذا يجري عند السير والتكلم في النوم؟

انـه فعـل حقيقي ولكنـه لا شعوري . ويبقى الشخص متيقضاً لشيء واحـد: انـه الحلم الـداخلي . فهـوينهض ويسيـر ويشرب ويأكـل ويقـوم بافعال متنوعة . فهويعيش منامه فعلياً ويطيع بصورة عميـاء الاوامـر التي توجه اليه في الحلم . ومما تجدر الاشارة اليه فان السائر والمتكلم في نومه لا يمتلك شعوراً حقيقياً لذلك فهو لا يعرف الخوف . وهذا ما يفسر قدرة النائم على القيام بافعال خطرة دون خشيـة وهـو مالا يستطيـع القيـام به في الحـالات الطبيعية .

وعندما يعود الى رشده فانه لا يتذكر أياً من افعاله الشاذة. ولكن قد تمتد هذه الافعال اللاشعورية لفترة طويلة وبذلك نصل الى حالة الازدواج في الشخصيــة. وفي هذه الحـالـة يعيش الشخص في اثنين من (الانا) كل واحدة لها حياتها الخاصة!

الأنـا الاولى تخضـع للوعي العـادي التي توجه من قبل القشرة الـدمـاغيـة والثانية توجه بواسطة (الانا) اللاشعورية الموجودة في المراكز العصبية للحياة اللاواعية بكل عاداتها وغرائزها. . . الخ

وعلينـا انتظـار دراسـة علم النفس البـدني لفهم الحالة بصورة أفضــل. وفي الــواقـــع كل شيء يجــري كمـا لو كان الشخص الـــمـزدوج الـشـخصيـــة يمتلك دمـــاغين مختلفين ليس لهمـــا ارتبـاط. . . وفي حالـة ازدواج الشخصيـة التي قد تستمر لسنوات عديدة فان الشخص يعمـل ويخلق وتكون له حياة عاطفية ومهنية قد لا يظهر فيهـا الطبع الشاذ للشخص العادي! وسأتحدث قريباً عن ذلك. والخاصية الاولى للمصاب بالهستيريا هي سهولة تقبله للايحــاء. ويبـــدو جيداً ان هنـاك خللاً لديـه في عمـل القشـرة الدماغية لانه لا يمتلك ارادة توقف عملية الايحاء. ولهذا السبب فان الهستيـريـا تعـد عُصـاباً (سهل الانتقال)! ويكفي التفكير في حركــات النـــاس وبعض الشبـــاب الـذين يستمعـون الى بعض الفنـانين ويتصـرفـون كمـا لو كانـوا شخصـاً واحداً لانفعال منتشر

كسحابة من البارود قاطعاً بذلك الطريق امام ارادتهم الشخصية..

وساقول الآن ان المصاب بالهستيريا هو انسان صادق ومريض صادق. وقد حدد شاركو بصورة مدهشة النوبات والهذيانات الهستيرية بما فيها اللعنات والصرخات والاهانات وتصرفات الانجذاب (مع حالات غريبة أحياناً للطفح الجلدي) والاقوال الماجنة... الخ.

وتعد المظاهر الهستيرية علامات على اختلال التوازن الوجداني الشديد.

كيف تعالج الهستيريا؟

يقف الطب الاعتيادي عاجزاً تقريباً أمام الهستيريا.

وهناك من يؤكد ان المصاب بالهستيريا يقفز من علامة مرضية الى اخرى بغية ان يحبط من عزيمة العلم في شفائها... ماذا بوسعك ان تفعل اذا ما أصيب أحد المرضى بالهستيريا بالشلل دون أن يكون فعلاً كذلك أويصبح أصماً (دون أن يكون كذلك) أو أعمى؟

وماذا لو اكتشف انه ليس هناك أي اساس عضوي مرئي لا يتيح لهذه المظاهر التي (خلال ثلاثة أيام) قد تكون اختفت لتظهر محلها مظاهر أخرى؟ ولكني أكرر ثانية انه تحت تأثير التنويم قد

تظهر علامات هستيرية بسهولة عن طريق الايحاء.

والهستيريا ربما تكون المرض الذي يتحمل فيه المريض تأثير الايحاء بصورة أفضل. من جانب آخر فان المظاهر الهستيرية لا تجري في الصمت! فالمصاب بالهستيريا لا يحاول الاختفاء بل يفرض علامات مرضية (شعورياً أو لا شعورياً) لجذب انتباه المحيطين به (الأمر الذي قد يجعلنا نشك بصحة مرضه). هناك اذاً وراء كل ذلك جانب آخر علينا اكتشافه كما يوجد مدلول علينا اكتشاف محفزاته الاساسية. وقد يكون بوسعنا القول ان المصاب بالهستيريا يبدو وكأنه «يتصنع حسن النية» يستند الى الاضطرابات الذهنية التي يجب ان تدرس وتعالج كما هي.

وعلى الرغم من الاعراض والمظاهر المتعددة فان الكثير من الكتاب أقترحوا حذف كلمة «هستيريا» من المعجم والاكتفاء فقط بتعبير «المظاهر الهستيرية». ومن المؤكد ان هذه المظاهر كافة رغم اشتراكها في نقاط معينة فانها قد تستند الى أسس شخصية مختلفة جداً! حتى ولو كانت الاعراض متطابقة فان هستيريا الشيخوخة لا علاقة لها على الاطلاق بالعمى الهستيري الناجم عنه صدمة بسبب الحرب! ومع ذلك قد تختلط الاعراض فيما بينها.

اذا ما حصلت أزمة هستيرية ما الذي يجب عمله؟

وأقصد هنا ازمة عند عدم وجود الطبيب.

النتيجــة الاولى للازمــة الهستيــريـة هي الـذُعـر الحـاصـل للمحيطين بالمصاب. وماذا يفعل الشخص المعالج عند وصوله؟ ان العمـل الاول الـذي يقوم به هو ابعاد الاشخاص المحيطين به الذين يستمرون في النقاش بعض الوقت ولكن في أحيان كثيرة قد تسـاهم برودة أعصـاب الطبيب في ايقاف هذه الازمة! لأن الاخير موجـود في الاعمـاق وعلينا الوصول الى تلك الاعماق اذا ما أردنا المعـالجة الصحيحة. كيف؟ نكشف الاصل والدوافع التي غالباً ما تكون مخفية. ومن ثم اكتشاف الصراعات الوجدانية عن طريق علم النفس.

مظاهر التحول

التحـول آليـة شائعـة، وبعض الصـراعات الوجدانية قد تظهر على الجسد ذاته. وقد «تتحول» الصراعات النفسية الى أمراض جسدية، وسأتحدث عن ذلك لاحقاً.

لنأخذ الحالة الكلاسيكية للغضب. فالتفريغ المباشر للغضب سيكــون: سيـل من الاحـاديث والايمـاءات العنيفـة وضـربـات بالقبضة وتجاوزات اخلاقية.. الخ

غيـر أنهـا قد تمثـل تحـولاً كالتأتأة مثلاً. ويحدث هنا في هذه

الحالة تحول في اعضاء الحنجرة. وقد يكون التحول اكثر شدة ويظهر في الاعضاء المتعلقة بمظاهر الغضب حيث يصبح الشخص صامتاً أو مشلولاً (مظاهر هستيرية). وكل واحد منا يعرف ايضاً ان بعض الاضطرابات المعدية تعد تحولاً مادياً للصراعات الوجدانية. فالتحول هو اذاً ظاهرة شديدة الاهمية وكثيرة الحدوث... وسيساهم الطب النفسي - البدني في تفسير دلك بصورة مشوقة. ومظاهر التحول قد تكون كثيرة التنوع ويصبح أمراً عادياً ان يتيح اختفاء احد الاعراض في ظهور أعراض أخرى كما هو الحال في الهستيريا. ولكن لا يجوز ان نستنتج ان كل ظاهرة تحول هي هستيرية! وعلى هذا الاساس فان كل شخص يعاني من آلام المعدة ذات الطبيعية النفسية هو شخص مصاب بالهستيريا... وهو تفسير ساذج.

وفي حالة الهستيريا فان كل شيء يحدث وكأن المرض النفسي قد توجب عليه الظهور خارجياً على الجسد بطريقة أو بأخرى وهكذا نلاحظ الخطر: فالعلامة الجسديه الهستيرية هي تفريغ ضروري.

نحن نعرف ان الغضب «المكبوت» اكثر ضرراً من الغضب الذي يتم تفريغه عضلياً أو شفاهة. واذا ما تعمقنا في الدراسة فاننا نكتشف ان الشفاء التام والبسيط لتحولٍ هستيري ما قد يكون شديد الخطورة. كما لو كنا قد أغلقنا صمام الامان في مرجل

بخاري وهو في حالة غليان. لقد تسببت استحالة التفريغ العاطفي في بعض الاحيان في دفع بعض الاشخاص المصابين الى الانتحار.

وهكذا يصبح أمراً لابد منه البحث عن السبب الاساسي للهستيريا والقيام باختبار ذهني متطور وان يتم ذلك قبل أي اجراء. وكل حالة هستيرية اذاً تخضع الى معالجة مختلفة. ولكن على أية حال يجب ان تتم هذه المعالجة دائماً بصورة معمقة وعن طريق الاستعانة بالوسائل التقنية الطبية والنفسية المناسبة. وعلينا الا ننسى ان الهستيريا تمثل مجموعة كبيرة من الحالات. وتجدر الاشارة اخيراً ان الشخص ذو الطباع الهستيرية بوسعه العيش طيلة حياته دون مظاهر هستيرية مبالغ فيها. وهكذا قد لا يظهر مزاجه الهستيري غالباً أمام الاشخاص الذين ليست لديهم خبرة بالموضوع. وسيكون هذا الشخص هش فكرياً وسهل التقبل للايحاءات وان الحياة الهادئة الخالية من الصدمات الانفعالية قد لا تظهر قط الاعراض الشاذة جداً...

هل نحن جميعاً من قريب أو من بعيد الدكتور جيكل والسيد هايد؟

بتعبير آخر هل لدينا شخصيات مختلفة؟ هل بوسع احدى هذه الشخصيات التفوق على الاخرين؟

هل نمتلك «أنا» متعددة؟

ان الحالة الاكثر اثارة للدهشة لازدواج الشخصية هي ليست من نسج الخيال أو الوهم بل انها موضوعية وطبية وغالباً ما تستغل بصورة سيئة في الادب والسينما.

ولنتذكر ان الضمير يشبه الخزان يخلط احداث الحياة كافة ليحصل منها على احساس وحيد وحصيلة نهائية.

واذا جاز القول فان الحياة ترمي بالتفاح والاجاص والعنب داخل هذا الخزان غير ان العصير الذي يتم الحصول عليه لا يشبه لا عصير التفاح ولا عصير الاجاص او العنب.

انه نوع فريد من العصير متجانس وطيب المذاق.

هكذا يجب ان يكون ضمير الانسان متجانس ولطيف.

وعندما نقدم تعريفاً علمياً جافاً فان الضمير هو الحصيلة التي يحققها الفرد في وقت محدد لنشاطاته الادراكية والمحركة والنفسية والتي عندما تلغي جوانبها الاولية تتجاوزها وتدمجها في سلوك يتميز بتركيب أصيل. وهكذا نلتقي هنا بمفهوم جانيه.

لقد شاهدنا الآتي: الحدث الذي لا يتكامل مع كتلة الضمير يصبح شبيهاً بتابع يعمل خارج هذه الكتلة. وهذا الحدث الذي لم يتم هضمه سيمزق الانسان الخاضع لهذا النقص في الوحدة.

وهـذه الحالة تتمثل في كافة اشكال العقد مثلاً. والعقدة تشبه هذا التـابـع وتعمـل لحسابها الخاص دون ان يتمكن الضمير من امتصاصها بالكامل، بينما غالباً ما يلاحظ الانسان اعراض العقدة ولا يستطيـع معـرفـة العقـدة ذاتهـا الا ما ندر. وفي هذه اللحظـة بالـذات ظهـرت لديـه بصـورة مصغـرة شخصيـة مزدوجة: (أناه) الاصلية و(أنا) عقدته. هناك شيء في داخله يجعله يتصرف على الرغم منه. ما الذي سيحدث اذا اصبح تابع صغير منعزل وقوي العـامـل المهيمن؟ ومـاذا سيحـدث لو أصبح هذا التابع الصغير المهيمن الضمير الاساس لاغياً بذلك الضمير الاصلي؟

حالة غريبة:

فجأة ودون أيـة علامـة مسبقـة تنام شابة بعمق شديد. انه رقاد غيـر مألوف يتجاوز الرقاد المعتاد... ومن ثم تستيقظ هذه الشابة ونكتشف ان كل ما كان يكـون شخصيتهـا لم يكن موجـوداً، لقـد اختفت معـارفهـا واصبح دماغها فارغاً. لقد تحولت الى شخصية جديدة ولدت من جديد عذراء وجاهلة.

فضلاً عن ذلك فانها قد نسيت تماماً شخصيتها السابقة وكل ما يرتبـط بهـا. وهكـذا اضطـررنـا الى تعليمهـا كيفيـة التعرف على الاشيـاء والقـراءة والكتـابة. وقد تعلمت بسرعة وعندما حصل كل ذلـك نامت الشـابـة مجـدداً كمـا حصـل في السـابق، نوم غريب

وطويل الامد وبعدها استيقظت ولكن في شخصيتها الاولى غير انها نسيت تماماً الفترة المحصورة بين حالتي الرقاد.

لقد استمر ذلك اربعون عاماً وعلى الوتيرة ذاتها في تبادل الشخصيات بعد حصول الرقاد. وفي كل واحدة من هاتين الشخصيتين كانت تختفي كافة ملامح الشخصية الاخرى ولا يبقى منها اية ذكرى... ومع ذلك وفي كل حالة من هاتين الحالتين كانت تتصرف وتقرأ وتدرس وتعمل وتفكر! لنفترض للحظة واحدة انها ستنجزعملاًجديراً بالعقاب قبل ان تنام لتستيقظ في الحالة الاخرى... ماذا ستكون مسؤوليتها؟ وماذا ستفعل العدالة الانسانية؟ كيف سيكون بوسعنا استجوابها لان (أناها) الجديدة لا تتذكر مطلقاً (أناها) السابقة؟

عندما تتصدع الشخصية

شابة في الثامنة عشرة من عمرها تشكومن لحظات شرود ذهني يتبعه صمم وعمى. يهاجمها النعاس ثم تستيقظ الشابة مجدداً مع فقدان كامل للذاكرة. هنا ايضاً اختفت شخصيتها الاولى... او اضطررنا ايضاً الى تعليمها القراءة والكتابة. وتبين لنا ان شخصيتها الجديدة تختلف كلياً عن شخصيتها السابقة. وبقدر ما كانت شخصيتها الاولى حزينة ومكتئبة اصبحت شخصيتها الثانية مرحة ومتفائلة.

وفي شخصيتهـا لم يكن هنـاك شخص أوشيء يمنعهـا من تحقيق ما تريـد . . ومن ثم تعـود الى رقـاد جديـد وتستيقـظ لتجد شخصيتها الاولى مع معارفها الاولى وتنسى تماماً الشخصية الثانية .

ويتكـرر هذا الشيء وتعـود الى شخصيتها الثانية بعد رقاد لفترة طويلة والتي تتـذكـرهـا كمـا كانت لكنهـا تنسى تمـاماً شخصيتها الاولى . . . وتصـل الى عمـر السـادسة والثلاثين وهي على حالها وستبقى كذلك حتى تفارق الحياة وهي في حالتها الثانية . .

هذه الحالات تعد نادرة بعض الشيء غير انها تصيب الناس بالذهول .

وهكـذا نجـد الشخصيـة الانسـانيـة التي كنـا نعتقد بصلابتها تتعرض للتهشم؟ وكل قطعة منها يمكن ان تتصرف بمفردها جاهلة ما تفعله الاخرى؟

هذه الحالات المتطرفة مبالغ فيها هنا عما معتاد وشائع .

ومن المؤكـد ان غالبيـة النـاس يمتلكـون خارج كتلة الضميـر توابع غير متكاملة قد تظهر مجدداً تبعاً للظروف .

ويتيح التحليل النفسي والتنويم المغناطيسي وتحليل اللاوعي بطريقة التخدير كشف وجودها . وسنرى ذلك عند التحدث عن اللاشعور .

* مثال شائع :

خجـول يعيش بمفـرده في تنـاغم استنـاداً لكتلة ضميره الاسـاسيـة، فهو يخلط الظروف في هذا الخزان العام ولكنه ما أن يصبح أمام الناس في تلك اللحظة تقوم الانفعالية بقطع الاتصال وتضعـه في حالـة ارتبـاط مع «تـوابعه» (الخوف والشعور بالنقص والعقد النفسية. . الخ)

ماذا يجـري؟ تعمـل «التـوابـع» الـذهنيـة لحسـابهـا وتمتص الظروف وتنسجم معها. وهنا لدينا اذاً ازدواج بسيط جداً في الشخصية.

* مثال آخر :

شخص يستحـوذ عليـه الميكـروب وبخـاصـة قبل خلوده الى النـوم. وطيلة اليـوم يعيش ضمن الكتلة الكـاملة لوعيـه الاساسي وكـل شيء يسير على ما يرام. وعنـدما يحل المسـاء يقوم «تابعه» الـذهني بارغـامـه على تعقيم يديـه عشر مرات. فهناك في داخله شيء يجبره على القيام بذلك.

واكرر اذاً انه اذا كان المقطع المنفصل من (الانا) شديد القوة فانـه قد يلغي الشخصيـة الاسـاسيـة (كمـا هو الحـال في ازدواج الشخصيـة) أو يقلل من أهميتهـا (كما هو الحال في الهلع والعقد والاستحواذ والافكار المتسـلطة).

واذا كانت الكتلة الاساسية للوعي تؤثر على الاتجاهات فان المقاطع المنفصلة تفعل الشيء ذاته! فيعاني المريض اذاً من الهلوسة المرئية أو السمعية. انه يستمع فعلاً الى اصوات كما يرى اشياء حقيقية. فهو لديه انطباع ان هذه الاصوات والرؤى تأتي من الخارج بينما هي قد تكونت في الواقع نتيجة تأثير مقطعه المنفصل من الوعي أي من داخله.

ويتكون الوعي اذاً من مجموعة من ردود الفعل الممزوجة في احساس واحد. وكل كائن بشري يتكون من مجموعة من الشخصيات وليس الشخصية الواعية واللاواعية فحسب. والشيء المثالي يكمن اذاً في وحدة كل هذه الشخصيات. فاليُسر والتناسق الداخلي يعتمدان تماماً على هذه الوحدة. وشيئاً فشيئاً بدأت التربية الجيدة تفرض نفسها: فالتأثير السيء لبعض الاوساط العائلية وبعض اشكال التربية السيئة قد يتسبب في ظهور الحالات الشاذة. وخارج كتلة النوعي تبدأ المقاطع المنفصلة بايجاد مكان لها للعيش. فهي ليست بالقوة الكامنة التي تستطيع ان تصبح (أنا) أخرى. ولكن على المدى البعيد قد تساهم حالات الاضطراب الوجداني والكبح والكبت والخوف في مساعدتها على التطور فتغذيها وتزيد من حجمها حتى تتوسع.

وهكذا تصبح هذه المقاطع توابع داخلية حقيقية كما هو الحال في العقد النفسية الكبيرة. يتحول الانسان الذي كان يجب ان

يكـون ذو وعي موحـد ومتنـاسق الى انسان بشخصيات متعددة ومتناقضة. وهـذه «الانا» المتعددة قد تمزقه وغالباً ما توصله لغاية العصاب المؤلم..

• التداعي الحر

نتطـرق الان الى التحليـل النفسي ولكن قبـل ان نبـدأ بهـذه الشريحة الكبيرة أعرض عليكم طريقة مشوقة في التحليل النفسي المسمـاة بـ «التـداعي الحـر». فعـالم النفس يقـول كلمـة وعلى المـريض ان يجيب أمـا بكلمة واحدة أو بفكرة أو باحساس أوحت اليه بها هذه الكلمة.

مثال: عالم النفس يقول كلمة «ثلج»

والمريض يجيب: أبيض أو بياض أو شتاء أو صفاء أو شابة... الخ

فتداعي الفكرة بين ثلج وأبيض وبياض وشتاء هو أمر أولي وبين ثلج والصفاء هناك تداعي مجازي.

وبين ثلج وشابة هناك تداعي رمزي.

فالثلج يجعلنـا نفكـر بالنقـاوة والنقـاوة بالصفاء والصفاء بالفتاة الشابة. ويصبح الثلج حينئذ رمزاً للشابة.

الـرمـز كمـا سنشـاهـد ذلـك يلعب دوراً اسـاسيـاً في الحيـاة الانسانية. انه تمثيل خاص ذو معنى وجداني وانفعالي.

مثـال: القطـار هورمـز الهـروب والنهـر قد يكـون رمزاً للقوة أو الهدوء وقمة الجبل رمزاً للكبرياء والشموخ. . . الخ.

○ ما هي شروط التداعي الحر؟

لكونه يتيح تحليل الوجدانية فيجب ان تتمكن هذه الاخيرة من الظهـور وبـذلـك يصبـح امـراً ضروريـاً الا يتـدخل العقل كثيراً، فالارتخـاء الاولي شيء لابـد منـه لانـه سيضعف القـدرة على التحليـل كمـا هو الحـال في الـرقاد النصفي. وسيجيب المريض بأي شيء يرد في خاطره. ومهما كان الجواب فان الشعور العبثي لا يجـوز ان يلعب دوراً قط لان العقـل هو الـذي يقرر فيما لو كان هذا الشيء عبثيـاً أم لا. وبغيـة فهم أفضـل لهـذا دعـونـا نتأمـل احلامنا الليلة، انها لا تبدو عبثية قط في اللحظة التي نعيشها لكن عقلنا هو الذي يعتبرها كذلك في حالة اليقظة.

كلمات موجهة	(أ)	(ب)	(جـ)	(د)	(هـ)
	رجل: ٣٦ سنة متزوج وذكي جداً ومتوازن أديب.	رجل: ٥٠ سنة عدواني ورئيس مؤسسة	رجل: ٤٠ سنة أعزب يعيش مع والدته المتسلطه	امرأة: ٢٢ سنة غير متزوجة خجولة انفعالها اعتيادي مدرسة	رجل: ٥٠ سنة بدائي جداً
(١) شجرة	رجولة. أفكر برجل عادي وسليم صحياً.	بلطة	القوة	رجل أشقر	أخضر
(٢) صبير	اغتصاب	أنا!	جنس	شراسة	لدغة
(٣) غابة	الخلود الانساني	عدد	اری ناء لدي انطباع باني مراقب	افكر في بيتر بان ساحر الغابة	اشجار
(٤) وتد*	شيء فظيع رأيت يوماً رجل معلقاً به	مدية		قوة	النوم !
(٥) زهرة	شابة		شابة	مداعبة .. وتردد ثم تقول .. نعومة	عطر
(٦) حوض من رخام	الامومة، افكر في القصيدة: «انني فيك كقليل من الماء الهادي»	ماء		الهدوء والماء	ماء
(٧) وحل	حياة انسانية .. احياناً	أشعر باني اتناول الوحل وأرميه في الفضاء	افكار خفية		مبلل
(٨) حارس	اری حارساً يبتسم	رشوة	أم	شجرة	قبعة شرطي
(٩) زهور برية	افكر في بحيرة. النقاوة	اری كناس ينظف المكان	زهرة	مداعبة	وردة

* وتد ـ تعني سرير أيضا باللغة العامية الفرنسية

(١٠) سيل	قوة	فعل	بول	تصبح مأخوذاً الهدوء والموت	شيء يسيل
(١١) مزهرية	أمومة، أمرأة	مظرقة	عطر	ملأ.. استلم..	ماء
(١٢) يصعد	الامل والنور	الانتصار	الكمال	الشمس	الى اعلى
(١٣) نزول	افكر في بيت الطفولة الذي كان في نهاية المنحدر	لم افعل ذلك قط	(يضحك) انه مثلي!	الانزلاق، ابدياً..	الى اسفل
(١٤) آب	شجرة	قساوة.. ظلم	كان والدي واحداً..	الرحبة	أم
(١٥) الحب	كمال الذات. العطاء	لا حدود له	أم	انتظار	الى نحب
(١٦) باب		ضربة كتف			
(١٧) امرأة	لم افكر في مثلث مقلوب وهو احدى علامات السير والخطر!	الاحتلال	أم	مجردة	رجل

يمثـل الجـدول السـابق اجـابـات خمسـة اشخـاص لنفس الكلمات المطروحة. انهم أجابوا بصورة منفصلة وهو أمر طبيعي.

لنتفحص بسـرعة الاجابات الاكثر اثارة للاهتمام. وليس هناك حاجـة للتحـدث عن أجـوبة (هـ) لانها فعلاً بدائية جداً! باستثناء اجابته على كلمة وتد التي كانت مسلية بصورة لا ارادية حيث قال النوم (لانه ترجم كلمة وتد الى سرير!)

ولنتناول الكلمات حسب تسلسلها.

١ ـ الشجرة:

أ ـ يفكر في الرجولة والقوة السليمة التي تمثلها الشجرة بالنسبة اليه.

ب ـ الشجـرة (شـرح فيمـا بعد) تمثل قوة هادئة يجب القضاء عليها. وعلينا الا ننسى ان (ب) عدواني، لذلك أجاب بكلمة (بلطة).

جـ ـ فكر بالقوة (مثل أ و ب)

د ـ اجـابت اشقـر. وهـو ما يبدو اجابة حمقاء، غير انها تقول فيما بعد ان الشجرة تجعلها تفكر برجل قوي. وان الرجل المثالي بالنسبة لها هو رجل قوي وأشقر. لذلك اجابت بكلمة (اشقر).

ونستنتج مـمـا ورد اعلاه ان الشجرة كانت تمثل بالنسبة لكل واحد منهم رمـزاً للقـوة والـرجولة. وقد تكون ايضاً رمزاً للنشاط الجنسي

العام كما يبدو ذلك غالباً، أو انها رمزاً للابوة (القوة) أو للعدو وكما هو الحال بالنسبة لـ (ب) . . الخ

٢ ـ الصبير:

أ ـ شكل الصبير يجعله يفكر بجنس ذكري، غير ان اشواكه تمنحه طابع عدواني، فهو ربط اذاً ما بين الجنس والعدوانية أو الاغتصاب.

ب ـ بما انه عدواني فانه يصف نفسه بالصبير.

جـ ـ رمز جنسي كما هو الحال بالنسبة لـ (أ).

د ـ تداع معتاد.

٣ ـ الغابة:

جـ ـ رده يدل على كبته. يرصد النساء ولا يتجرأ الاقتراب منهن.

٦ ـ حوض الرخام:

أ ـ ربط (تداعي) شعري جميل مع حوض الماء للأم.

ب ـ فكرت بالحديقة الهادئة التي يوجد فيها حوض من الرخام.

٨ ـ الحارس:

سنرى في التحليل النفسي انه في الحياة الانسانية هناك آلية هائلة للكبت وهي تشتمل على منع (بواسطة التربية) كل ما هو غير

لائق. والكبت يتضح خاصة في النشاط الجنسي لانه يعد المجال الاكثر عرضة للصراعات! والكبت الذي يأتي من العقل يتناقض غالباً جداً مع الوجدانية الغريزية ذات الطبيعة الانفعالية.

* مثال: مشاعر جنسية يحملها أخ نحو أخته وهو شعور وجداني سيتم منعه وكبته بسبب المفاهيم الاخلاقية والدينية والطبية. . الخ. هذا المنع قد يرمز اليه بعدة شخصيات تمثل السلطة غالباً: الاب والام والاخ الاكبر أو الاخت الكبيرة اورجل الشرطة. . الخ.

جـ ـ أجاب الأم. وهذا أمر منطقي لانه تربى على يد امرأة متسلطة تحتفظ بكافة الممنوعات. وهكذا ربط بين الحارس ووالدته.

د ـ اجابت بكلمة شجرة. لقد ربطت بين الشجرة ـ القوة والحارس.

٩ ـ زهور برية:

أ ـ فكر في النقاوة الهشة والصافية وكأنها زهرة كما تمثل البحيرة هذا الصفاء ذاته.

ب ـ يقول انه بدأ يفكر باغنية الاوراق الذابلة. وقال لقد ربطت ما بين الاوراق الذابلة والذكريات. إني اكره الذكريات. كل ذكرياتي ترتبط بانسان خجول واصبحت نتيجة لذلك عدواني بصورة لا تطاق. أريد ان أحمي كل ذلك ولا أرغب التفكير في

ذلك قط!

١٠ ـ السيل:

أ ـ أجاب قوة وهو أمر طبيعي.

ب ـ اجاب فعل (والمقصود فعل عدواني كما يكتسح السيل كل شيء في طريقه).

جـ ـ أجاب البول: وهو رد أحمق للوهلة الاولى. غير انه يقول «عندما قلت سيل. تصورته يخرج بقوة من أحد شقوق الجبال الكبيرة. ومن ثم وبسرعة البرق تحول هذا الجبل الى امرأة ضخمة واقفة وعارية وكانت تتبول. وفي احلامه كان يتخيل أناساً يتبولون عليه. والسبب هو شعوره بالنقص والاحتقار والضعف...

١٢ ـ الصعود:

رمز شديد القوة نجده في الانسانية جمعاء.

أ ـ الامل والنور

ب ـ الفوز (وهذا يعني ان لديه ذات المعنى الايجابي كما هو الحال لدى (أ) ولكن بصيغة عدوانية).

جـ ـ الكمال وهو معنى ايجابي ايضاً كما في (أ) و(ب).

د ـ الشمس (وهي ترتبط بـ أ و جـ)

وساتحدث عن هذه الرموز فيما بعد.

١٣ ـ النزول:

وهو بعكس (الصعود) يمثل معنى سلبي.

أ ـ منزل الطفولة: والنزول بالنسبة اليه يعني «العودة الى الماضي».

ب ـ نفس الاتجاه يرفض النزول أي العودة الى الخلف أو التراجع.

جـ ـ يرد قائلاً: «مثلي أنا» والنزول يعني بالنسبة اليه التراجع. لنفكر في التعبير التشاؤمي القائل «النزول الى الهاوية».

١٤ ـ الاب:

أ ـ يجيب شجرة أي القوة والرجولة (انظر رقم١)

ب ـ قساوة وظلم، والذي يوضح الطريقة التي تربى على اساسها.

١٥ ـ الحب:

أ ـ رده يمثل ذكاؤه وتوازنه

ب ـ العدوانية مرة أخرى. لا يتواصل الى ترك الامور على عفويتها

جـ ـ التشبث بوالدته

١٧ ـ امرأة:

أ ـ اترك الاجابة لتقدير كل شخص

ب ـ العدوانية ايضاً لا يترك الامور لرغباته..

جـ ـ وهنا ايضاً يبدو التعلق بوالدته. انه يخاف النساء (انظر الارقام ٣ و٨ و١٠ و١٧). وهو يشعر بالنقص والذل لذلك كان

يشكل فريسة سهلة للشذوذ الجنسي وعرضة للفشل على أية حال وعندما تتحقق الشروط فان هذه التداعيات الحرة تمثل أهمية كبيرة. انها لا تتيح فقط التحليل بل انها تكشف احياناً عن آلية وجدانية تسببت في اثارة الضيق النفسي والاستحواذ.

* مثال: ليديا شابة غير متزوجة تبلغ السادسة والعشرين من العمر. ردت على كلمة مصطبة (بعد ان ترددت في الاجابة ٣٥ ثانية) بكلمة الجلوس.. وبدأت ترتجف. فتحت عيناها وانتفضت فجأة وقالت: «ان المصطبة تجعلني افكر في الدم، غير أني قطعت الاجابة.. في السادسة عشرة من عمري كنت جالسة على مصطبة مع أبن عمي في الغابة وكان الجو معتماً وقد استغل ابن عمي الوضع... وشعرت بالاشمئزاز. ومنذ هذا الحادث لم اجلس قط على مصطبة في محل عام.. وكنت أسير في طرقات متعرجة كي أتفادىٰ رؤية هذا المشهد.. انه استحواذ كامل بالنسبة لي. وعندما ارى مصطبة أتخيل الدم وهذا الامر يمنحني الرغبة في التقيؤ..».

● سيجموند فرويد (١٨٥٦ - ١٩٣٩) الباحث عن اللاشعور

كان مجيء فرويد بمثابة قنبلة هزت العالم حيث اثارت علامات الدهشة والذهول وموجة من الغضب كما أثار مجيئه في

الوقت ذاته التهكم والسخرية.

تصوروا اذاً! لقد دخلنا فيما يمكن ان نشبهه بسريالية الذهن في عالم فسيح متعذر الفهم ومضحك للوهلة الاولى. لم يعد يبلو ان هناك شيء يتفق مع الواقع حيث بدأ الخوف يدّب في مشاعر الناس واصبحت (أناهم) هذه (الأنا) العظيمة المقتدرة المدركة مجرد (هو وهي) اللاشعورية ولا شيء غير ذلك؟ كيف تجرأ فرويد هذا أن يوجه الى العالم مثل هذه الصفعات؟ ألم يتجرأ بالادعاء ان جوهر الانسان ما هو الا محيط شاسع مجهول مليء بالكهوف اللاشعورية؟ وان الجزء العاقل والواعي لم يكن سوى اشياء بسيطة في مواجهة هذا المحيط الداخلي؟

وكان الناس يتفحصون وهم هازئين يبحثون عن هذا اللاشعور الذين كانوا يجهلون وجوده..

كلا السخريات لم تنته، فضلاً عن ذلك اراد فرويد هذا اعطاء الاحلام تفسيراً محدداً! ويقول ان الحلم لم يكن مجرد هُراء أحمق بل انه حقيقة منطقية.

ألم يدعي ان الصراعات الداخلية للطفل وصدماته العصبية كانت تبقى بصمت في باطن الانسان البالغ كالتوابع التي تحدثت عنها؟ وان أثارها قد تخرج في أية فرصة ملائمة؟

والانسان الذي كان يعتقد بانه قد تغلب على ذاته وهيمن عليها

ووجهها اصبح فريسة لأشعوره. وهذا اللاشعور كان يحدد الغالبية العظمى من افعاله..!

اضف الى ذلك (وكان ذلك أوج ما جاء به) ان فرويد هذا كان يرى النشاط الجنسي في كل مكان. لقد فتح أبواب حقل ممنوع ومكبوت وخفي لم يتم التحدث فيه الا باصوات منخفضة وخلف ستائر سميكة. ومن هذا «الشيء» الاخلاقي اراد تكوين حقيقة علمية!

لقد كان أمراً قاتلاً المجاهرة بذلك لان الناس كان عليهم التخلي عن افكارهم المألوفة، وكان عليهم ان يغامروا ايضاً بالابحار في بحر مضطرب متلاطم الامواج... وقد سبق للناس وان فوجئوا بان الارض لم تكن مركز الكون.. ولم تكن لديهم حينذاك وسائل للدفاع سوى السخرية والتهكم. غير أن فرويد استمر عملاقاً لا مبالياً بما يقال. ومنذ ذلك الحين غزا التحليل النفسي علم النفس والتربية والادب والمسرح والمستشفيات والمدارس والفن.. واستمرت اعمال التحليل النفسي دون تراجع في كافة الاتجاهات الراشدة وغير الراشدة. ألم يكن سبر أغوار الذهن بأدق أروقته أحد أحلام الأنسانية؟

مصطلحات التحليل النفسي

ان التحليل النفسي لفرويد هو قبل كل شيء طريقة خاصة في

التحليـل والمعـالجـة النفسية يأخذ مكانه ضمن العلاج النفسي .

وفيمـا يلي التعـابيـر (همجيـة ولكنها منطقية) التي سنصادفها في التحليل النفسي .

- اللاشعور
- الهو والهي اللاشعورية والعقل الباطن
- الدوافع
- الأنا
- الرقابة
- الانا العليا
- الكبت
- العقد النفسية
- الاحلام
- التنفيس

وفيما يلي رسماً تخطيطياً يوضح مفهوم التحليل النفسي .

اعراض

حلم ليلي

الشعور

دوافع
اصبحت شعورية

«الانا العليا»

الرقابة على التربية

دوافع مكبوتة

الانا

دوافع

دوافع

(الهو والهي) اللاشعور الشخصي

عقدة

لا شعور عام

لا شعور جماعي

في البداية نلاحظ شخصاً يجدف على سطح البحيرة. لنقارنه مع شخص واع اي الذي يُعد الحصيلة لمداركه المتنوعة.

ولنفترض الآن جدلاً ان هذا المجذّف لم يعرف السباحة قط أو لم تكن لديه الفرصة مطلقاً لمعرفة فيما اذا كانت هذه البحيرة تمتلك قاعاً. لذلك فانه سيعتقد بانه ليس هناك شيء آخر سوى سطح البحيرة كما يحدث بالنسبة للانسان الذي يجهل ان هناك شيئاً آخر خارج حياته الشعورية.

متى سيفترض ان هذا القاع موجوداً؟ عندما سيشاهد فقاعة تنفجر على السطح أو عندما تنفجر فقاعة كبيرة من الهواء تحت قاربه وتجعله يهتز. وفي هذه اللحظة فقط سيكتشف المجذّف ان هناك جزءاً غير مرئي يولد بعض التأثيرات وان السباحة والغطس بمفردهما يتيحان اكتشافه: ان هذا الجزء غير المرئي هو ما يسمى بـ:

● اللاشعور

ان الشخص غير الواعي هو ذلك الانسان الذي لا يعرف افعاله السيكولوجية والفسلجية. وتُعد هذه الحالة مؤقتة لدى الانسان العادي لان أغلب الافعال اللاشعورية قد تتحول الى شعورية بالتدريج وحسب الحاجة.

أمثلـة :

ـ أنـا لا أشعـر بضـربـات قلبي ولكن يكفي ان اوجـه انتبـاهي نحوها حتى أتمكن من الشعور بها .

ـ أنـا الآن أمسـك القلم واكتب وأعلم ماذا أكتب، فأنا لا أفكر بصـديقي (س) . غيـر ان ذكـرى صديقي موجـودة في ذاكـرتي . وفجأة ارفع نظري الى السـاعة الجدارية التي تذكرني بموعد حدده لي (س) . وفي هذه اللحظـة بالـذات يصعـد (س) الى حقـل شعوري . كل ذلك سهل وواضح جداً بطبيعة الحال.

الذكريـات

انهـا تشكـل جزء من منطقـة الـلاشعـور لدى الشخص وهي موجودة هناك على شكل كُتل لا يمكن احتسابها وقسم منها مليء بالانفعـالات الطيبـة أو السيئـة . وسنـرى أهمية ذلك في التحليل النفسي . وكثيـر من الـذكـريات تبقى «منسيـة» لفترة طويلة واحياناً مدى الحياة . وعلى الرغم من ذلك فانها تبقى مطبوعة في الذاكرة ونـلاحـظ حالاً انهـا قد تولـد بعض التأثيـرات دون علم الشخص المعني ! وفي بعض الحـالات (التنـويم المغنـاطيسي والاحـلام الليليـة والصـدمـة العصبيـة والنفسية وتحليل اللاشعور عن طريق التخـديـر والتخـدير الجراحي . . . الخ) تظهر الذكريات المنسية فجأة في الوعي .

وهي تشكـل جزء من الـلاشعـور. وبصـراحة فان العادة تمثل حالة لازمة طبيعية قد تصبح شعورية فى اللحظة التي تحدث.

وتشمـل العـادات غالبيـة الافعـال المحـركـة وكثيـر من الاراء والشعـارات الـداخلية والاحكام المكتسبة. وغالباً ما تتولى القيام بذلـك الاذاعـة والصحافة واجهزة الدعاية ولكن اذا كان أثر العادة واعيـاً على الاغلب فان الامـر ليس كذلك بالنسبة للدوافع الخفية التي تولـد هذه العادة. وللعـادات أهميـة اسـاسية في علم النفس فبعض العادات الشاذة قد تكشف عن حالة وجدانية مضطربة.

وسأستعرض فيما يلي بعض العادات المستهجنة والشائعة:

تقطيب الحـاجبين وحملقة العينين وعادة الشخير وحركات في الانف ورفع الاكتاف... الخ

وكل هذه العادات المستهجنة تحصل بسرعة كبيرة وهي تمثل عادات بسيطـة. وهنـاك عادات مستهجنـة ذات تشعبـات اكثـر تعقيداً: كترتيب ربطة العنق ومص الاصابع وقضم الاظافر والعبث بالانف... الخ.

والعادة المستهجنة غالباً ما تكون علامة لحالة انفعالية مؤقتة. والكثيـر من النـاس لديهم عادات مستهجنـة «دائميـة». ان ظهور وشـدة عادة مستهجنـة يعتمـدان على حالـة انفعـالية وتظهر العادة

المستهجنة في الحالة العصبية للحظة الصعبة وتختفي مع اليُسر والارتخاء.

وهناك العديد من العادات المستهجنة الكلامية (كالتعابير الجاهزة وأعادة كلمات معينة عشرات المرات يومياً.. الخ) وتختفي ايضاً في حالة الارتخاء. ولدينا ايضاً العادة المستهجنة المرضية وهي تترجم موقف وجداني أو فسلجي ودراستها تظهر غالباً وجود صراع وجداني لا شعوري وبعض العوامل العصبية غالباً ما تلعب دوراً اساسياً هي الاخرى. لنعد الى التخطيط الموضح في الفصل الرابع وسنلاحظ الى الاسفل اللاشعور الفسلجي والنفسي.

وهذا اللاشعور يستقي مصدره من عناصر متعددة جداً. انه يشبه قاع البحيرة المتكون من الوحل والطمأ والذهب واللؤلؤ والطين والتي تمد جذورها نحو عمق اكثر اتساعاً هي: الارض باجمعها التي تشكل جزءاً منها.

والأمر كذلك بالنسبة للاشعور: فهو يتكون من الافعال النفسية فضلاً عن الغدد الصماء وعمل اعضاؤنا. انه يتكون من الوراثة ومن تركيب الدم. ويأخذ مصدره من كل مكان، فالامة التي تشكل جزءاً منها هي التي تكونه وراثياً في الولادة كما تساهم المناخات الدينية والاجتماعية والجغرافية في تكوينه ايضاً. اما الصحة العامة للشخص فتقرر شكله وسعته...

ويجمع هذا اللاشعور ايضاً الاتجاهات المشتركة لاعضاء المجموعة الاجتماعية ذاتها. فاللاشعور لمواطن صيني يختلف منذ الولادة عن اللاشعور لمواطن فرنسي. وهكذا نلاحظ ان هذا الشعور الهائل ليس سهل الاكتشاف اذ يجب ان تكون هناك قدرة على تحليل ابسط نسيج عصبي للانسان ومعرفة الاثار العميقة التي تركتها فيه عشرات المليارات من التجارب الانسانية التي سبقته.. *

وبالنسبة لفرويد اذاً فان هذا اللاشعور لا يصعد غالباً الى سطح الشعور لذلك يجب ان يكون هناك لاشعور «وسيط» قابل للتحول الى شعور حسب توفر الفرصة وهذه كانت: .

---

* ان هذا اللاشعور يتمركز في «الاسفل»، انه اللاشعور المتدني البدائي الحيواني الذي يغرس جذوره في مليارات التجارب الانسانية وكل روحية تبدو غائبة عنها. ولكننا عندما ندرس يونج يكون بوسعنا ان نطرح على انفسنا السؤال التالي: أليس هو شعور راقٍ ايضاً؟ يدخل فيه الانسان كما يدخل جهاز الراديو في الموجات؟ ويؤثر على الانسان (كما هو الحال في اللاشعور المتدني)؟ الا يضع هذا الشعور الراق الانسان في اتصال دائم مع العالم الروحي الذي يمكن ان يلتقطه شعورياً تحت ظروف معينة؟ وتجدر الاشارة اليه ان هذا المفهوم كان دائماً اساس علم النفس الشرقي ويكمل بكل اعجاب التحليل النفسي الذي جاء به فرويد.

الهو والهي اللاشعورية

هذا المصطلح الذي يبدو همجياً بعض الشيء يمثل في الوقت ذاته منطقاً صارماً. لقد واجهنا جميعاً الانعكاس التالي:

هذا الشيء أقوى مني ولا أستطيع أن أمنع نفسي عنه. وتصبح «الهو» أقوى من «الانا» ويترجم الى: «هناك شيء في داخلي يدفعني الى القيام بهذا الفعل بينما ليست لدي رغبة شعورية بتحقيق ذلك».

لتناول هذا المثال البسيط مجدداً بالنسبة للشخص الذي ينهض عشر مرات من النوم ليلاً ليتأكد من اغلاق صنبور الغاز. لم تكن لدى هذا الشخص الرغبة الشعورية في هذا الفعل غير ان هناك دافع لا شعوري يلزمه القيام بذلك. وحينذاك سيقول: «انه أقوى مني».

«والهو» أو «الهي» يسميان ايضاً العقل الباطن. وهو يصف مجمل الاتجاهات التي تقود بعض نشاطاتنا.

وهناك رابطة وثيقة ما بين «الهو» واللاشعور. وهذا أمر طبيعي لان الاثنين يشكلان الخزان المظلم للغرائز والعادات والذكريات.. الخ وترتبط جذور «الهو» (العقل الباطن) باللاشعور العام وفعلهما المتبادل يعد شيئاً هائلاً.

«فـالهـو» اذاً مجمـل الانفعـال النفسيـة التي تهـرب مؤقتـاً من شعورنا. وبغية ان تصعد هذه الانفعال الى «السطح» تصبح بعض الحـالات الخـاصـة ضرورية لذلك. مثال: الحلم الليلي والنوم المغناطيسي والتحليل النفسي... الخ). وفي داخل «الهو» هناك الكثير من الذكريات والمشاعر «المنسية» ولكن تحتفظ الكثير من هذه الـذكـريـات والمشـاعر بشحنتها الانفعالية (العاطفية). انها تشبـه المغنـاطيس النفسي المتمركز في اعماقنا فهو يجذب نحونا الظروف المرتبطة بها.

كيف يمكن كشف وجود «التوابع» اللاشعورية؟

عندما تصعد بعض الاعراض الى سطح الشعور أو الوعي.

مثال: شخص يعاني من الضيق النفسي وهذا الضيق النفسي لا يمثـل المـرض ذاتـه لكنـه علامة لمرض موجود داخل «الهو»: العقل الباطن.

وسنلاحظ ذلك لاحقاً.

دعونا نوجز ما يلي:

أ ـ يمثل المجذّف على سطح البحيرة الانسان الواعي.

ب ـ قاع البحيرة غير المرئي يمثل «الهو» (العقل الباطن).

جـ ـ ومن وقت لآخـر يحـرر هذا القـاع بعض الفقـاعـات (اعـراض) تنفجـر على السطـح (الـوعي) والتي تأتي من «هـذا الشيء» الـذي يجـري في القـاع. واذا كانت هذه الفقاعات قوية فانـهـا قد تتسبب في اخـلال توازن القـارب. وهـذا ما يسمى بالعُصاب الذي سأتناوله بالحديث لاحقاً.

ويصـل الـلاشعور «والهو» بمؤازرة بعض المراكز العصبية التي سأتحـدث عنهـا ايضـاً. وسنـرى ان اللاشعور الانساني قد يتمتع بقـوة خارقـة وقـدرة رهيبـة. وسنستنتج ذلك عندما يتحرر دون ان يعـارضـه كابـح أو رقـابـة شعـورية. . وقد لاحظنا ذلك في العقد والاستحواذات والعُصابات وازدواج الشخصية. . الخ

غيـر ان هنـاك بعض الامـراض العقليـة تنطلق فيهـا القـوى اللاشعورية بحرية تامة كما هو الحال مثلاً بالنسبة لهوس الاكتئاب الذي سيتم التطرق اليه فيما بعد.

امـا تحـريـر الغـرائـز فلن يجـابـه في هذه الحالة مصاعب في مواجهـة الاخـلاق والـرقـابة والمحرمات. وان كافة العادات التي تبنتهـا المجتمعـات المختلفـة خلال الاف السنين تُكنس كأوراق الخريف المتساقطة. .

وهناك سؤال يفرض نفسه:

هل العقل الباطن أخلاقي أم غير اخلاقي؟

ان هذا السؤال اساسي. فالعقل الباطن ليس هو باخلاقي أو بلا أخلاقي، انه يجمع مجمل اتجاهاتنا ورغباتنا وغرائزنا. وعندما نتساءل: «هل ان الطفل الذي يبلغ الشهرين من العمر اخلاقي أم لا؟ فانه يعد سؤالاً بلا معنى لان هذا الطفل يعيش على غرائزه الطبيعية حسب. فالعقل الباطن اذاً هو خارج الاخلاق. انه يهملها بكل بساطة فهو لا يعرف الاعراف الاجتماعية والعائلية والاخلاقية والجمالية والجنسية. ويرمي العقل الباطن (كما هو الحال لدى الحيوان والطفل) الى ارضاء حاجاته العضوية والنفسية والذاتية الصرفة باسرع ما يمكن.

هذه الحاجات تسمى: الدوافع.

اذاً: أ ـ العقل الباطن (الهو) يعد الخزان العام للغرائز.

ب ـ الدوافع هي اتجاهات تأتي من العقل الباطن غير انها تطلب تحقيق حاجة معينة..

مثال: رجل له انجذاب جنسي نحو امرأة.

أ- الـ «هو» ستكون الغريزة الجنسية العامة.

ب ـ «الدافع» سيكون توجه هذه الغريزة نحو هذه الامرأة.

«الأنـــا

نحن واعـــون بان «الأنـا» التي لدينـا ليست «انـا» الآخـرين.

«فالانا» اذاً تمثل الشخصية الخالصة لشخص ما.

واذا ما قلنا: «انا»، افعل كذا فان ذلك يعني ان لدينا وعي للقيام به شخصياً وارادياً.

لماذا يضع الجدول السابق «الأنا» ضمن شريحة العقل الباطن؟

١ ـ في المقام الاول يعيش الطفل على عقله الباطن الغريزي (الهو) فهو لم يمتلك شعوره بعد انه ذاته ولا يقل «أنا» ولا يستعمل «الأنا». انه يتحدث عن نفسه بصيغة الشخص الثالث.

٢ ـ ماذا يحدث فيما بعد؟ تبدأ الظروف الخارجية «بغزو» عقل الطفل الباطن.

٣ ـ وعلى أثر هذا «الغزو» للظروف يبدأ الطفل الشعور «باناه» ويبدأ باكتشاف شخصيته الخاصة. ويحس ايضاً بان الاشياء ترد اليه وليست لشخص آخر. وفي هذه اللحظة يبدأ باستخدام كلمة «أنا». واندريه الصغير لن يقول بعد: «اندريه يفعل ذلك أو ان هذا الشيء هو لاندرية.. الخ ولكنه سيقول: أنا افعل هذا وان هذا الشيء ملكي أنا..

وهكذا ظهرت «الانا» انها تشكل اذاً جزءاً من «الهو» تحولت بسبب الظروف الخارجية، واذا ما اعتبرنا «الهو» عجينة تتخمر فان «الانا» تمثل نتوءاً ينتفخ ويصعد الى سطح هذه العجينة. وتبقى «الانا» اذاً في علاقة وثيقة جداً مع غرائزنا العميقة.

يبقى جزء كبير من «الأنا» في العقل الباطن ويتطلب ظروفاً خاصة كي يصعد الى سطح الشعور.

الرقابة

يعرف كل واحد ان الكثير من دوافعنا الغريزية فظة ومزعجة وبدائية. ويكفي التفكير في الغرائز العدوانية وفي مشاعر البغضاء نحو من يعارض رغباتنا وبعض الغرائز الجنسية العنيفة والحيوانية وغرائز الانتقام والهيمنة. . الخ (والتي تتواجد اذاً في «الهو»).

ويصبح أمراً لابد منه اجتماعياً ايقاف حياة الغابة هذه التي تتمركز في العقل الباطن وأكرر ان هذه الغابة لا تمتلك شيئاً يسمى اخلاقي اولا اخلاقي. فالذئب الذي يفترس الحمل ليس هو لا اخلاقي أومتوحش. «متوحش» هي الترجمة الاخلاقية والرقيقة التي نصف بها فعله. بينما يقوم الذئب بمهنة الذئب بكل بساطة فهو خارج كافة الاعتبارات الفلسفية والاخلاقية لانه لا علم له بها! وهذا أمر بديهي بالطبع. «والهو» تعمل بالطريقة ذاتها فهي تكمل فعلها دون الانشغال بالباقي! وحيث ان الانسان موجه نحو الحياة الاجتماعية فان غالبية الدوافع الآتية من العقل الباطن يجب ان يتم ايقافها أويتم توجيهها نحو افعال حسنة ومقبولة في الحياة المشتركة.

وهكذا ستتصارع داخل العقل الباطن للانسان سيول من

الممنوعات وجبال من الإفعال التي تخضع للرقابة. كل ذلك أمر لابد منه، غير اننا سنرى على الرغم من ذلك ضرورة وجود «الوسط المناسب».

من الذي سيتولى مهمة هذه الرقابة؟.. التربية.

هذه التربية الراصدة تقفز فوق الدوافع وتمتحنها واحدة فواحدة. وأحياناً يقص مقص الرقابة التربوية هذا الدافع واحياناً يوافق على تمرير دافع آخر او يفرض عليه قناع يجعله مقبولاً اجتماعياً.

فالرقابة تأتي اذاً نتيجة التربية. انها تمنع الدافع من أن يتحقق أو تحوله ضمن هدف اجتماعي واخلاقي.

مثال: طفل يشعر بسرور وهو يداعب بعض الاجزاء من جسده. واكرر انه بفعله هذا لا يفكر بالاخلاق وليس له أية علاقة بها. انه يطيع الاوامر الصادرة من «الهو» الغريزية. غير ان البالغين هم دائماً له بالمرصاد. ما الذي سيفعلونه؟

أ ـ اما يمنعون الطفل كلياً من القيام بهذا الفعل تحت التهديد بالعقاب. والطفل لن يفهم بالتأكيد شيئاً ولكنه سيطيع بسبب الانعكاس الشرطي للتهديد. (بالضبط كما يخشى الحيوان العصا).

ب ـ او سيقدم البالغون للطفل القيم الاخلاقية بادخالهم

مفـاهيم الاعتـدال والخجـل والخـوف التي ستجعـل من «الهـو» و«الانا» الغريزية للطفل «انا» اجتماعية. (أي «أنا» موجهة).

مثـال آخـر: بعض الاطفـال يشعـرون بسعـادة وهم يهتمـون بوظـائف امعـائهم الغلَيْظـة، وهنـا تتـدخـل التـربيـة عن طريق استخدام مصطلحات كالخجل والخوف وسوء الذوق باعتبار هذه التصرفات اموراً لا يقبلها المجتمع.. الخ وهنا يحصل امراً حيوياً في التحليل النفسي.

«فـالهـو» الـلاشعـوريـة والغـريزية تتحول الى «انا» اجتماعية مهـذبـة تتجـه نحـو الاخـرين وتأخـذهم بعين الاعتبـار كما تهتم برغبـاتهم وحـاجاتهم. وتبدأ «الانا» باستخراج ردود فعل الاخرين بدلاً من أن تتمركز حول سعادتها الفردية والانانية. وهذا ما نسميه «بالانا العليا».

● الانا العليا

هذا التعبيـر يعـرف نفسـه بنفسه فهو كل ما فوق «الانا» الفظة. وبـالنسبـة لفرويد فان الانا العليا من وجهة النظر الاخلاقية ليست متفـوقـة على «الانـا». واننـا نفهم جيـداً لمـاذا. فالانـا العليا قد تكونت بواسطة تحول اجتماعي واخلاقي فرضه الاخرون. والانا العليا هي «أنا» مكبوحة بسبب التربية. انها «الانا» التي تعرضت للتـوجيـه. وهي ليست عفـويـة غيـر انهـا تتيح امكانية وجود حياة

مشتركة. وحسب ورأي فرويد فان «الانا العليا» هي نتاج للضغط الاجتماعي الذي ارغم «الانا» على التكيف مع العادات.

لنرى الآتي جيداً: «الانا» و«الهو» الانانيتان موضوعتان تحت الرقابة نتيجة للتربية. وكل جزء من «الانا العليا» يصبح جزءاً من «الانا» التي يضعها المربون (الذين أمروا الأنا قائلين: «بوسعك ان تفعلي هذا ولكنك لا تستطيعين فعل ذلك، هذا الشيء جيد الا أن ذلك سيء وهذا اخلاقي وذاك لا أخلاقي... الخ»).

وبقيام التربية بترتيب كل قطعة من «الانا» فانها قد مزجت داخل «الانا» بعض الممنوعات والمسموحات. (ولكن بالتأكيد تشكل الممنوعات الغالبية).

اذاً ما أن تتصرف «الانا العليا» حتى تحرر اوتوماتيكياً كافة الممنوغات التي التصقت بها..

ماذا يعني ذلك؟ الانا والهو تم كبتهما بواسطة التربية. غير ان «الانا العليا» تمتلك رقابتها الخاصة بها... كما تمتلك العجينة المواد التي سيمزجها معها صانع الكعكة. فاذا ما صعدت العجينة (الانا العليا) فان المواد الاخرى (الرقابة) تتحرك في الوقت ذاته..

وتتحول «الانا العليا» الى ديوان الجمرك أومركز الشرطة المستقل واللاشعوري للفرد، و سنلاحظ مباشرة ان مركز شرطة «الانا العليا» قد يكون غالباً في تناقض وتنافر شديد مع دوافع

«الهو»!

وهذه الآلية هي السبب الاساس في الكثير من حالات العُصاب*.

لنفترض الآن ان «الانا» (وهي تغوص في الغرائز) تطلق دافعاً سيئاً من الناحية الاجتماعية والاخلاقية فما الذي سيحدث؟

سوف يصطدم هذا الدافع بالانا العليا «وبمخفر الشرطة» الذي شكل جزءاً منها. نحن الآن على الحدود وفيما يلي المحاورة التقليدية التي ستدور:

- الأنا العليا: «هل لديك شيء تصرح به»؟

- الانا: «لدي دافع أود التصريح به».

- الانا العليا: «هل هذا الدافع مقبول من الناحية الاخلاقية»؟

- الانا: «أنا أجهل ذلك، انني خارج الاخلاق، إني قادم من «الهو» من هذه الارض العظيمة التي تعيش فيها الغرائز».

- الانا العليا: «علي اذاً ان أفحص دوافعك وسأوافق على السماح بخروج المقبولة منها وسأطرد الباقي نحو المنشأ الذي جاءت منه أي العقل الباطن».

وهكذا تجري الامور داخل الشخص ذاته، انه ما يسمى بالكبت.

---

* العصاب سيكون موضوع الفصل الخامس

● الكبت

وهو آلية لاشعورية تُقذف عن طريق الدوافع الممنوعة من الأنا العليا الى داخل خزان «الهو».

وهناك فارق كبير ما بين القمع والكبت.

١- القمع :

وهي ظاهرة شعورية (واعية) فالشخص يمتنع طواعية وشعورياً عن رغبة مُدانة لقناعاته. والرغبة هي دافع اصبح شعوري.

مثال: رغبة جنسية من شقيق نحو شقيقته: «فالهو» الخزان العام يرسل دافعاً جنسياً موجهاً نحو الشقيقة. وهذا الدافع يرد الى شعور الشقيق بصيغة رغبة. وفي تلك اللحظة يبعد الشقيق بصورة ارادية هذه الرغبة لانها تتعارض مع قناعاته الاخلاقية والدينية والادبية... الخ. وهكذا قمع رغبته.

٢ ـ الكبت:

وهو ظاهرة لا شعورية. والآلية تعمل على الدافع ذاته. ويكبت الدافع قبل وصوله الى الشعور (وسنرى لماذا). وذلك يعني اذاً اننا لا نعلم قط في اللحظة ذاتها فيما اذا كنانكبت شيئاً معيناً. ولكنكم ستقولون متى نعلم باننا قد كبتنا دافعاً معيناً؟ عندما تظهر علامة على سطح الشعور (الوعي) فانها تتيح فرز وجود الكبت. وهنا ايضاً نعود الى الفقاعة التي ستنفجر على

سطح البحيرة. وبالنتيجة فان هذه الاعراض أو العلامات قد تكون متنوعة: ابتداء من الاحلام الليلية البسيطة مروراً بالامراض الجسمية والنفسية المختلفة وانتهاء بالافكار المتسلطة الرهيبة.

مثال: رغبة جنسية من أخ نحو اخته: «فالهو» الخزان العام يرسل دافعاً جنسياً موجهاً نحو الاخت. ويصطدم هذا الدافع الغريزي داخل العقل الباطن بمركز شرطة «الانا العليا» التي توقفه وتطرده نحو الخزان الاصلي. في هذه الحالة كان الاخ يجهل ان هذا الكبت كان يعمل داخله غير أن علامة ربما تكون قد ظهرت اثناء الليل بصيغة الحلم.

في حالة الكبت هل هناك دوماً اعراض؟ كل شيء يعتمد على قوة وحدة الكبت. فهناك بعض انواع الكبت البسيطة والعابرة التي تظل دون تبعات وتترجم ببساطة الى حلم ليلي. وهناك بعض الانواع الاخرى من الكبت التي تتميز بطول مدتها غير أنها قد لا تظهر أية اعراض واضحة. ولكن على أية حال بالامكان اكتشافها فوراً من خلال سلوك وتصرف الشخص الذي «كبت».

وعلينا الا ننسى ان الكبت يأتي نتيجة للصراع ما بين القوتين اللاواعيتين وهما: «الهو» و«الانا العليا». . وهو صراع قد يكون شرساً في بعض الاحيان ويؤدي الى اسوأ الصراعات الداخلية التي قد تسبب من الاذى بحيث ان الشخص يشعر وكأنه ممزق بين اتجاهات متعددة دون ان يشعر بما يجري داخله.

والسؤال الاول الذي قد يطرح نفسه هو الاتي:

لماذا استطاع هذا الدافع المرور من سلطات الجمارك في حالة القمع لكنه لم يتمكن من فعل ذلك في حالة الكبت؟

التربية والكبت

اذا كان المربون قد أكملوا مهمتهم بصورة مقبولة فان هذه «الانا العليا» ستكون بمثابة مرشح منقي وليست حاجزاً فولاذياً يمنع كل شيء. نحن نعرف اولئك الاشخاص الذين ننعتهم على النطاق الشعبي «بالمكبوت». انهم اولئك الاشخاص الذين لديهم حاجزاً بين دوافعهم ووعيهم. فليس هناك شيء يمر ويتم ايقاف كل شيء. فهم يشبهون حينئذ السيارة التي اغلق مرشح الزيت فيها... وهم يكبتون الدوافع البسيطة والدوافع الصعبة على حد سواء. لقد اصبح الكبت آلية انعكاس فريدة من نوعها.

واصابهم الامساك الذهني وهم يقتاتون على جزء تافه من الوعي كما تختفي كل اشكال العفوية.. انهم يعتقدون بانهم يعيشون غير أنهم نائمين متيقظين. ومن ثم يفرضون كبتهم بدورهم على اطفالهم حيث يأخذون منهم «الهو» ويمزجون كل واحد من هذه الاجزاء ويملؤنها لاشعورياً بكبتهم الخاص.

وسيكون هذا استمرار «للانا العليا» المعتمة والتي توقف أي دافع عفوي. وبالنسبة للرجل الطبيعي فان أي دافع مهما كان قد يمر دون اضرار.

هذا الدافع سيتم هضمه بصورة واعية وقد يرقى أو يقبل ارادياً.
وبالنسبة لهذا الرجل فيجري كل شيء بوعيه الكامل. انه ما يسمى «باعرف نفسك بنفسك»! إنه الرجل الذي يمتلك الشعور المتجانس والواسع والمتوازن. وانه ذلك الانسان الذي يقبل الخير والشر دون أي ضيق نفسي مرضي. انه كائن الوسط الجيد الذي يعرف ان كل شيء يحمل معنى ويراقب عقله الباطن بتجرد دون ان يسحقه وهو على علم بقدرته.

عودة الى الكبت

لنفترض ان دافعاً قد جاء من «الهو» ووصل الى دائرة الجمارك اللاشعورية للانا العليا. ما الذي سيحدث:

١ـ قد يقبل هذا الدافع دون أية صعوبة. وعليه ان يتمتع بصفة طيبة تتفق مع مصطلح الانا العليا. وفي هذه الحالة يصعد الدافع الى الوعي كما هو عليه.

مثال: «الانا العليا» تسمح بمرور دوافع المحبة والصداقة والخلق الفني والسعادة أمام الطبيعة.. الخ.

٢- قد يقبل هذا الدافع ايضاً بشرط ان يرتدي لباساً آخر. ومن ثم يصعد الى الوعي ولكن بصورة متنكرة «كمتشرد» يرتدي لباس شخصية اجتماعية.

والحياة اليومية فيها ملايين الحالات من هذا النوع.

مثال: شابة تمر أمام مجموعة من الشبان ويقومون «بالصفير للدلالة على الاعجاب». ما الذي يجري فعلاً؟

أ ـ ان اساس هذا الصفير الاعجابي هو جنسي بطبيعة الحال: ذكر في مواجهة انثى.

ب ـ العقل الباطن لهؤلاء الرجال يرسل دافعاً جنسياً موجهاً نحو الامرأة وهو أمر طبيعي وغريزي.

لنفترض الان ان هؤلاء الرجال هم مخلوقات بدائية لم يسمعوا قط أحداً يتحدث عن الاخلاق والدين والحياة الاجتماعية واحترام الآخرين.. الخ.

لنفترض انهم يشبهون ذهنياً القرود في الغابة.

ماذا سيكون رد فعلهم الموجه من جانب «الهو» التي يمتلكوها. سوف يهاجمون المرأة جنسياً أو يطلقوا بعض الطرائف غير المؤدبة (كما يلاحظ ذلك في بعض الحالات النفسية الشديدة تتحرر فيها الغريزة دون كابح).

جـ ـ هذا الدافع الجنسي الصرف يتم كبحه بواسطة دائرة جمارك «الانا العليا».

د ـ اذا كان هؤلاء الرجال سالمين اخلاقياً فلن يكون هناك أي كبت. غير ان هذا الدافع الجنسي سيترشح ويتقنع قبل أن يصل الى الوعي. ويتحول الدافع الوحشي الى صفير اعجاب.

هـ ـ هؤلاء الرجال واعون اذاً بصفيرهم وبدافعهم الجنسي

ولكنهم سيظلون غير واعين «بالترشيح» الذي يتولد فيهم.

الطرائــف:

تأتي غالبيـة الطـرائف من السبب ذاته. ونحن نعلم ان النشاط الجنسي هو الميـدان الاكثـر احتـواء للممنوعات! فهو اذاً الميدان الـذي يتصـارع فيـه اكبـر عدد من الممنوعات. . . أي الكثير من الاقنعـة وحـالات الكبت. فاذا لاحظنا مائة طريقة فاننا سنكتشف ان تسعين بالمــائــة منهــا ذات اسـاس جنسي. واذا كانت هذه الطرائف ذات طابع روحي أو بذيء فان ذلك لن يغير شيئاً في الموضوع.

فهي اذاً تحــريف للدافـع الجنسي الفطـري المنقى بواسطـة «الانا العليا» دون معرفة الانسان ذاته.

وهنـا ايضـاً تعمـل التـربيـة السيئة من النشاط الجنسي أرضية للعُصابات لانها ستجعل من «الهو» الجنسية ارضية مخجلة حقاً. وتصبح «الانـا العليـا» حينئـذ لوحـة كونكـريتيـة تكبت الـدوافع الجنسيــة حتى المقبـولــة منهــا. ولكن الا يـستحــن ان نحس شعورياً بدافع جنسي (حتى وان كان ممنوعاً اخلاقياً) ونقوم برفضه ارادياً. . . بدلاً من كبتـه لا شعـورياً مع كافة ما يمكن ان تفضي اليه هذه الانواع من الكبت؟

● العقدة النفسية

هذه الكلمة منتشرة جداً في يومنا هذا! الناس يثرثرون بعقدهم النفسية كما يتحدثوا عن مشترياتهم اليومية. فالطفل الصغير يعلن ان شقيقته مصابة بعقدة نقص. وهذه السيدة تقول ان تسريحتها تسبب لها عقداً نفسية.. الخ.

لقد اصبحت الكلمة شائعة الى الدرجة التي جعلت كل شخص يبدو متأكداً من معرفة معناها... ولكن الحقيقة انه ليست هناك سوى حماقات...!

وعند دراستنا لجانيه فقد سبق وأن رأينا ان الاجزاء غير المتكاملة كانت قد تترسب داخل اللاشعور فهي تعيش حياتها الخاصة هناك، انها الطفيليات.

والعقدة النفسية هي مجموعة من الاجزاء المشحونة كثيراً بالانفعالات وهي موجودة بصورة مصطنعة في أحد اجزاء المنطقة اللاشعورية وهي تدير بدون معرفة الفرد بعضاً من افعاله (الافعال المعقدة). والعقدة النفسية تشبه خزان صغير منفصل (صغير ولكنه قوي!) تتجمع في داخله المشاعر والانفعالات التي تتفق معه فهي تبقى لاشعورية غير أنها تفرض ردود فعل عديدة.

ويلاحظ عالم النفس بصفة مستمرة ان المريض يخلط ما بين الاعراض والعقدة النفسية ذاتها كما لو كان يعتقد ان الفقاعات المنفجرة على السطح هي قاع البحيرة.

شخص يقـول: «لـدي مركب نقص» وهو تصور خاطيء. لقد كان عليـه ان يقـول: «لـدي مشـاعـر نقص وهي اعـراض عقـدة متمركزة في عقلي الباطن (والتي لا يمكن ان تكون نقصاً قط)».
شخص آخـر يقـول: «عندي عقدة الضيق النفسي» بينما كان عليه القول: «لدي مشاعر بالضيق والتي هي اعراض لعقدة لاشعورية».

كيف تتكون العقدة النفسية؟

عنـدمـا نقول «عقدة» نقصد «مجموعة». لنفترض ان مجموعة من الدوافع اللاشعورية تعود الى المريض ذاته. ولنفترض ان هذه الـدوافـع تكبت الـواحـدة تلو الاخـرى لسنـوات عديدة. واتناول مجـدداً المثـال ذاتـه واتخيل ان الشقيق يكبت لفترة طويلة دوافعه الجنسيـة تجـاه شقيقتـه. ما الـذي سيحصـل؟ سيتنـامى عدد «الاجـزاء» المكبـوتـة الى الدرجة التي تتكون فيها كتلة لتعلن عن ولادة عقـدة نفسيـة. وهـذه العقـدة اذاً تمثل نظاماً فكرياً مشحوناً دائماً بانفعالات مؤلمة! انه الصراع الداخلي المقلق ما بين «الانا العليـا» و«الهـو». وما يؤلم اكثر هو كون الشخص المعني لا يشعر بعناصر هذا الصراع. فهو يرى الفقاعات التي تنفجر على السطح فحسب أي الاعراض.
وسنرى قريباً (العقد النفسية المتطورة) ان بعض العقد تتكون

ذاتياً في فترة الطفولة وهي تتوافق مع بعض لحظات التكيف الصعبة. ويمكن ان تتحلل بسرعة بالتأكيد واذا لم تتحلل فانها تترسخ في اللاشعور ويظهر جذر العقدة وتدب فيه الحياة ويوجه الانفعالات الاخرى التي تخلق بدورها جذراً ثانياً، وهكذا...

في هذه الحالة اذا توجب على الفرد الاستعانة بكافة مصادره فما الذي سيجري؟ (مثال: اذا وجد نفسه في بعض الحالات الحرجة التي عليه التكيف لها؟» مجمل شخصيته تبدأ بالاهتزاز والعقدة النفسية ترسخ. ويتحرك قاع البحيرة ويضطرب وتصعد الاعراض الى السطح: مشاعر النقص والاستحواذ والافكار المتسلطة ونغمات القلق وبخاصة النفسي بكافة صيغه واشكاله..

وهكذا وجد فرويد التحليل النفسي.

نحن نعلم انه عمل مع شاركو وبرنهايم وشارك في التجارب المهمة في التنويم المغناطيسي واستنتج الاتي: المنوم يخرج فكرة معينة وتدخل هذه الفكرة في العقل الباطن للشخص موضوع البحث مكونة نواة منفصلة (بوسعنا مقارنتها «بالهو» التي تتكون العقدة فيها).

وعندما يكون المريض يقظاً فان الفكرة لا تظهر بل الاعراض فحسب.

مثال: المنوم المغناطيسي يوحي للمنوَّم مغناطيسياً الآتي: «عندما تشير الساعة الى العاشرة فانك ستخرج وتأخذ مظلتك». ومن ثم يقوم بايقاظ المريض. وفي الساعة العاشرة ينهض هذا الشخص ويأخذ مظلته. وطلب اليه المنوم قيامه بذلك وكان يفترض بالمريض ان يجيبه قائلاً: «انهض وآخذ مظلتي لانك أمرتني بذلك». بينما اجاب المريض بشيء آخر يختلف تماماً كأن يقول مثلاً: «أنهض لأني اشعر برغبة في الخروج، ومظلتي؟ لكن المطر قد يهطل!»

مثال آخر: المنوم يوحي للمريض انه قد حرق ذراعه بشدة. ومن ثم يوقظه وتظهر انتفاخات على الذراع ذاتها. وعند الاستفسار فان المريض سيحدد سبباً آخر مختلف تماماً. فهو لن يتحدث عن الايحاء أو عن الحروق بل عن مرض جلدي مثلاً.

انه يتحدث اذاً عن العلامة جاهلاً تماماً سبب هذه العلامة. وعندما رأى ذلك قفز فرويد فرحاً فقد أمسك بمفتاح الحل.. لقد فهم انه ليس من الواجب الاهتمام بالتفسيرات المقدمة من قبل المريض. لماذا؟ لان هذه التفسيرات تتوجه نحو الاعراض المرئية (الفقاعات). بينما العقدة تبقى كامنة غير مرئية داخل العقل الباطن.

فالتحليل النفسي يتخذ الطريق المعاكس لتجارب التنويم المغناطيسي:

أ ـ التنويم المغناطيسي يوحي بفكرة ومن ثم تظهر العلامة أو الاعراض.

ب ـ التحليل النفسي يستأصل الفكرة اللاشعورية وتختفي الاعراض.

وأصعب ما في الامر هو القدرة على استئصال هذه الفكرة. وهو ما يمثل جزءاً اساسياً من تقنية التحليل النفسي كما هي معروفة.

● كيف تتجلى الاشباح اللاشعورية؟

كما رأينا سابقاً فانها تتجلى في الاعراض. ولكن ماذا ايضاً؟ نحن نعلم ان دائرة جمارك «الانا العليا» تعيق مرور بعض الدوافع. ولكن متى ستمر هذه الدوافع؟ عندما لا يحتفظ رجال الجمارك بالحواجز أي عندما تترك «الانا العليا» مهمة الرقابة وهذا يحدث اثناء الرقاد الذي يظهر على شكل تغيير في عمل المراكز العصبية. هوذا الليل قد حل والكائن البشري يخلد الى النوم فيختفي شعوره. وتتلاشى «الانا العليا» وترتخي الرقابة. وعندما ينام الانسان يعود الى مصادره الغريزية.

وتمثل دوافع العقل الباطن امام دائرة جمارك «الانا العليا» غير ان رجال الكمارك كانوا قد غادروا المكان وكان الشرطة منهمكين بلعب القمار! فتتسلل الدوافع سراً دون ضوضاء.. ويبدأ في

العقل الانساني استعراض للمشاهد يتابعها الشخص النائم وهوما يسمى بالحُلم.

● الحلم

انه سلسلة من اعراض اللاشعور. وقد أطلق فرويد على الحلم التعبير التالي: «الطريق الملكية التي تؤدي الى اللاشعور». وتجدر الاشارة الى ان التفسير الذي يقدمه التحليل النفسي للاحلام لاعلاقة له «بمفاتيح الرؤيا» وبالكلام التافه على اختلاف اشكاله.

وفي الازمنة الغابرة كانت تُعد الاحلام بمثابة تحذيرات ونصائح من الالهة. وهي ما تزال كذلك احياناً في عصرنا الحاضر ومن المحتمل وجود الهاجس الداخلي كما يحتمل ايضاً في المستقبل (الذي سبق وان تقرر في الحاضر) ان تظهر لبعض الاشخاص تحت ظروف مختلفة. غير ان هذه المفاهيم تنتمي الى حقل آخر لذلك علي ان اتخلى عنهاهنا رغم الاهمية التي قد تمثلها. وغالباً ما يظهر الحلم بصيغة رمز.

حلم ايفا

هوذا حلم في غاية البساطة حدث (لايفا) التي تكره شقيقتها. واذا ما ذهبنا أبعد من ذلك فيصبح أمراً منطقياً ان كراهية ايفا تذهب الى حد الرغبة (واعية أوغير واعية) في ان ترى اختها ميتة

او منتهية . واستناداً الى تحليل ايڤا فان الكراهية شعورية وكانت «الرغبة في الموت» مكبوتة داخل عقلها الباطن لانها غير مقبولة استناداً الى أخلاقها .

ايڤا موجودة في غرفة وعلى المنضدة هناك تابوت مفتوح . وتدخل شقيقتها الى الغرفة وتتجه نحو التابوت وتنظر ملياً الى ايڤا وتبصق على الارض وتلج الى التابوت وتبقى فيه كجثة، تبدأ ايڤا بالضحك وتستيقظ مرتعبة .

يعد هذا الحلم بسيطاً جداً فالتابوت هو رمز بدائي للموت . وتدخل الأخت وتنظر الى ايڤا وتبصق (رمز الاحتقار) . تدخل الى التابوت (وفاة) . ايڤا تضحك بارتياح وتستيقظ . لماذا هي مرتعبة؟ لانها احست شعورياً برغبة الموت اللاشعورية المكبوتة حتى الوقت الحاضر غير أنها استفادت من الرقاد كي تتجسد .

حلم بيير :

لنفترض الان ان شاباً قد اضطر الى ايقاف دراسته بسبب ولادة شقيقة حيث تصبح النفقات المالية باهظة جداً لذلك اضطر الشاب الى ترك الدراسة التي يعتبرها مهمة جداً، هذا الشاب يحب اخته كثيراً وهو في وعيه، ولكن من الطبيعي في الوقت ذاته ان يأسف بشدة لكونها حطمت مستقبله . وتمر السنون . . واصبح حلمه كالاتي : تابوت (مرة اخرى) وداخله نجد والد هذا الشاب

لكنه يبدو اكثر شباباً. يتقدم بيير ويستمع الى والده يقول: «عمري ثمان وعشرون عاماً وأنا ميت».

هذا الحلم يصبح بسيطاً عندما نكتشف ان الاب كان يبلغ التاسعة والعشرين من العمر عندما ولدت الشقيقة. وهذا يعني اذاً: «فيما لو توفي والدي وهو في الثامنة والعشرين لما ولدت شقيقتي وكان سيكون بمقدوري اتمام دراستي..»

لدينا هنا اذاً تعليل منطقي جداً على الرغم من أنه تم داخل الحلم. غير ان التفكير لم يكن سيرى النور في حالة اليقظة.. لماذا؟ لان الأنا العليا كانت ستكبتها فوراً وبكل فزع. سأتناول هذا الحلم مجدداً لاحقاً.

حلم جان:

والدة جان متسلطة وجان شديد الخجل وبخاصة من جسده. انه بالتأكيد يخاف النساء، وحلمه هو الآخر بسيط جداً. يجد نفسه في فسحة غابة ويشعر بانه مغطى من رأسه حتى قدميه ويقوم بجر ملابسه حتى يغطي كافة اجزاء جسده. وعلى بعد بضع خطوات منه هناك شجرة منتصبة. وخلف هذه الشجرة توجد زنبقة كبيرة بيضاء. جان يتحجب اكثر فاكثر وهو يغطي جسده تدريجياً. وينظر بعنف الى الزنبقة الكبيرة البيضاء. وفي هذه اللحظة تظهر الام ووجهها مغطى بشال أسود وهي الاخرى غارقة في البكاء. ويجد جان نفسه عارياً ويلوح بقبضته نحو والدته فتأخذ الاخيرة

خنجراً وتشير الى الشجرة التي امام جان ثم تطعن نفسها. جان يتوجه نحو الشجرة ويدخل فيها ثم يخرج من الشجرة وهو يرتدي لباس الفارس وبجانبه حُسام براق. فيقترب من زهرة النرجس ويقطعها بسيفه، وفي تلك اللحظة تتحول زهرة النرجس الى اللون الاحمر فيحس جان بنشوة جنسية يستيقظ على أثرها لنتفحص الرموز التالية:

* الشجرة: (انظر رقم (١) التداعيات الحرة) وتعني القوة والرجولة والنشاط الجنسي. وقد لا يفكر أي شخص في العالم ان تكون الشجرة رمزاً للضعف او الليونة. ولذلك فالشجرة هي رمز عالمي.

*النرجسة البيضاء: رمز الصفاء بالتأكيد. وهنا نشير الى فتاة شابة.

* الشال الاسود: رمز الاسف والحزن والذل.

جان أمام النرجسة البيضاء (الفتاة الشابة) يشعر بالخجل من جسده (فيغطي نفسه بغضب شديد). انه ينتحب (خجل وغضب أمام النرجسة البيضاء اذ لا يتجرأ على الاقتراب منها). تظهر والدته وهي ترتدي شالاً اسوداً (حسرات لان تسلطها تسبب في تمادي ابنها الى هذا الحد). انها غارقة في الدموع (ايضاً). انها تسحب الخنجر وتطعن نفسها (السبب ذاته أو الرغبة اللاشعورية

في رؤيـة وفـاة والـدتـه). انهـا تشيـر لجـان طريق الشجرة (طريق الـرجـولـة). ويـدخـل جان الى الشجـرة ويخرج منها مرتدياً زي فارس (القوة واليُسر) وهو يحمل سيفاً (اليُسر والقوة والجاذبية وملح لمواجهة الحياة). انه يتقدم من النرجسة (الفتاة الشابة).

وهنـا تظهـر عدوانية: جان يتحرر فجأة من خجله وضعفه فهو يقطع بقساوة زهرة النرجس (حسامه يرمز الى العضو الذكري الذي يزيل بكارة الفتاة الشابة) وتتحول النرجسة الى اللون الاحمر (رمز الدم) والفعل الجنسي واضح هنا لالبس فيه لان جان يشعر بنشوة جنسية تتسبب في ايقاظه من النوم. وباختصار فان التحليل الجيد للحلم يستند الى عاملين:

أ ـ معرفة عميقة بالتحليل النفسي

ب ـ تجربة عملية واسعة

فالمحلل النفسي يشبـه مُخبـر ذهني. فبـاعتمـاده على أثـار الاقـدام عليـه اكتشـاف المـذنب. فلا يجـوز الاعتماد حالاً على التفسير الاول الذي يرد. فعند اكتشاف شعر أشقر لا يعني ذلك ان الشخص ينتعل كعوباً مسطحة! يجب ان يجرى تحليل جدي عبر مجمـوعـة من الاحـلام وأيضـاً بالاستناد الى قرينة مترابطة جداً. ويشارك المريض في هذا التحليل. وحينئذ يكون المريض مدعواً للقيـام بتـداعيـات حرة استنـاداً الى مادة حلمه. لقد تحدثت عن

الـرمـوز والبعض منهـا قد تحمـل المعنى ذاتـه بالنسبـة للجميع .
ولكن على الرغم من ذلك فانها قد تتغير حسب الطباع والذهنية الآنية .

أين نحن في هذا الصدد؟

نلاحـظ ان تفسيـر الاحـلام قد يكـون أمـراً اسـاسيـاً في تقنية الـتحليـــل النفسي . وأكــرر ان البلبلة في الحلم ما هي الا شيء ظاهـري حسب رأي فرويـد. فغـالباً ما يكون للحلم معنى محدد على الرغم من كون الشخصيات متنكرة فضلاً عن انه يعبر احياناً عن بعض الرغبات المكبوتة .

وسوف نفهم ذلك باعادة قراءة حلم ايڤا (الرغبة بوفاة شقيقتها) وحلم بيير.

لنحاول ان نتناول الاشياء بصورة أعمق :

أ ـ ان ولادة الاخت منعت بيير من متابعة دراسته .

ب ـ اذاً، لو لم تكن لديه شقيقة لاستطاع بيير اكمال دراسته هذه .

جـ ـ اذا لم تكن لديه شقيقة يعني «لو لم تولد شقيقتي» .

د ـ «لو لم تكن شقيقتي قد ولدت يعني : «لو كان والدي ميتاً» قبل ان تتكون» .

بينما :

النقطة (أ) هي عقلانية وشعورية

و(ب) تعد عقلانية ايضاً ويستطيع بيير هضمها دون أن تؤثر على معنوياته.

و(جـ) تصبح لاشعورية لكنها قد تظهر ضمن حركة المزاح.

مثلاً: لولم تكن مولودة هذه لاصبحت الآن مهندساً!» وسيجيب الشعور قائلاً: «ما الذي جرى لي؟ إني أتفوه بحماقات..»

اما (د) فانه يأتي من «الهو»، هذا الدافع تكون بسرعة البرق لكنه طُرد حالاً.

وعلى أية حال فان الدافع (د) قد تكون وسقط مجدداً داخل «الهو» ليخرج منها. عندما ينخفض نشاط دائرة الجمارك بصيغة مأساة معاشة من الحلم. فحلم بيير يترجم اذاً «رغبة» لاشعورية لمنطق عنيد.

السخط الشجاع

قد تهدد بعض المشاعر بالانتفاض أمام التحليل النفسي! وقد حدثت فعلاً حالات من هذا القبيل! ولنتصور الاهانات والتطاولات التي تلقاها فرويد لفترة طويلة.

هل يحمل الانسان مثل هذا القدر من الرواسب العميقة؟ غير اننا نسينا شيئاً مهماً فعندما نذكر «رواسب» نعني بها حكماً

اخلاقياً. ومرة أخرى نقول هل بوسعنا أن نقاضي الذئب اخلاقياً عندما يفترس الحمل؟

أو: هل اننا نعجب اخلاقياً بالحمل عندما يهرب من الذئب؟

ان كل واحد منهما يؤدي دوره ولا شيء غير ذلك. وقولنا ان النمر حيوان شرس لا معنى له على الاطلاق. فالنمر هو النمر بكل بساطة. وبالقدر ذاته يكون «الهو» هو «الهو» وان أي تقدير اخلاقي لحسابه يعد أمراً ساذجاً. ان علينا ان نعرف بدلاً من الحكم عليه.

ألم يكن جميلاً ان يتمكن الانسان هذا الحيوان «المتطور» من التجرد شيئاً فشيئاً من هذه الانانية الصرفة ويحصل على ضمير اخلاقي ووضوح يتيحان له تدريجياً معرفة النفس وحب الآخرين؟

ان التحليل النفسي على العكس مما يتصور عنه يتيح الى الكائن البشري أن يرى ذاته كما هي بجمالها وبشاعتها. وان يرى نفسه دون احتقار وان يستنتج ببساطة. أليس من الافضل معرفة النفس تحت الظروف كافة مهما كانت وبالتالي معرفة الأسلحة الواجب استخدامها للتخلص من حيوانيته؟

والتحليل النفسي ليس موجهاً للمرضى بل أبعد من ذلك!

انها طريقة للوضوح. انها لا تصطدم الا اولئك الذين يخشون أن يروا الطبيعة الحيوانية للانسان ويرفضون (غالباً بسبب الخوف) دمجها مع طبيعتهم الروحية. وبالتأكيد كما هو الحال بالنسبة

لغاليلو فان التحليل النفسي يوجه ضربة مباشرة للغرور (الذي تولد نتيجة للجهل والخوف). : ولكن لدى دراستنا للتحليل النفسي نكتشف كيف أنه يساهم في توضيح العديد من الافعال النفسية الى اليوم الذي سيصبح فيه كما كان يجب ان يكون علماً خالصاً يلتحق بالفلسفات الكبيرة.

● تصريف الانفعال

ويتولد ذلك عندما يتحرر شخصاً من كبته دافعاً إياه الى الخارج. مثال: أئتمان سر كبير يعد ضرباً من التنفيس البسيط و«صمام أمان» وجداني. ويقول الانسان حينئذ: «هذا السر كان يخنقني والبوح به للآخرين جعلني اشعر بالراحة».

نحن نعلم ان حالات الكبت غالباً ما تفرز اعراضاً مؤلمة. وأحياناً تختفي حالات الكبت هذه خلف سلوك يبدو طبيعياً.

وقد حدثت حالات كبت عنيفة (الخوف) خلال الحرب ادت الى مظاهر هستيرية لدى المقاتلين والى «تحولات» بدنية:

كالشلل والصم والعمى المؤقت دون اساس عضوي لذلك وفي مثل هذه الحالات يفرض التنفيس نفسه ايضاً.

كيف يحدث التنفيس؟

١ ـ يمكن ان يحدث عفوياً: غضب عنيف يمكن ان يحرر

ملامات مكبوتة مثلاً. ويعض الانفعالات تعد ايضاً تنفيساً لكبت معين.

٢ ـ يمكن ان نطلقه على أثر صدمة كهربائية فيخرج المريض احيانـاً صراعـاتـه الـلاشعـورية. فلم تعد العلامة التي تظهر بل العقدة النفسية ذاتها.

٣ ـ التـحـليـل النفسي يؤدي الى حدوث التنفيس عن طريق فتحة لابواب العقل الباطن.

٤ ـ تستخـدم بعض العنـاصـر الكيميـاوية ايضاً فاتحة الطريق لطبقة اللاوعي (الهو).

انـه التحليـل باستخـدام العقـاقير أو «مصـل الحقيقة» وسيتم التحدث عن ذلك لاحقاً.

● الغريزة الجنسية

يعـد النشـاط الجنسي أحد أسس التحليل النفسـي، وعلينا ان نعرف الآتي: «لا يجوز الخلط ما بين النشـاط الجنسي والتناسل. فالغريزة الجنسية لا يجوز خلطها مع الرغبة في التزاوج. والغريزة الجنسية بشكل عام هي كآية غريزة اخرى موجودة منذ الولادة.

وقد تسبب هذا المفهوم الجريء في تعرض فرويد للافتراءات الاضـافيـة. فامكـانيـة ان يكون للطفل نشاط جنسي كان يبدو امراً ساذجـاً ومكـدراً. ولكنتـا لم نكن نأخـذ به على انه أمر ساذج وان

الغريزة تظهر في البلوغ! فضلاً عن ذلك لماذا يكون الكائن خارج قوانين الطبيعة؟

* نحن نعلم في الوقت الحاضر ان الغريزة الجنسية تتجسد في مظاهر متعددة حيث لا يشك حتى بفعلها. ان بعض تصرفات الطفل نحو جسده تعد بمثابة مظاهر جنسية (ولن أقول هنا تناسلية). ويترجم بعض سلوك الابن تجاه والدته الغريزة ذاتها. وكل ذلك يعد أمراً منطقياً: فهناك نشاط جنسي عام متى ما وجد جنسين متعارضين. انه قانون الطبيعة برمتها وليس هناك ما يدعو للهلع منه بشرط اعتبار النشاط الجنسي حالة سليمة وغريزية ومتحررة من المحرمات الاخلاقية نمطر الانسان بها. . . وسأتحدث فيما بعد عن النشاط الجنسي. غير أني أريد دراسة بعض ممارسات الطفل التي كانت تخيف الوالدين وأهمها: العادة السرية.

● ماذا لو مارس الطفل العادة السرية أو الاستمناء. .

في أية حال من الاحوال فان على المربين الا يفزعون الطفل أو يجعلونه يشعر بالخجل. وغالباً ما تؤدي العادة السرية الطفولية الى كوارث في البلوغ؟ هل بسبب الممارسات ذاتها؟ كلا، ابداً بل بسبب المناخ الاخلاقي الذي يرافقها.

ان علينا اعتبار العادة السرية كظاهرة طبيعية في تسعين بالمائة

من الحـالات. ويجـد الابـاء انفسهم أمام مسؤولية اساسية تتمثل بالـفهم السليم. ولكن كيف يتصـرف الكثيـر من الابـاء؟ انهم يتفـوهـون باحـاديث مثـل: «لن تكبر قط..» أوستصبح أحدباً أو مجنونـاً واذا استمريت في هذا العمل فانك ستفقد..» أو سيراك الشيطـان ويـرسلك الى جهنم..» الخ! أو هنـاك اشياء اكثر حدة عنـدما نكتشف علنـاً ما يسمى «بعيب الطفـل»! انـه اسلوب غير مقبول قط. وكل ردود الفعل هذه يجب تجنبها بأي ثمن كان. ولا يجـوز التصـرف مطلقاً بهذا الشكل لان الطفل لو أستمر بممارسة العادة السرية فاننا سنلاحظ بعض حالات الفزع والخجل والضيق الـنفسي والانفعـالات التي سيعيشهـا! كمـا قد تظهـر بعض العُصـابـات الـرهيبـة. ان علينـا عدم اللجـوء الى الرعب بل الى المصـداقيـة. ونحـرص جاهدين على عدم الحاق الضرر بذهنية الطفل. وحينئذ لن يكون هناك ما نخشاه.

وعندما يكتشف الطفل وهو يقوم بهذا العمل علينا طمأنته وعليه ان يقتنـع بان ممـارسـة العـادة السـريـة أمر طبيعي ولا يتسبب في احـداث أي اضطـراب. وبـذلك يتعاون الطفل بصورة تامة وتقل ممـارستـه للعادة السرية بشكل ملحوظ. ويكفي ان نرى الارتياح الكبيـر على الصبي عنـدمـا يكتشف انه ليس شخصاً منبوذاً وليـس الوحيد في هذا العالم الذي لديه مثل هذا «العيب الشنيع»!

وقـد يحـدث الاستمناء الطفولي نتيجة للمناخ العائلي الضار.

فالطفـل التعيس الـذي يجـد نفسه في حالة من فقدان الأمن يبدأ بالبحث من خلال نفســه عن اللذة والسعـادة التي لا يجـدهـا في مكـان آخـر. وفي هذه الحـالـة تختفي ممـارسة الاستمناء بمجرد عودة الحياة الطبيعية للعائلة (أي ان الطفل قد أستعاد أمنه المفقود).

فضـلاً عن ذلـك فان الاستمناء الطفولي يمثل احياناً ثورة ضد المنـاخ العـائلي. فيقـوم بالاستمناء بنفس الذهنية التي يقوم فيها باكل قطعة حلوى مسروقة في الخفاء.

ان هذه الممـارسـات الانفـراديـة قد ينصح بهـا اذاً لاسبـاب صحيـة. ولـذلـك فان على الابـاء انفسهم ان يتنـاولـوا المشكلة الجنسيـة بمنظـار صحي وجـاد وبحكمـة وان يعملوا ان كان ذلك ضروريـاً من أجـل التخلص من حالات الكبت الخـاصـة ومن خجلهم الشخصي في مواجهة النشاط الجنسي.

● عقدة الخصي

الخصي المـادي يعني اجتثـاث الاعضـاء التناسلية الذكرية. وقـد يحـدث الاخصـاء نتيجة لحادث أوجريمة أوعملية جراحية وتكون اثاره شديدة احياناً على الحالة الجسدية والذهنية. وهنا الكثير من الاشخاص الذين يشعرون بانفعال شديد وهم يتخيلون تعرضهم للاخصاء. ولكن هناك لدى بعض الاطفال خوف ذهني

من ان يتعرض لحالة الخصي أو الى بتر اعضائه .

وهي تتولد نتيجة لبعض الظروف التي غالباً ما ترتبط بالمربين . ولكون الاطفال يخافون من تعرضهم لبتر اعضائهم نتيجة الخصي تكون لهم ردود فعل انفعالية وهذا شيء سهل الفهم بسهولة وضيقهم النفسي قد يكون شعورياً أو لا شعورياً . ونلاحظ احياناً الكثير من الاطفال الذين يركضون وهم يحمون اعضاءهم الجنسية بايديهم . لماذا؟ هل هو الخوف المادي أم الذهني؟ ويلاحظ الكثير من الاباء اتجاه طفلهم الصغير نحو لمس اعضائه التناسلية والتفاخر بها ، هذا الاتجاه عادي وطبيعي . ولكن الاباء يتصرفون ازاء ذاك بصورة خاطئة . وخطرة . كأن يقولوا لطفلهم «اذا لمست عضوك التناسلي مرة أخرى فانك ستفقده!» أو «اذا لمست اعضاءك التناسلية فسيأتون لاخذها منك وتتحول الى فتاة» أو «لا تفعل ذلك لانه أمر قذر»!! أو «انك تقوم بحركة مقززة واذا استمريت في ذلك فسيسرقونها منك . .»

وأخيراً هناك ما هو اسوأ من ذلك كله عندما يقال : «اذا رأيتك تلمسه مرة أخرى فسأقطعه لك هل تسمعني؟ . . دعونا ندرس حالة الصبي جان مع كافة التبعات المحتملة .

حالة الصبي جان (٩ سنوات) :

جان صبي انفعالي وتثير فيه كلمة «حطاب» شحوباً قاتلاً ،

ويشعر بالرعب ذاته أمام كلمات مثل «بلطة» أوسكينة. وقد طُلب الى جان في حينهـا ان يرسم شيئاً يرتبط بذلـك. فرسم شجـرة تهاجمها بلطة الحطاب، ومن هذه الشجرة كان هناك سائلاً يسيل وطفل هارب يتبعه رجل.

وعند تقديمه لهذا الرسم شرح قائلاً: «هذا هو والدي!» (كان يشير الى الرجل الذي يتبع الطفل). وهذا لا أعرف ما هو انه يحس بألم» (اشار الى شجرة). أما هذا (الحطاب) فلأنني لم أكن عاقلاً «وهذا هو الدم» (اشار الى السائل). وفي الوقت ذاته وضع يده على اعضائه الجنسية وكأنه يحاول حمايتها وبدأ بالارتعاش.

كل شيء كان واضحاً اذاً وجاء التأكيد على لسان الوالد وهو رجل متسلط. وقال انه كان يهدد باستمرار ولده بطريقة حمقاء: «اذا لم تكن عاقلاً فسيأتون اثناء الليل ليقطعون عضوك الذكري الذي تفخر به هل فهمت ذلك؟..»

لقد أصبح الامر واضحاً فالبلطة كان الأداة التي تتيح عملية الاخصاء الرهيبة للطفل. أما الشجرة فكانت تمثل الطفل ذاته (الرجولة) والحطاب كان رمزاً للأب الذي قام بعملية الاخصاء. والحركة الاخيرة للطفل كانت الاكثر بلاغة من احاديث العالم كافة.

ما الذي قد يحصل لجان؟

علينا الا نرى في حالة جان هذه مجرد انفعال بسيط! واني افترض انه قد استمر في العيش ضمن الحالة النفسية ذاتها دون تدخل من قبل العالم النفسي. ما الذي كان سيحدث؟

قبل كل شيء (مثلما حدث آنفاً) قد يكون جان عاش انفعالات خوف متعددة، بينما ليس هناك ما هو اكثر ضرراً من تكرار حالات الانفعال. وهذا الانفعال ظهر بمجرد ان أعتقد جان انه «ليس عاقلاً». حيث سيأتون اليه في المساء لقطع عضوه. هل فكرنا بما كان يحصل في تلك الليالي المضطربة والمرعبة؟

لقد كانوا ينتظرونه ويضعون له الفخ لقطع اعضائه. ما الذي كان يجب عمله اذاً؟ عمل كل شيء بغية تفادي أي فعل سيء. ولو كان قد استمر ذلك فان جان كان سيفعل كل شيء لتفادي الشعور بالوقوع في الخطأ ولتفادي اللوم والخشونة. وكل ذلك بانفعال شديد! وعندما يتواجد أمام والده الا نحيازفان جان يشعر بالانتقاص والتضاؤل كي يمنع أية محاولة لتوجيه اللوم اليه.

وهكذا سيدفع جان الى الشعور بالضعف حيث قد يصبح صبياً صغيراً وعاقلاً. وكان قد يتفادى بأي ثمن الافعال الرجولية التي كانت قد تدفعه لمواجهة الآخرين. كما ان تطوره كرجل قد يكون توقف. وهكذا يكون قد تعرض للاخصاء ذهنياً بغية الا يتعرض

لذلك مادياً. وعندما يبلغ سن الرشد فانه سيكتشف شيئاً فشيئاً ان مخاوفه المادية لا أساس لها من الصحة. بيد ان العقدة قد أخذت مكانها. وحول هذه العقدة النفسية نظمت حياته بمجملها..

وقد يكون تحول خلال فترة المراهقة المليئة بالضيق النفسي الى الخجل والانوثة. كما قد لا يكون نجح في القيام بأي فعل رجولي أو مهني أو زوجي. لقد كان يعد «رجلاً» في الظاهر ولكن بدون برهان عملي. كل ذلك بسبب الانفعالات الشديدة التي ظهرت بسبب والدين قليلي الذكاء.

وما الذي يحدث غالباً

هناك احياناً شيء آخر في هذه العقدة النفسية. فمجرد ان يكتشف الصبي الفارق بين الجنسين فانه يعتقد ان الفتاة غير كاملة لانها تفتقر الى الاعضاء الجنسية الخارجية. ويتابع الفتى منطقه: «اذا لم يكن لديها عضو خارجي فذلك لكوننا قد استأصلناه منها». وهو يخشى ان يحدث له الشيء ذاته.

لماذا؟ هل انه يخشى فقدان اعضائه. كلا ولكن فقدان التفوق الذي تشكله اعضاؤه بالنسبة له. انه يخشى ان يصبح ناقصاً كالفتاة وان يتعرض للانتقاص والحرمان. دعونا نتذكر هذا جيداً لانه مهم جداً! اذاً لو قام الوالدان بتهديده بهذا الشكل

فانهم سيولدون لدى الطفل قلقاً شديداً. لذلك يجب تفادي ان تصبح الخشية من الخصاء عقدة نفسية. وافترض مثلاً ان الخوف من الخصاء يرتبط بالاستمناء الفردي (على اثر تهديد المربين). ونجد هنا ايضاً تراكماً غريباً للضيق النفسي الطفولي والبالغ.

وسيرتبط الاستمناء في المقام الاول بالقلق من التعرض للاخصاء، ومن ثم يصبح النشاط الجنسي مرادفاً هو الآخر للخصي! أي التشويه الذهني والشعور بالنقص والحرمان والانوثة والضعف ونقصان الرجولة. وتنتشر هذه الاعراض في نواحي الحياة كافة. ويفقد المرء كافة خواصه الذهنية ويتحول باستمرار الى الانطواء.

ويفعل الرجل حينئذ ما يفعله الصبي الذي يهرب وهو يحمي اعضاؤه الجنسية بيديه. انه يحمي نفسه من أي تشويه ذهني من أي لوم أو أي صراع سواء عن طريق الاختفاء أو الهرب. وحفاظاً على حياته فانه لا يدخل في صراع. وخوفاً من أن تخضع رجولته للاختبار فانه يتفادى أي فعل تتطلبه هذه الرجولة. أنه خاسر منذ البداية ويقلل من شأنه خوفاً من تعرضه للانتقاص. انه الفشل الجنسي والكآبة والضيق النفسي... أو الخوف من «احتقار» النساء أو أن التعويض يبدأ بالعمل: فالرجل بحاجة الى العدوانية الجنسية لاثبات رجولته. هذه الرجولة قد تصل الى درجة السادية بكافة اشكالها.

ان هذه العقـدة النفسيـة يصعب الاقـرار بها دون القيام بتجربة جديـة في التحليــل النفسي . ولكن يكفي الاستمـاع الى بعض المراهقين لتحديدها . .

● عقدة أوديب

يبدو التعبير متخلفـاً حضارياً بعض الشيء غير اننا سنكتشف منطقـه . وهـذه العقـدة شائعـة جداً وتنجم بصـورة اسـاسيـة عن الـروابط بين الاباء واطفالهم . انها اذاً تهم المربي كثيراً . وأنصح الاهل بدراستها بعناية تامة . ان معرفة اليتها الحاذقة غالباً ما يتيح تفـادي النتائج الضارة الناجمة عنها . ويعلم علماء النفس كم من الامراض النفسية تنجم عنها . وتحطم حياة بكاملها احياناً بسبب هذه العقــدة . وغـالبـاً ما تؤدي الاخيـرة الى الانـوثـة أو الضعف والخوف لدى الرجل والى الشعوز بالرجولة الشديدة لدى النساء . .

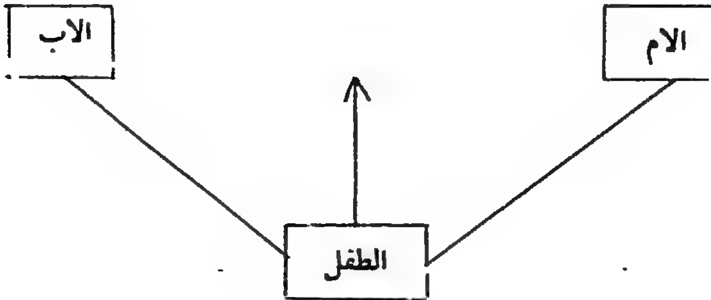
ومن بين نتائجها الاساسية نجد الآتي :

- حياة جنسية مقرفة
- ضعف جزئي أو شامل
- برودة جنسية
- خجل وفشل مستمران
- عدائية داخلية

- هذيان المطالبة والخوف المستمر من الغبن
- الشعور بالنقص
- الشعور بالذنب دون دافع ظاهر
- احساس «بعدم قبوله» اينما يحل
- شعور بفقدان الوسائل الضرورية لمجابهة الحياة أو العدائية.
- الشذوذ الجنسي بشكليه الذكري والانثوي.

ملاحظة هامة: تظهر هذه العقدة بصورة معتادة خلال فترة الطفولة وعليها ان تختفي فيما بعد اذا ما تحقق التوازن ما بين الاطفال ووالديهم. وبعكسه فان العقدة تستمر حتى فترة البلوغ التي ستكشف خلالها عن وجوهها المختلفة.

وقبل تناول عقدة أوديب اذكر ان المحيط العائلي يعد بالتأكيد اساسياً لأي طفل. ولدينا الميزان التالي:



سيكون المحيط العائلي ممتازاً متى كانت العناصر الثلاثة في وضع ممتاز. ولكن يندر ان تتوازن الكفات الثلاث لهذا الميزان. وسنلاحظ ان أي اختلال في توازن احداهما يؤدي الى الاضطراب. وسيدفع الطفل في نهاية المطاف الثمن لانه الجهة الاكثر طيعاً وليونة!

مثال:

الأب: مهيمن جداً وقاسٍ وشديد الضعف ولين.. الخ

الأم: ضعيفة جداً ونواحة وعدوانية ومسيطرة..

الطفل: ضعيف بدنياً أو نفسياً:.. الخ

نفترض قبل كل شيء ان كافة كفات الميزان متعادلة واننا أمام عائلة سليمة. ما الذي سيحدث؟

○ أوديب والتحليل النفسي:

اذكّر بالاسطورة: تزوج أوديب والدته جوكاست بعد ان قتل والده لايوس. وقام بفقع عينيه كي يعاقب نفسه وهرب من مدينة تيبيس برفقة ابنته انتيغون.

ما علاقة هذه الاسطورة بالتحليل النفسي؟

للوهلة الاولى (وبعملية مناقلة) «قد يتزوج» الصبي الصغير والدته «وقد يقتل» والده. وهو أمر يبدو غير معقول. انتقل الان اذاً

الى مستوى آخر. لنفترض (وهذا ما يحدث غالباً) ان الصبي الصغير يشتهي أمه «لنفسه فحسب». غير أن هناك عائق منافس يتمثل في والده. ويصبح الصبي غيوراً من والده. انه يتمنى (شعورياً ولا شعورياً) ان يترك له أباه والدته كاملة. وكيف؟ أما بالهروب أو بالاختفاء أو بالموت.

ويصبح لدينا الآتي:

الصبي: يحب والدته ويريدها ان تكون له بمفرده:
فيصبح غيوراً من والده ويتمنى التخلص منه:
يشعر بالندم تجاه والده.
كما يشعر بالذنب.

الفتاة: تحب والدها وتريد ان يكون لها وحدها
فتصبح غيورة وتتمنى التخلص من والدتها
تشعر بالندم تجاه والدتها كما تشعر بالذنب

شـــواهد أطفـــال:

بعض رسوم الاطفال تعبر بوضوح عن هذا الموضوع. فنشاهد مثلاً:

أ ـ الصبي الصغير مع والدته في الكنيسة بحضور احد الكهنة.

ب ـ على الجانب، هناك باب مغلقة وخلف الباب نجد والد الصبي.

وهنا اذاً «يتزوج» الصبي الصغير من والدته ويتخلص من والده

عندما يضعه خلف الباب.

والانعكاسات الطفولية شائعة بهذا الصدد:

- أمي عندما اكبر سأتزوجك

- ولكن ماذا سيقول والدك؟

- بابا! أوه.. سيكون ميتاً.

أو اذا كانت فتاة صغيرة ستقول:

- أبي عندما اصبح كبيرة أريد ان اكون زوجتك

- ولكن أمك ماذا ستقول يا عزيزتي؟

- أمي؟ لن تكون موجودة حتى ذلك الحين.

أو يقول أحد الصبيان:

- ماما، أريد أن اتزوجك.

- ولكن يا عزيزي والدك لن يكون سعيداً بذلك..

- اذاً، سأقتله عندما اصبح كبيراً... الخ

هذه الرسوم والانعكاسات تُضحك الناس القريبين. انها في الواقع التعبير الاساس لعقدة اوديب.

ولنكرر ان هذه العقدة تظهر بصورة طبيعية لدى الطفل ويجب ان تختفي بصورة طبيعية فيما بعد.

وباستخدام المخطط دعونا نختبر الظهور الطبيعي لعقدة أوديب ومن ثم تطورها الطبيعي وما تفضي اليه. وهي ترتكز على تصرف الطفل تجاه أحد والديه من نفس الجنس أو من الجنس المخالف.

الصبي

تحو والدته :	تحو والده :
الطفل مرتبط عضوياً ونفسياً بوالدته . (عناية واهتمام ورقة) .	
الصبي يريد والدته له بمفرده ويتمنى امتلاكها بغية اشباع حاجات جسدية ونفسية .	يكتشف شيئاً فشيئاً معنى والده ويكتشف ايضاً انه ليس الوحيد الذي يحب والدته . وهكذا يصبح والده منافساً له .
الطفل يرغب الاقتران بوالدته اي يجسد امتلاكه الكامل لوالدته .	وحيث ان والده يمثل منافساً له فانه يبدأ بالغيرة منه غير انه لايستطيع التخلص من هذا المنافس المقتدر . ويقوم الطفل في هذه اللحظة بمواجهة والده بعدوانية فهو لا يحترمه ويستهزأ به . . الخ
الطفل يبدأ بتغيير اسلوبه في الحب . فبدلاً من امتلاكها كلياً فانه يحاول حمايتها .	يبقى في منافسة مع والده ولكنه يعجب في الوقت ذاته بقوته . فيقوم بتقليده ويحاول مساواته وحتى تجاوزه . انه يلعب «لعبة الرجل» .

نصل مرحلة البلوغ

يصبح مستقلاً وينفصل «ذهنياً» عن والدته كما تتعزز شخصيته الرجولية .	يصبح مستقلاً ولم يعد في تنافس مع والده لانه تحرر من والدته .
يتحول الى نساء أخريات	تتعزز رجولته العادية
يتزوج بصورة معتادة	

الفتاة

نحو والدتها:	نحو والدها:
الطفلة مرتبطة عضوياً ونفسياً بوالدتها وتريدها لها بمفردها لانها تحصل منها على الطمأنينة والسعادة.	الاب هو منافس لانه يستفد ايضاً من حنان الام ورعايتها. وتشعر الطفلة بالغيرة تجاه والدها.

هنا يحدث انقلاب في الحالة

تتحول الام الى منافسة لانها تتمتع ايضا بحب وحماية الوالد. فترفض بعدوانية والدتها.	الوالد يظهر كقوة وكمرشد وكاشعاع رجولي. انها ترغب «الاقتران» بوالدها.
انها في تنافس مع والدتها في امتلاك الوالد. لكنها تحاول تقليد والدتها في كل شيء. في الاغراء فهي تحاول ان تكون اكثر اغراءاً من والدتها. (انها الفترة التي تبدأ فيها بالاستهزاء من والدتها وتحاول ان تقلل من قيمتها في نظر والدها وفي نظر الآخرين).	تحاول ان تظهر له اعجاباً شديداً ويتحول الاب احياناً الى آلة.
تأمل في تجاوز والدتها من حيث الاغراء والجاذبية.	تحاول ان تلعب «لعبة المرأة» نحو والدها والرجال الآخرين.

نحن الآن في مرحلة البلوغ

لم تعد في تنافس مع والدتها لانها تصبح مستقلة وتبدأ بمعاملة والدتها كصديقة.	تنظر الى والدها نظرة اخرى. ويبقى والدها أباً محبوباً ولكنه ليس الرجل المطلق!
تصبح انوثتها كاملة.	تترك والدها «ذهنياً» وتتحول الى الرجال الاخرين. وتتزوج بصورة معتادة.

بواسطـة هذين الشكلين قمت بتخطيـط الطـريق المعتـادة. وتستمر هذه الحالة ما بين الخمسة عشر والثمانية عشر عاماً.

وقبل أن أوضح الطرق الشاذة أود التذكير بالآتي:

● النشاط الجنسي

لقـد رأينـا آنفـاً ان النشـاط الجنسي هو غريـزة كبقيـة الغـرائـز الاخـرى فهي تظهـر منـذ الولادة. وليس هناك ما يدعو للدهشة ان طفـلاً يبلغ من العمـر سنـة واحـدة يمتلك غريزة جنسية وفي ذات الـوقت غريـزة حب البقـاء. واذكّـر بضـرورة عدم الخلط ما بين النشـاط الجنسي والتنـاسل. حيث يظهر الاخير في مرحلة البلوغ ويتحول الى «رغبة جنسية» واعية بمعناها العام.

ويظهـر النشـاط الجنسي المستتر اللاشعوري اتوماتيكياً عندما

يتواجد جنسان متعارضان: لقد رأينا ان «الهو» يتواجد خارج الاخلاق. ان مفهوم «المحارم» ليس له أي معنى بالنسبة «للهو» وليس اكثر من مفهوم الشراسة لدى الذئب كما سبق وذكرت ذلك.

«والهو» الجنسي لا يعرف سوى الدوافع الغريزية التي تعد طبيعية كالرغبة في الاكل والشرب. ويصبح أمراً منطقياً اذاً ان يظهر النشاط الجنسي المستتر في تعارض الاجناس لنفس العائلة.

وفي حالة عقدة اوديب نجد الآتي:

الصبي: نشاط جنسي نحو الام

⟵ ⟵

الفتاة: نشاط جنسي نحو الأب

هذا يساعدنا على فهم الطرق الشاذة وهي متعددة بقدر المشاعر الانسانية! وقبل دراسة عقدة أوديب بمعناها المعروف لنشاهد ثلاث حالات شائعة:

أ ـ رجل متزوج يحب زوجته الى درجة العبادة. ولكنه غير قادر على اقامة علاقة جنسية معها. بيد ان الفعل الجنسي يصبح ممكناً مع نساء ادنى منها مستوى.

ب ـ رجل ضعيف جنسياً تجاه زوجته. وفي أحد الأيام ونتيجة لضجرها يصبح للزوجة عاشق. وبين ليلة وضحاها يستعيد الزوج نشاطه الجنسي الطبيعي.

جـ ـ رجـل أرتبـط بعـدة خطيبـات وكـل واحدة منهن توقعه في حالـة من الضيق النفسي يخـرج منهـا باستخـدام كافة المناورات التي تؤدي الى القطيعـة. ولكن بين فتـرة واخـرى يقـوم بمعـاشرة «بنات الهوى» وينجح معهم جنسياً.

ما الذي يجري؟

نحن نعلم ان للطفـل توجـه طبيعي نحـو احـد الوالدين الذي يعاكسه في الجنس:

الصبي ← نحو ← الأم

الفتاة ← نحو ← الأب

واذا ما أستمر هذا الاتجاه الطبيعي بصورة مبالغ فيها خلال فترة المراهقة فسيحدث «التعلق» وفي هذه الحالة:

الابن:

يتعلق بامه

يتطابق مع والدته

ويصبح كوالدته ← يتحول الى شخص انثوي.

الابنة:
تتعلق بوالدها
تتطابق مع والدها
وتصبح كوالدها ← تتحول الى امرأة مسترجلة

كيف تحدث مثل هذه التعلقات؟ عندما تختفي أحدى عناصر الميزان. لنلاحظ حالة الصبي الاكثر شيوعاً:
عندما يختفي الاب الحقيقي..

(١)

أب ضعيف ولين
وعديم الرجولة

الام

الصبي

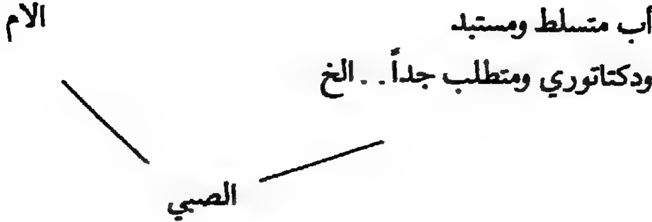
(٢)

ليس هناك أب
(مفقود أو متوفي)

الأم

الصبي

(٣)



الحالتان (١) و(٢) : هذان الاحتمالان يرتبطان ببعضهما . وفي هاتين الحــالتين يختفي دور الأب . وهنــا نجـد اذاً ان الصبي قد تولت والدته مهمة تربيته بمفردها . ومثل هذه التربية ذات الوجهين يتطلب نجاحها وجود كنوز من التفاهم والتوازن!

نحن نعلم ان الصبي الشاب عليه ان يدخل في منافسة رجولية مع والده وهو أمر لابد منه ، وأن تطوره كرجل سيكون بهذا الثمن . ويجب ان يكون الاب نموذجاً يحتذي به الابن ليساويه أو لتجاوزه .

ولكن في الحالتين (١) و(٢) تكون المنافسة مستحيلة بالنسبة للصبي حيث ليس بوسعه ان يدخل في صراع مع رجولة أبوية غير موجودة . . !

ما الذي سيجري حينئذ؟

الأب يمثــل «منــافســاً» للصبي . لذلـك ليس للصبي قط أي «ميدان» يتمرن فيه على الرجولة . فضلاً عن ذلك فان الأم الخائبة

بعدم وجود روج حقيقي تبدأ بتوجيه كامل حبها واهتمامها نحو الصبي الذي فقد رجولته منذ الان! وهي قد تضطر هكذا الى التعلق ولدها واحتضانه . . . الخ .

انها الحالة التقليدية لصبي «تربى في احضان والدته» .

وحيث ان الصبي يبحث عن مرشد وعن الطمأنينة فان الام تصبح أمنه الوحيد وقد يتعلق بها ايضاً. فهناك اذاً تعلق مزدوج غالباً ما يكون خطراً جداً لمستقبل رجولة الابن .

وتصبح الأم حينئذ الامرأة الوحيدة والمثالية يتحول نحوها حب الابن بكامله (وايضاً كل نشاطه المستتر) .

ما الذي يحدث غالباً؟ ان النشاط الجنسي الغريزي للصبي مرتبط بالاحترام التام نحو والدته . وهذا الحب المبني على الاحترام يحوله الى النساء كافة .

وعندما يصل الى مرحلة البلوغ يحاول التحول الى النساء الاخريات والى اولئك النساء «ينقل» الحب الصافي الذي كان يشعر به دوماً . ويصبح غير قادر على تحقيق الوفاق ما بين الحب والفعل الجنسي .

وكل حب يشعر به يصبح احتراماً مطلقاً ويمنع أي نشاط جنسي . . والقانون المعتاد هو كالتالي :

الحب = عاطفة احترام + نشاط جنسي + تناسل

يتحول بالنسبة له الى :

الحب = عاطفة + احترام مطلق مع اختفاء النشاط الجنسي

أتناول الآن مجدداً الحالات الثلاث التي سبق وأن أشرنا اليها أوب وجـ:

أ- هذا الرجل غير قادر على القيام بفعل جنسي مع زوجته ويمتلك نشاطاً جنسياً عادياً مع النساء المتدنيات اخلاقياً. لماذا؟ لانه لا يجوز له ان «يحترمهم». ويستطيع معهم اطلاق غرائزه الجنسية دون أن يتذكر أن الحب = احترام بدون نشاط جنسي.

ب ـ زوجة هذا الرجل الضعيف تتخذ عشيقاً لها. وعلى الفور يتحول الزوج الى شخص قادر جنسياً. لماذا؟ لان زوجته باتخاذها لعشيق توقفت في لعب دور «والدته» وهي غير جديرة الآن بالاحترام*.

جـ ـ الخطيبات الرسميات لهذا الرجل الشاب يضعونه امام مشكلته الجنسية المستقبلية. وحيث انه يشعر بالآلية التالية:

الاحترام = اللارجولة فيظهر لديه الضيق النفسي. فيبحث حينئذ عن أية فرصة تتيح له القطيعة مع خطيباته..

ليبدأ من جديد محاولاً البرهنة بهذا الشكل على انه قادر على

---

* وهنا ايضاً يمكن ان تدخل آلية أخرى هي شذوذ الجنسي التي سأتناولها لاحقاً.

كسب المـرأة. وعنـدما ينجز الكسب فان الضعف المستقبلي يتسبب مجدداً في الهـروب. انـه نموذج لدون جوان. وقد تعلق الأمر بعلاقاته الناجحة مع «بنات الهوى» فانه يرتبط بذلك بآلية (أ)

ومن جانب آخـر فان كسب النسـاء سهـل جداً بالنسبـة لهم. ولأنهم قريبين من النسـاء فان هؤلاء الـرجال يتميزون بلطافة كبيرة ويحسن المعشـر كمـا انهم «كثيـرو الجاذبية». . الخ فاهتماماتهم تلمس العصب الحسـاس لدى المـرأة وتثيـر فيهـا شعور الامومة. ويسعـد الشخص ذاتـه ايضـاً بذلك لانه يبحث عن «والدته» من خلال النساء الاخريات الى اللحظة التي توجب فيها عليه قلب الادوار. . .

اذا كان الاب متسلطاً ودكتاتورياً

قبـل كل شيء اذكـر ان الـرجل الدكتاتوري هورجل ضعيف. فالـدكتاتورية هي تعويض عن الضعف: وهنا ايضاً تبدو المنافسة مستحيلة بين الأب والصبي أو ان الصبي يخـاف بشـدة من والـده ويلجأ الى والـدتـه. أو أنه يشعر بالضعف الحقيقي لوالده وتصبح والـدتـه مصدر أمنه الوحيد. كما يمكن ان تحدث المناوشات مع الأم ايضاً:

لماذا؟ لانها لا تستطيع ان توزع حبها ما بين ولدها وزوجها فتحول كل هذا الحب الى الصبي. وهذا الاخير قد يصل الى سن العشرين وهو برجولة ناقصة. وهنا يسقط مرة اخرى في الحالات السابقة.

على العكس تماماً انها شائعة جداً وبقدر شيوع التربية القاصرة. وعيادة العالم النفسي قد شهدت الاف الشكاوي والاف الاعترافات المتعلقة بهذا الشأن. وتتطلب التربية (صبي بدون أب أو بأب ضعيف) لباقة وقدرة لاحد لهما. فعلى الأم ان تحب ولدها دون ان تتعلق به وهو أمر غاية في الصعوبة لانها تمنح حبها بمجمله الى طفلها! وفضلاً عن ذلك فقد تلعب آلية اخرى لا واعية: فالصبي يمثل الحب الوحيد والطمأنينة لدى الام. وكل شيء يسير على ما يرام عندما يبقى الصبي «طفلاً صغيراً» أي لم تظهر رجولته بعد، والام قد ترغب لا شعورياً ان يبقى ولدها «طفلاً صغيراً» لاطول فترة ممكنة. وستحاول الأم ان تؤنث ولدها كي يبقى قريباً منها ذهنياً. وحيث ان الصبي يفتقر الى الأب فغالباً ما تنجح هذه اللعبة اللاشعورية للسببين التاليين:

أ ـ ليس للصبي نموذج رجولي يستطيع تقليده أو تجاوزه.

ب ـ الأم تفعل كل ما في وسعها من أجله وتمنحه كل شيء وهو حل قد يكون مثالياً في السهولة..

ولماذا يحاول ان يسترجل اذا كانت فساتين والدته تمنحه النجاح؟

واذا كانت فضلاً عن ذلك متسلطة فقد تظهر تبعات اخرى. وأنصح بمراجعة موضوع «الاشخاص المنهكين» الذي تناولته آنفاً.

وهكذا نفهم ان معرفة بعض الاليات النفسية تصبح امراً ضرورياً جداً. ان قيادة قارب الحياة مهمة صعبة حتى وان كان لدينا مجاذيف. غير ان قيادتها بمجذاف واحد تصبح قضية قوة وتحمل. فالمرأة التي فقدت زوجها وتوجب عليها تنشئة طفلها بمفردها تجد نفسها مضطرة للقيام بأحد اصعب الادوار في الحياة لان عليها ان تكون في ذات الوقت أباً ذو رجولة وأم انثوية..

واذا توصلت هذه الام الى تفادي الاشتباك او الهيمنة فان النتيجة ستكون جديرة بالثناء..

● عقدة اوديب الحقيقية

هذه الان عقدة اوديب الحقيقية. أن كل لحظة من تطور الطفل نحو والديه قد تُفضي الى عدم التكيف. وهناك الاف الاسباب المحتملة، كالظروف الخارجية وتصرفات الوالدين والهشاشة النفسية للطفل.. الخ

وتعد آلية عقدة أوديب شديدة الدقة كما انها منطقية جداً.
نحن نعلم اذاً: ان الصبي يريد ان تكون والدته ملكه فحسب وان والده يمثل منافساً له فيحس بالغيرة تجاهه ويتمنى التخلص منه.
هذه الغيرة تولد مشاعر العدائية نحو الأب.
وهنا تصبح الطريقة شاذة:

فمن جانب يعجب الصبي بوالده ومن جانب آخر يعاني من العدائية والغيرة. وهذا التناقض يولد الشعور بالندم والضيق النفسي.

كما يشعر الصبي بالذنب تجاه والده دون أن يعرف سبب ذلك. (كل هذه الآليات لاشعورية ومكبوتة).

وحيث ان الصبي يشعر بالذنب تجاه والده فانه سيحاول الوصول على صفحه. ولكنه يجعل سبب رغبته في الحصول على الصفح. وعلى الصبي اذاً ان يجد شيئاً يتيح له الحصول على الصفح . . . وسيحاول الصبي تقليص عدوانيته. ولكن كيف؟عن طريق ارضاء والده والحصول على موافقته واعجابه.
هل سيفعل الصبي ذلك باظهار رجولته الخاصة؟ كلا بالتأكيد لان هذا التعارض بين ذكر وآخر هو الذي ولد الضيق النفسي والندم!
وهكذا سيقوم الصبي بتوضيح ذلك. وبغية ارضاء والده سيحاول نزع طابع الرجولة عن نفسه ويقلل من قدرها وينتقص منها. أي أنه سيحاول الظهور بمظهر الصغير العاقل جداً بدلاً من اظهار

نفسه كرجل: أن أي تسامح عاطفي من جانب والده سيعوض عن ضيقه النفسي. وقد تستمر هذه اللعبة من عشر سنوات الى عشرين سنة.. وحيث ان الصبي سيتحول شيئاً فشيئاً الى الصفات الانثوية فان «تعلقه» سيزداد تدريجياً بوالدته الامر الذي سيعزز الالية بصورة مزدوجة.

وسانقل ذلك بصيغة مخطط:

(الصبي)

الطريق المعتادة

نحو والدته:	نحو والده:
يريد والدته له بمفرده ويرغب الاقتران بها.	يصبح الأب منافساً في عملية امتلاك الام. وهو يرفض والده بعدوانية. فيتحول الى انسان غير مطيع ومستهزيء غير انه يبقى معجباً بوالده.

الطريق الشاذة

يرغب دوماً في الامتلاك الكلي لوالدته.	يرفض لاشعورياً حضور الاب ويرفض والده لا شعورياً. ويظهر الندم والضيق النفسي.
—	انه يشعر بالذنب نحو والده دون معرفة السبب. وهو يرغب الحصول على السماح.

يتعلق بوالدته	عليه تفادي التعارض الموجود بين «الرجل للرجل». ينزع الرجولة عن ذاته ويضع نفسه تحت منزلةوالده. يقوم بملاحظة وتحقير ذاته بغية الحصول على الصفح والعطف من والده.
يتحول شيئاً فشيئاً الى الصفات الانثوية ويتعلق بوالدته.	

مرحلة البلوغ

عندما يصل الى عمر البلوغ فان الشاب «ينقل شخصية» والده الى كافة الرجال الذين يعدهم متفوقين عليه. انه يشعر بالنقص وبالانوثة (حتى وان اخفى التعويض بالعدوانية عقدته النفسية!) انه يصنع نفسه اتوماتيكياً دون منزلة الرجل الذي يجده امامه. وبالنسبة للبالغين المصابين بهذه العقدة فان كل شخص متفوق يذكره بوالده كرئيس العمل والآمر العسكري والاساتذة.. الخ.

فضلاً عن ذلك فأن الاحساس بالذنب (أي انهم على خطأ) لا يبارحهم قط. والحالات من هذا النوع شائعة ومتنوعة. وهناك آلاف المظاهر التي توضح هذه العقدة اللاشعورية التي لا تظهر منها سوء الاعراض.

والكثير منهم يفعلون كل ما في وسعهم لادخال السرور الى

الآخرين. لماذا؟ هل هو فعلاً لادخال السرور؟ كلا على الاطلاق بل للحصول على الاستحسان والعطف والسماح. انهم يريدون اظهار الرضى خشية منهم ان يثيروا العكس انهم يرغبون التخلص من احساسهم بالذنب عندما يشعرون بانهم غير محبوبين وغير مرغوبين.

مثال:

- (س) يطرح غالباً اسئلة على رؤسائه وهو يعرف جيداً اجاباتها. لماذا؟ كي يعطي انطباع شخص مهتم ويشعر الآخر بانه مرشد له، وليبين ان لديه ثقة بالشخص الآخر الذي يخشى عدم موافقته أو لا اباليته.

- (ص) يشعر بالسعادة لا شعورياً عندما يوجه اليه اللوم. ويقول رئيسه حيئنذ: «ان اللوم يعيده الى النشاط مجدداً» أنا لا أفهم شيئاً قط. وبامكاننا القول انه يبحث عن ذلك... انه لا يعمل جيداً قط الا عندما اعاقبه..» لماذا؟ لان هذا اللوم يمثل بالنسبة له «شدة الأب»! وان العمل بصورة جيدة وبكفاءة يتيح له الحصول مجدداً على السماح والعطف والصفح. انه يشعر بالسعادة لشعوره بانه مسامح.

- (ز) سائق سيارة يبلغ الخمسين من العمر وهو رجل شديد الذكاء قال لي: «يبدو هذا امراً تافهاً بالنسبة لي وأنا لا أفهم شيئاً.. هل تعلم اني غريب الاطوار في قيادتي للسيارة؟

وعندما أرى أحد رجال الشرطة موجوداً في نقطة التقاطع فليس هناك شخص في العالم يحترم النظام اكثر مني. ولكني اقول انه ليس احترام القواعد أو الخشية من الغرامة هما اللذان يجعلاني احترم القانون بشدة بل هو شيء مختلف تماماً وهو اكثر عمقاً. لدي احساس أني ارغب في ان يشعر رجل الشرطة باني احترم النظام... علماً باني لا أعرف رجل الشرطة هذا وقد لا أراه مطلقاً فيما بعد.. لدي احساس باني طفل صغير مراقب من والده والذي سيقول له: «حسناً فعلت»..

إني أحيي الذكاء الكبير لـ (ز) الذي استطاع ان يدفع بالملاحظة الذاتية الى هذا الحد. وعندما نحلل حياة السيد (ز) نكتشف ان عقدة اوديب قد لعبت دورها. وهذا التفصيل البسيط (من بين مئات التفصيلات الاخرى) يوضح ان رجل الشرطة يمثل السلطة أي بكلمة اخرى الأب. واذا كان السيد (ز) قد تمكن من القيام بمناورات ممتازة فلم يكن ذلك بسبب خشيته من الغرامة بل كي يحصل على العطف المتسامح الذي يفضي الى الصفح.

● عقدة أوديب والمعاناة

إن اثار هذه العقدة كثيرة التنوع وغالباً ما تكون مؤلمة. وفي الحياة اليومية فانها تمثل مئات الاشكال من السلوك لا يشعر بها الشخص مطلقاً والتي تبقى غالباً احساساً غريباً وشكل من اشكال

التـوعـك المستتـر. وقد تذهب تبعات عقدة اوديب احياناً بعيداً جداً حيث تضيع حياة بأكملها لهذا السبب وكثير من البيوت تعيش حيـاة بائسـة، فالانسـان المصاب بمثل هذه العقدة مبتور معنوياً. وبـالنسبـة للرجل فان ذلك يعد فقدان الرجولة. وبسبب اضطراره الى الانتقـاض من نفسـه دون توقف فهـو يشعـر بالضـآلة أمام اي موقف رجـولي يجـابهـه. انـه يشعـر بالضيق والضعف أمـام المسؤوليات واتخاذ القرارات وهو ما ينفك يشعر بالذنب كما يشعر بانه متسامح ويقدم التنازلات اينما يحل، واللاابالية واللوم يغرقانه في موجـة من الضيق النفسي التي غالبـاً ما تكـون شديدة الوطأة. والمشـاعـر ليست شعـوريـة بمجملهـا. غيـر ان المحلل النفسي يتـولى مهمـة اخراجها بالجملة ولكون الرجل المصاب بمثل هذه العقدة تتسلط عليه فكرة الشعور بالنقص فانه قد تتسلط عليه ايضاً فكرة الشعور بالقوة. وحينئذ يكون هذا الرجل جافاً ومتعجرفاً. كم من المـرات نجـد هؤلاء الـرجال وهم غارقون في الكآبة العصبية بمجرد ان يعرض عليهم موقف فيه مسؤولية حتى ولو كانوا طامعين فيه أو قد قبلوه؟ وهُم يدعون ان الكآبة هي سببُ الاجهاد بينما في داخلهم يأبون ذلك لاشعورياً لانهم يشعرون بالضعف والخوف.

وأي رئيس لهم سيصبح بمثابة والدهم (اووالدتهم اذا كانوا قد تلقـوا تربيـة من أم أرملة ومتسلطة). وكل حياتهم تجدهم فاشلين

داخلياً ويعتريهم الضيق النفسي. والصبي الذي أصبح رجلاً يبقى طفلاً. وهناك الملايين من هذه الحالات التي تظهر أمامنا ويكفي ان ننظر قليلاً لما حولنا... ان خوفهم من الاستهجان من جانب الغير شديد جداً وعندما يحدث ذلك (كما هو الحال في طفولتهم) فانهم يفعلون كل شيء ليحصلوا مجدداً على العطف والموافقة. وانعدام الرجولة هذا يمس ايضاً النشاط الجنسي. فهناك الكثير من حالات الضعف الجنسي والشذوذ الجنسي الخفي أو المعلن...

وعلى الرغم من قلة شيوعها بين النساء فان الطريقة الشاذة ذاتها تتمثل. والمخطط التالي يوضح ذلك، فالمرأة ايضاً ستعاني من الشعور بالنقص والذنب. وهي ستشعر بالخوف من الحب وخوف من الرجل وخوف من الامومة ومن المسؤوليات. وعند الزواج غالباً ما تكون باردة جنسياً وفي تنافس لا شعوري وعدائي مع زوجها... الا اذا بقيت امرأة طفولية...

الفتاة

نحو الام:	نحو الاب:
تصبح الام منافسة لها وتنفر بعدائية من والدتها (كما في الآلية الاعتيادية).	يظهر الاب وكأنه قوة ومرشد وترغب بالزواج من والدها.

ترفض لا شعورياً وجود الام. وترفضها لاشعورياً ومن ثم يظهر الندم والضيق النفسي.	تتمنى الامتلاك الكامل لوالدها التي تضعه فوق العرش.
تشعر بالذنب تجاه والدتها دون ان تعرف لماذا. وترغب في الحصول على عفوها.	تتعلق بوالدها.
تضع نفسها تحت منزلةوالدتها وتتحول الى «مسترجلة» فهي لا تخاف من مواجهة الامرأة لامرأة	تحاول ان تتساوى مع والدها للحصول على اعجابه وتسترجل. أو
أو بغية الحصول على صفح وعطف والدتها تتحول مجدداً الى «طفلة صغيرة». وهذه هي «الامرأة الطفولية».	تحاول التأنث للحصول على الحماية الكاملة وعاطفة والدها. وتتحول الى (امرأة طفولية).

عمر البلوغ

وبسبب استرجالها فانهاتحاول الهيمنة على بقية النساء وهي تشعر في الوقت ذاته بالنقص تجاههم	ولكونها مسترجلة فهي تخاف بدرجة اوباخرى من الرجل العادي. وهذه حالات بعض النساء الباردات جنسياً.
	أو الامرأة الطفولية، تحاول البحث عن الحنان والحماية قبل البحث عن الحب الحقيقي المستحيل بالنسبة لها.

هذه العقدة تصبح نفسية اذاً متى ما كان هناك تعلقاً نحو أحد الوالدين من الجنس المعاكس يرافقه شعور بالذنب نحو احد الوالدين من الجنس ذاته. وتكون الحالة مرضية اكثر عندما يكون الشعور بالذنب عاماً. وهي حالة الرجل الذي يحمل مشاعر الذنب الطفولية ويعاني منها تجاه رؤسائه.

ونجد هنا مرة اخرى أهمية الوسط العائلي المعتاد: أي وجود رجولة طبيعية لدى الاب وانوثة بلا نزاعات لدى الأم. واذا كان بمقدورنا القول ان عقدة أوديب تظهر مائة بالمائة (لانها قانون طبيعي) فانها تختفي بدرجة اقل مما نتوقعها. وهناك ثمانية من كل عشر اشخاص يحملون اثار عقدة أوديب وبدرجات متفاوتة.

● عقدة ديان

هل تعرفون ديان شاسريس الامرأة - الرجل «وسيدة» الصيادين؟

دعونا نشاهدها في علم النفس اليومي.

ان الذكورية المفرطة للمرأة قد تكون ناجمة عن اسباب متعددة. وأحد هذه الاسباب يكمن غالباً في عقدة أوديب التي اطلعنا عليها آنفاً. وفيما يلي سببين شائعين لهذه الحالة.

١ - في عقدة الخصي لاحظنا ان الصبي الصغير يشعر بالفخر الكبير بالتفوق الذي تمثله اعضاؤه الخارجية.

وهذا أمر ليس فيه ما يثير الدهشة. وعلينا ان لا ننسى ان العضو الذكري يمثل رمزاً للحياة الكونية والديانات البدائية التي كانت تجعل منه دائماً رمزاً للعبادة.

وغالباً ما تفعل الطفلة الصغيرة الشيء ذاته ولكن بصورة معاكسة. فهي تعتقد ان هناك «شيئاً ينقصها» وهي تعتقد انها قد تعرضت للحرمان وتظل تنتظر آملة انه سيأتي اليوم الذي «سينبت لها هذا الشيء». وبما أن هذا الشيء الذي تنتظره «لن ينمو» فانها تثور وتشعر بالنقص. وتلعب التربية دوراً اساسياً. اليس هناك من يقول الى البنات الصغيرات «ان العضو الذكري لن ينمو لانهم نظروا اليه.. أو لأنهم لمسوه؟».. أو يقولون ان هذا «لن ينمو» لان ذلك يمثل عقاباً.

وفي اللاشعور تظهر التبعات على حديث هذه الفتيات الصغيرات وحتى على رسومهن. أو أن طفلة صغيرة تستمع الى والديها يقولان (وهذه حالة شائعة) الاتي:

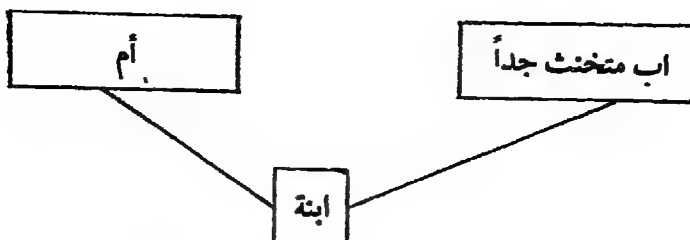
«كنا نتمنى صبياً ولكننا لم نحصل الا على بنت... سنحاول ان نعود انفسنا على ذلك.. ولكنه أمر مؤسف على الرغم من ذلك».. كيف ستتصرف الطفلة الصغيرة وهي تحتقر جنسها وتحس بغيرة شديدة تجاه الجنس الذكري..

وفي هذا النوع من الحرمان فان التكيف قد يحصل او لا يحصل كما هو الحال في عقدة الخصي. واذا لم يحصل التكيف

فان الفتـاة ستشعـر بالاحتقار تجاه جنسها الخاص بها (التي تعتقد انـه ناقص) كمـا تعاني من الغيرة تجاه الرجل (التي تراه متفوقاً). وهكذا تتولد لديها الرغبة العارمة في «تعويض» نقصها تحولها الى رجـل فتصبـح مسترجلة أو ذكورية. وهي في بعض الاحيان أمرأة رئيسـة تحـاول تسيير كل شيء بالعصـا (وبخـاصة الرجال الذين الذين ترغب باذلالهم!) وحيث انها تشعر بالغيرة تجاه الرجل فهي تحـاول اقنـاع النسـاء الاخريات بالانتفاض ضده. وهي متسلطة وعدوانية وتحتقر الانوثة كما تكره الرجال.

فهي لا بامـرأة ولا برجـل. . . وتعـاني من ذلك بصورة رهيبة. واذا ما تزوجت فان «ديـان» هذه غالبـاً ما تكـون باردة جنسياً لانها تحتقـر الانـوثـة! وفي كل مكـان وزمـان تحـاول اظهـار تفـوقهـا «الـذكـوري حقـاً» وهي ترفض الانشغـال باعمـال تخص بنـات جنسهـا (كـالاعمـال المنزلية مثلاً). ان الطغيان المقيت للرجال يثيـرهـا. . وهؤلاء النسـاء هم دومـاً غيـر راضين وغيـر مرتـاحين. والشيء الوحيد الذي يمكن ان ينقذهم هو «الامومة» وبخاصة اذا كان المـولـود ذكـراً: لمـاذا؟ لانها بحصولها على مولود ذكر تشعر بمسـاواتهـا للرجـال. ولكن هؤلاء النسـاء غالبـاً ما يبقين امهات متسلطات يرفضن الاعتراف بانوثتهن. . . أما التربية التي يتبعونها فغالباً ما تؤدي الى نتائج كوارثية. . .

٢ ـ لنفترض الحالة التالية الكثيرة الشيوع:



لنفترض ان هذا الاب اصبح متخنثاً على أثر عقدة أوديب انه يعتقد بكرهه للنساء ولكنه يخشاهم في الواقع. وهو يخشاهم لانه يشعر بالنقص تجاههم وغير قادر على تحقيق رجولته الذكورية. وفي كثير من الحالات فان هذا الكره المزعوم للنساء ينتقل الى ابنته هو. ولا شعورياً ستحاول هذه الطفلة كل ما في وسعها كي لا تكون امرأة.

* وسيحاول هو ان يجعلها ذكورية وسيفُتن أمام اي فعل «ذكوري» تقوم به ابنته. ويتفاخر بقوة ابنته وتفوقها في الرياضة وبعضلاتها وبانتصاب قامتها.. وسيكون شديد الفرح اذا ما اتخذت ابنته «عملاً رجالياً» أو كانت لها عضلات رجولية مفتولة.. الخ وعندما تتربى البنت على هذه الشاكلة فانها تصبح قريبة من الرجل ذهنياً. وغالباً ما يثير ظهور علامات الانوثة ضيقها الشديد. وفي بعض الحالات قد تختفي العادة الشهرية! وندرك جيداً اذاً القلق النفسي الدائم الذي يتولد بسبب اتجاهين

متعارضين:

أ - الرغبة العميقة بالانوثة

ب - رفض الانوثة عن طريق التربية العائلية.

وعندما تصل هذه الفتاة الى مرحلة البلوغ فانها ستدفع غالباً ثمن اتجاهاتها المتناقضة! وقبل كل شيء في ذاتها هي (حيث ستتعرض للضيق النفسي والرهاب والامراض والعُصاب) وبالمحيطين بها فيما بعد. وستظهر واثقة من نفسها وهي في ذكوريتها غير ان الشعور بالمعاناة والشعور العميق بالنقص سيلازمانها الى الأبد.. وهناك اسباب اخرى بالتأكيد قد تتسبب في ذكورية المرأة. والسبب الاكثر شيوعاً هو: أب شديد التسلط يحتقر ابنته باستمرار معرضاً اياها للحرمان والانتقاص الى الدرجة التي يظهر فيها الحقد لدى ابنته. وهكذا تنقل هذا الحقد الى الرجال بطريقتين محتملتين:

أ - انها ترفض الخضوع للرجال الذين تحتقرهم وهي ترفض بذلك الانوثة وتصبح مسترجلة. وهي في تنافس عدائي ومستمر مع الرجال. وعندما تتزوج فانها ستكون باردة جنسياً. ولكنها اذا ما رزقت بصبي فانها ستفعل كل ما في وسعها لتأنيثه.

ب - تبقى على انوثتها لكنها ترفض الخضوع للرجال. وتتجه حينئذ نحو الامرأة الذكورية التي ستلعب بالنسبة لها دور الرجل

وستكون حينئذ الامرأة السحاقية.

لم أذكر سوى بعض المواقف المختارة بين الحالات الاكثر شيوعاً. وهناك الكثير غيرها. هل مسموح ان نعطي حكماً عندما نرى قوة البنى اللاشعورية؟

● عقدة قائين

وهي العقدة الاكثر بساطة من الجميع وهذه العقدة تتولد عندما يعتقد الطفل انه فقد مكانه الوحيد من العطف لدى والديه أي عند ولادة طفل ثاني. وقد يتصرف الطفل احياناً بكراهية شديدة نحو أخيه الصغير. غير ان كل شيء يعتمد بالتأكيد على الظروف وعلى تصرف الوالدين وهذه العقدة (طبيعية جداً عندما تنتهي) تظهر غالباً في احلام ورسوم الاطفال.

حلم جاك (عشر سنوات)

جاك يسير مع والديه في سهل واسع والشمس مشرقة. وفجأة يرى نهراً صغيراً تنحني أمامه الام لتلتقط دمية منه. وتستدير والدته نحوه ثم تطارده. جاك يرمي نفسه على الدمية وينتزعها من بين يدي والدته ويرميها في الماء. هذا الحلم سهل جداً. هذه الدمية التي سحبت خارج النهر تمثل اخاه الصغير. وهو يتصرف «بقتله» لشقيقه (وذلك برميه الى الماء) وفي الحلم تطارد الام جاك، غير ان هذه الام ذكية لانها لم تحاول قط ان تشعر جاك بالحرمان أمام

اخيه الصغير. هذا الحلم يوضح جيداً رد فعل لاشعوري غير مرتبط اطلاقاً بتصرف الام. وهذه العقدة تفسر نفسها من خلال اسمها! حيث يمثل الطفل الآخر منافساً (لاشعورياً) بالنسبة لاخيه الاكبر.

وهذا يترجم على السطح بالعدوانية والاستهزاء والمنافسة الحادة والنزاعات والكراهية والحقد احياناً، هذه العقدة قد تنتهي او تصبح عصاباً يمثل مشاعر النقص والذنب والضعف والعدائية.

وانتهاء هذه العقدة يعتمد بدرجة كبيرة على الاهل وعلى استعداد الطفل وساتحدث عن ذلك مجدداً عندما اتناول «مشاعر النقص» وهذه العقدة تتحول غالباً عندما يقوم الاخ الكبير بحماية اخيه الاصغر وهكذا يصبح الاخ الاصغر ناقصاً تجاه الاخ الاكبر الذي يظل يحتفظ بدوره الاساس بالنسبة لوالديه. . وتستمر هذه اللعبة الصغيرة. . لان كل شيء سيدور حول تفادي حصول الشعور بالاحتقار والضعف وهذه المرة لدى الطفل الاصغر. .

ويجب اعتبار هذه العقد الثلاثة طبيعية عند ظهورها. ويستند تطورها بدرجة كبيرة الى المناخ العائلي. فعقدة اوديب مثلاً تنتهي بسرعة اذا كان الصبي يعيش بين أب ذو رجولة معتادة وأم ذات انوثة طبيعية. ولكن هذه العقدة قد تستمر اذا كان الاب ضعيفاً وكانت الام متسلطة كما سبق وان رأينا.

وقد تنتهي هذه العقدة ايضاً عن طريق الكبت. فالصبي الذي يمتلك دوافع عدوانية تجاه أخيه الاصغر سيكبت هذه الدوافع. وحسب الظروف قد يكون هذا الكبت طبيعياً أو يتحول الى عُصاب (يختلف بالشدة والفترة).

والنضج قد يعاق فيما بعد حيث سيظهر الخجل والعدوانية والضيق النفسي والهرب المؤقت. وبعض الاضطرابات قد تصل لغاية الجنوح.

ونلاحظ اكثر فاكثر كم يعتمد مستقبل الطفل على الحلول المقدمة لهذه العقدة الاعتيادية في حد ذاتها والتي تتطلب حلاً متناسقاً معها.

العلاج الخاص بالتحليل النفسي

يكون الشخص مستلقياً (على اريكة مثلاً) وفي أقصى حالة ممكنة من الاسترخاء. ويجلس المحلل النفسي خلف المريض كي لا يسترعي انتباهه. وحينذاك يطلب من المريض ان «يترك دماغه يدور» «ويُخرج» كل ما يحضر الى ذهنه، ولا ينبغي على المريض (أبداً) البحث عن «الترتيب» في افكاره ولا عن ربطها بشكل منطقي. ينبغي ان يقول كل شيء في اللحظة التي يفكر فيها. انها ضرب من «السريالية الذهنية». وندرك ايضاً في البداية ان الهدوء والتردد لايمكن تجنبهما لان الشخص يصارع غالباً ما

يحضره اضافة لاخلاقيته الشخصية. لكن ينبغي على المريض ان يعرف ان المحلل النفسي حيادي ولن يُصدم لما سيسمعه لانه يعتبره طبيعياً واعتيادياً جداً كالاكل والشرب.

ان إعطاء أي حكم معنوي لا يؤثر على المحلل النفسي وإلا سيشبه الجرّاح الذي يرتجف عند رؤيته جرحاً. وشيئاً فشيئاً يظهر معنى للاحاديث المفككة عن تاريخ المرض والطفولة والوالدين والكبت والغرائز الجنسية والتجارب المتعبة والنشاط الجنسي. ويكون كل هذا ممتزجاً بردود فعل متعددة الاشكال من تردد وعدوانية وهدوء طويل.

وعند اللحظة المناسبة يتدخل المحلل النفسي. ويبدأ التفسير عما يُقال. وبطبيعة الحال ينبغي ان يكون المحلل النفسي طبيباً نفسياً متمرساً في المعاشرة الانسانية! ان التحليل النفسي غالباً ما يكون متعباً بالنسبة للمريض انه قعر البحيرة الذي يطفو على السطح، وامام شخص مريض قلق أو ساخط يكون الدفء الانساني المكثف ضرورياً وكذلك الموضوعية الصارمة.

ومع ذلك فان علاج التحليل النفسي يتطلب بعض الشروط.

■ السن. ينبغي ان يتراوح العمر وبشكل مثالي بين الخامسة عشرة والخامسة والاربعين. إذ يحتفظ الشخص ايضاً ببعض المرونة وهذه ضرورية في هذا النوع من العلاج. ومع ذلك فان

السن ليس بتضاد مطلق قط إذ يمكن الحصول على نتائج جيدة جداً مع اشخاص كبار واذكياء.

■ الذكاء. ان الذكاء المتوسط هو أقل ما مطلوب. لكن ينبغي ايضاً ان يحظى المريض بـ «انا» عاقلة قادرة على فهم العلاج والتعاون من اجل نجاحه.

■ عدم الاستعجال. ان التحليل النفسي (لا يتوجه الى التدخلات النفسية التي ينبغي ان تمارس سريعاً جداً. ومع ذلك فبعد العلاج السريع (مثلاً تحليل اللاوعي بطريقة التخدير والصدمة الكهربائية الخ) يمكن ممارسة التحليل النفسي وتكون له فوائد كبيرة.

■ مدة الاستغراق وقدم العُصاب. كلما كان العُصاب قديماً كلما توجب على المحلل النفسي التوغل الى اعمق الاعماق. وفي الحقيقة، تنتظم الملايين من الارتدادات حول المرض في البداية وتدور كل حياة المريض حول عقد نفسية لاواعية: افكاره وتصوراته وبقاؤه ومهنته وزواجه وطريقة تربية اطفاله، الخ وبهذا ندرك الحذر اللامتناهي للمحلل النفسي في هذا المجال. ان الاجزاء اللاواعية التي تطفو على سطح الوعي توضح غالباً للمريض انه ليس على ما يعتقد هو عليه. والمراد هنا إذن معالجته من دون فقدان توازن حياته ولا حياة الاشخاص الذين

يحيطـون به. ويجب ان يأخـذ المحلل النفسي بعين الاعتبار اذن وعلى الدوام ليس فقط بالشخص نفسه بل ايضاً بكل الاشخاص الـذي هو على علاقـة وطيـدة بهم. ونـدرك انـه اذا اقـام شخص زواجـه على عقـدة نفسيـة لاواعية فالمطلوب هو استئصال العقدة النفسيـة دون فسـخ الزواج. انها اذن لمسؤولية جسيمة تلك التي تقع على عاتق المحلل النفسي.

وفضـلاً عن ذلـك، فانني اكـرر ما قلتـه آنفـاً: يمكن ان يتـوجـه التحليل النفسي الى الاشخاص المتوازنين. ان التحليل النفسي مدرسـة انسـانيـة كبيرة من الوضوح والفهم والادراك. ولقد أعطى التـدريب البسيـط والنظـري على التحليـل النفسي الابتـدائي الفـرصـة للكثيـر من الابـاء لفهم ولاعادة الجو العائلي الصحي. وفـي الـكثيـر من الحـالات، لا ينبغي على المحلل النفسي ان يندفع الى آخر خندق.

كمـا يسمـح التحليـل النفسي للجميـع بفهم الحركة البشرية الكبيـرة التي تحـدث كل يوم وبـالمقابل وفي اغلب الاحيان قبول الاخرين وحبهم.

ان القوة مرتكزة على الضعف الفريد آدلر (١٨٧٠-١٩٣٧)

آدلر هو أحد طلبة فرويد الاوائل من بين اخرين، واصبح طبيباً في سن الخـامسـة والعشـرين وفي عام ١٩٠٧ نشـر دراسـة حول

الشعور بالنقص العضوي وتأثيره على النفس.

وفي عام ١٩١١ أسس آدلر مدرسة نفسية فريدةولم يهتم كثيراً بتربية الاطفال الصعبين وحصل منذ عام ١٩٣٢ على كرسي الاستاذية لعلم النفس الطبي في نيويورك، كما ابعدته تصوراته عن فرويد.

الشعور بالنقص

تبدأ عظمة الانسان عندما يبدأ برؤية نفسه كما هي عليه.

في الوقت الذي بنى فيه فرويد امبراطوريته على اللاوعي وعلى الجنس، اسس آدلر امبراطوريته على ارضية اخرى: الشعور بالنقص. ويقول آدلر ان كل عُصاب* متسبب عن شعور بالنقص ويكون من ثم العصاب شعوراً دائمياً بالنقص.

ما هو الشعور بالنقص؟

انني لا اتحدث هنا عن الشعور بالنقص الطبيعي. يشعر الطالب الشاب امام مدرسه انه أقل منه في الخبرة وفي المعرفة. وهذا طبيعي ووقتي. ويشعر الطفل بالنقص تجاه والده. وكذلك

---

* سيدرس العُصاب في الفصل الخامس.

الحال بالنسبة للانسان امام قوى الطبيعة. كما يشعر عازف البيانو المبتدىء بالنقص تجاه محترف كبير.

متى يصبح الشعور بالنقص حالة مرضية؟

نأخذ على سبيل المثال: هذا العازف الشاب للبيانو هل هو أقل من المهارة الكبيرة؟ نعم، بما انه يحظى بمهارة أقل من الشخص الآخر، كما يشعر منذ البداية بهذا النقص المحدد البيانو. ثم ان هذا الشعور بالنقص الطبيعي لا يسبب لديه ابداً اية عدوانية أو احتقار. وسيكون لدى هذا العازف الشاب انطباع انه يعرف اقل ومعارفه أقل من الآخر. لكنه لن يمتلك الشعور المؤكد بانه أقل من الآخر لان هذا هو الشعور الحقيقي بالنقص.

ويهذا يصبح هذا الشخص مريضاً ويتطور مرضه الى عُصاب عندما يسبب المعاناة والخجل والقلق والخوف والعدوانية والحاجة المعذبةلتجاوز الآخرين وتوجيه الاوامر واحتقار الآخرين الخ، ويصبح الشعور بالنقص لكل الشخصية امام اي واحد وفي كل حالة. انه حينذاك «موقف ذهني» يكون احياناً واعياً وغالباً لا واعٍ لكنه يتحكم في جميع افعال الشخص الذي يصاب به.

ما هو الحل الشائع

ان صفتنا الانسانية تكمن في تجنب المعاناة والبحث عن

السلام الذهني ولا سيما الاشخاص المصابين بالشعور بالنقص.
ويعاني هؤلاء الاشخاص من شعور قوي بعدم الامان والخوف وبالعجز وبما ان هؤلاء الاشخاص يعانون فانهم يبحثون عن حل. وهذا منطقي، إذ يفعل كل شخص الشيء عينه! ويذهب هؤلاء الاشخاص للبحث عن شيء ما يحد المعاناة المتسببة عن الشعور بالعجز.

ماذا يفعل الخجول الذي يخاف؟ يصبح عدوانياً. وكذلك يحث الشخص الذي يعاني من الشعور بالنقص عن التفوق، واذا عانى الشخص من شعور بالعجز فانه يبحث عن القوة، واذا شعر انه خاضع فيعمل على السيطرة على الآخرين، الخ هذه هي ميكانيكية التعويض. واتمكن من القول ايضاً ان التعويض ينقذ الحياة النفسية من هذا النوع من العُصابات. ان الشعور بالتفوق وبالقوة يقلل من القلق المتسبب عن الشعور بالنقص والعجز ويسمح هذا الشعور هكذا بالعيش على حلول التسوية. وعلى اية حال فان هذه التعويضات لا تلغ ابداً الشعور بالنقص لكنها تغطيها فقط بغطاء من الاوهام.

وهكذا وفي الحياة اليومية يحقق هؤلاء الكثير من الاشياء الكبيرة بسبب شعورهم بالنقص. ونوشك على الاعتقاد (كما قلت آنفاً) بان هؤلاء الاشخاص تجاوزوا هذا الشعور؟ ابداً. انه

الشعـور بالنقص الـذي فجّـر بحثهم عن التفـوق (بحث لا واعٍ غالبـاً). واذا كنـا نعـاني من شعـورنـا بالضعف واذا كنـا مذلولين ومحرومين فنحن نرغب سراً بالاعتقاد باننا اقوياء.

وكـافـة المستبـدون والمسيطـرون والتسلطيـون هم في هذه الحالة. وتكون حاجة السيطرة والتفوق دائماً عُصابية.

بغية فهم الامور بشكل أفضل

سيتساءل الكثيرون: «لكن أنا... هل انني عُصابي أم لا»؟ امام بعض الاعمال التي سأذكرها.

سآخذ مثالاً: أفصح لي كاتب كبير. «ان الاعجاب الذي يكن لي لا ابالي به قط!..»

وسوف اشير لثلاث حالات ممكنة لهذا الموقف.

ـ ١ ـ

سيكـون عدم المبـالاة هذا حقيقيـاً (ظـاهرياً وداخلياً) اذا كان هذا الكـاتب متـوازن، واضـح وذكي. سيكـون حينـذاك متكامل بنفسه، ولا تكون له حاجة لاعجاب الآخرين للايمان بقدرته. ان رد فعله اعتيادي ويتوافق مع الحقيقة.

ـ ٢ ـ

أفتـرض ان هذا الكـاتب يخضع لشعور بالنقص. وعلى الرغم

من موهبته فانه يخاف من أن يكون الهدف أو ان يحتمي به. انه يخاف من عدم تمكنه من تقديم ما ينتظره الاخرون منه. «ويلعب» لعبة اللامبالاة ازاء الاعجاب. ويهرب من الاخرين ويعطي لنفسه اسباباً مهدئة والتي يعتقد بها بغية عدم الاحساس بهذا الخوف وبهذا الهروب، ولا مبالاته هذه هي تعويض ورد فعله غير الطبيعي.

-٣-

يمكن ان تكون لديه حاجة للظهور «متكاملاً» ومنفصلاً عن كل هذه الهراءات التي يعرف القليل عن قيمتها! من خلال الشعور بالنقص. كذلك، فانه يدعم اعجاب الآخرين «بتواضعه» ويحتاج الى هذا الاعجاب ليشعر بالامان. ويعطي لنفسه اسباباً واعية لا تتفق ابداً مع الواقع وهذا رد فعل غير طبيعي. انه استكمالي اذن عُصابي.

نري اذن جيداً الفرق بين رد الفعل الطبيعي ورد فعل العُصاب. ان رد الفعل الطبيعي حقيقي! ولا يتطابق ما له علاقة بالعُصاب مع الحقيقة الداخلية. وهو كالقشرة التي تغطي الجرح كي تمنع تقيحه.

بعض الامثلة من بين آلاف.

يمكن ان يكـون العمل اللطيف (لحسن الحظ!) حقيقياً. لكنه احيـانـاً علامـة على العُصـاب. وأفتـرض وجود شـخص قلق جداً عاداه الآخـرين. ويشعـر انـه مذنب وغيـر مرتـاح ومهموم، الخ. وبغية تجنب العدائية سيكون هذا الشخص حينذاك مهذباً ولطيفاً وودوداً لا يجرؤ على رفض اي شيء.

يمكن ان تكـون الـوقـاحة اعتيادية ويقصد منها آنذاك بالتجرد وبـالارتيـاح المتسببين عن قوة داخلية. متى تصبح داخلية؟ عندما «يلعب» الشخص في الوقاحة دون ان يدرك ذلك من جانب آخر، ويهرب هكذا من القلق المتسبب عن الشعور بالنقص.

- تكـون الثقـافـة الواسعة جداً طبيعية جداً. لكنها احياناً دلالة على عصـــاب: اذا عوضت عن التحقيـر مثـلاً. ويكفي ان نذكـر حالة جاكلين في بداية كتابنا هذا.

- ان الاستقامة عمل رائع لكنها قد تكون عُصابية.

مثـال: هذا الشخص مستقيـم لكنـه يرغب في اللاوعي في ان نعـرف هذا، ويقـوم هذا الشخص بمنـاورات ليتأكد الآخرون من استقـامتـه ووضوحه ومن اجل ان يأتمن اسرارهم واموالهم، الخ. وان يخـوضهـا من جانب آخر بالكامل. ويحصل هكذا الشخص على الاعجاب والمحبة والثقة التي يحتاج اليها نفسياً.

ـ ان يكـون «الـرجل عظيماً» فهذا طبيعي . . . على الرغم من ندرتـه. مع الاسف! لكن ان يصبح الشخص رجلاً عظيماً يمكن ان يكون تعويض عن شعور بالنقص يمنح شعور القوة والهيمنة.

وبهذا نرى ان التحليل هو الوسيلة الوحيدة التي نمتلكها للقول اذا كان الشعـور أو العمـل عُصـابيـاً أو لا! ويدور العُصابي بسبب العقـد النفسيـة دومـاً حول النقـاط التالية: الحاجة للهيمنة وللقوة وللمقـدرة وللتفـوق ولـلاعجـاب. وتنجم هذه الحاجات إذن عن شعـور بالعجـز وبـالضعف. إذن، فهذا العصابي يفعل كل شيء من اجل ان يعيق كل ما يشبه الضعف بالنسبة له.

مثلاً:

ـ يرفض «بعنف» قبول نصيحة.

ـ يمتلك روح التناقض واحياناً تكون فظة وفورية مثل العادات المستهجنة.

ـ يرفض «بفخر» أقل دعم نقترحه عليه.

ـ يريد ان يبني حياته بنفسه «بدون اية مساعدة من اي شخص بغية ان لا يلتزم تجاه اي شخص وان يحتفظ برأسه عالياً».

ـ يرفض ان يكون على غير حق.

ـ لا يتحمل اي نقد كان. . . الخ

لمـاذا؟ إن كل هذه الافعـال هي مع ذلـك اعتيـاديـة! لكنهـا بالنسبـة له استسـلام وضعف. مذا يقول هذا العصابي؟ انه ليس

بالضعيف لقبول نصائح! ينبغي ان يقول: «بما انني ضعيف، فانني غير قادر على الاقرار بان شخص آخر اكثر قوة وأكثر تجربة مني».

يريد هؤلاء العُصابيون بدون وعي ان يكون بقية الاشخاص على صورتهم. (هذا مأساوي عندما يكون شعور الاباء تجاه اطفالهم). ولا يتنازلون داخلياً ابداً ويفرضون الطاعة على من يحيطهم من خلال بعض الوسائل مهما كانت (لنتذكر الاشخاص المنهكين).

وتظهر عدائيتهم المتعجرفة من دون مناسبة. إذ يعاني العُصابي من عدوانية مكبوتة اذا جعلناه يتظر، وتقول بداخله المشاعر المبهمة: . . . . انا لست من الاشخاص الذين يجبرون على الانتظار ولي الحق بالاحترام والتقدير اكثر من هذا». وسيرانو دو بيجراك* هو نموذج للعُصابي من هذا النوع (بين ملايين آخرين) وتنجم عجرفتهم المرضية عن تشويه جسمي وبهذا كان سيرانو متوازن منذ البداية لتركه انفه الكبير لا مبالياً بالمرة!

العُصاب وتعويضاته

تسبب التعويضات احياناً انجازات نافعة جداً على الصعيد

---

* كاتب مقالات وفيلسوف فرنسي وكاتب كوميديا وتراجيديا.

الاجتماعي.

مثال: يعوض الطفل المذلول لفترة طويلة بهدف الأخذ بالثأر والتفوق ويستطيع ان يصبح هكذا مهندساً كبيراً أو طبيباً مشهوراً ومحامياً معروفاً، الخ. لكنه يبقى تعيساً بداخله بما ان التعويض لن يخفي ابداً الشعور بالنقص! وعلى الرغم من كل شيء، فانه يشعر ان عالمه الداخلي غير موجود. وكما اشرت من قبل فان التعويضات تأخذ غالباً صيغة التسلطية المخفية.

مثال: يحبّ هؤلاء العُصابيون توجيه النصائح وهم بحاجة لتقديم التوجيهات. ويحدث عندهم شعور بالمقدرة والقوة والتكامل، ولهم شعور بان يكونوا «المسؤول» الذي يُحتَرم ويُعْجَب به.

- يعاني هؤلاء من التعليم والتدريس (لنفس السبب).
- يعانون من الحاجة للتوجيه.
- يعانون اذن من الحاجة لمساعدة الآخرين ولنجدتهم وان يكونوا السند ويشعرون انهم محتقرين وعدائيين إذا لم يُشار اليهم بالبنان.

ومن الواضح جداً ان جميع هذه الافعال غير طبيعية لان هؤلاء العُصابيون يبحثون فيها عن التفوق. إذن، فهي أمان ضد شعورهم بالنقص في دواخلهم.

ولا يتصـوورون انهم مكـافئين لشخص ما آو بالاحـرى انهم يشعـرون انهم دونيين أويتصـورون انفسهم متفـوقين. إذا شعر عُصـابي «معـوض» بالنقص فانـه يفعـل كل شيء للدهشـة والاعجـاب به من قبـل معـارفه لذكائه وقابلياته في التفكير وللطفه ودفئه الانساني الخ.

وبالطبع فانهم يكونوا متعطشين للحظوة! قالت لي امرأة مصابة بالـعـصـاب في يوم ما ونـحـن نتحـدث عن دراسـات في علم الاجتمـاع التي انجـزتهـا بشكـل معمق جداً: «... اعرف الان الكثيـر من الاشيـاء... لكن هذه الدراسات اضعفتني...» وقد يصـبـح هذا التحقق طبيعيـاً لدى الشخص الطبيعي. لكن ماذا يحصل عند المصابة بالعُصاب من هذا النوع؟ لقد درست كثيراً، هذه المسألـة الاعتيـاديـة(حيث الشعـور بالتفـوق)وضعفت هذه المـريضـة (شعـرت بالنقص من اجل ان تتفوق. بما ان الضعف الفكري مرغوب دوماً... مثل شهيد العلم إذا صح القول...!).

حالـة أخـرى: يريد عُصابي بسبب شعور بالنقص النجاح من الوهلة الاولى. وهويحتاج فوراً للتأليف مثل بتهوفن وللتمثيل مثل موليير والكتـابـة مثـل جيـرادو. ويـريد ان تكون محاولاته ناجحة جداً! واذا قلنا له: «... هذا حسن، لكن ينبغي عليك ان تفعل اكثـر..» فانـه يشعـر بالانهيار. وكان عنده طموح مغالٍ فيه ليس

عن يقين بالاقتدار لكن عن شعور عميق بالعجز.

حالـة أخـرى: يتـراجـع العُصـابيون امام الصراع ويعلنون ان «هذا لا يهمهم» وانهم فوق المستوى. . الخ.

سأتطرق فيما بعد الى سائق السيارة من هذه الزاوية.

تعقيدات العُصاب

ان ردود فعـل العصـابيـون معقـدة جداً على الدوام: وهذا طبيعي بمـا انـه هنـاك دومـاً خليـط من مشـاعـر النقص والتفوق! لنتناول مثلاً حالة عُصابي له حاجة ماسة للاستقلال المطلق. . . لكنـه في نفس الـوقت بحـاجـة لان يكـون غيـر مستقـل ومحمي ومحتـاج الى رعـايـة باستمـرار. الـخ ونشـاهد فوراً مزيج مكبوت لبعض ردود الفعـل المتنـاقضـة! ويجب ان يتم التقاط هذه الردود والحركات والايماءات والاحاديث بسرعة لكي تُحلل وتفهم جيداً وهذه ليست دوماً بالمهمة اليسيرة.

رياضة السيارات والعُصاب

يلجأ هؤلاء العصـابيـون الى المظـاهـر الخـارجيـة لتفوق مثير للشفقة كالمال والمراكز الكبيرة والابهة والسيارات الخ. ويبدو ان ريـاضـة السيـارات تجسد هذه المشاعر بالنقص المرضية. هناك الملايين من سواق السيارات الذين لا يتحملون اجتيازهم من قبل

الآخـرين. انـه رد فعـل عُصـابي محظ! وبالنسبةلهم، فان عملية اجتيـازه من قبـل الآخرين تعني «انه يشعر بالنقص» وهذا يفترض ان يتماثلوا مع سياراتهم! . . . وتصبح قوة سياراتهم قوة لهم. هل ينبغي ان يكون شعورهم بالنقص كبير للوصول الى هذا . . .

وهؤلاء العُصابيون لا يفكرون: «لقد تم اجتياز سيارتي من قبل اخـرى»، لكن «تم اجتيـازي من قبل آخر!» ومن جانب آخر فمن الممتع مراقبة سائق سيارة الذي يعاني من شعور بالنقص. ويكون هذا بالطبع في حالة من العدائية والمنافسة المرضية وبشكل عام فانـه يتصـرف بطـريقتين: امـا العـدوانية أو الهروب. ان عُصاب العـدوانيـة وهـذا معـروف جداً في ريـاضـة السيارات فيتمثل في غضب أحمق وردود فعـل جافـة واهـانـات وسخريات وتجاوزات الـخ. امـا بالنسبـة الى الهرب فانه يتنكر غالباً في الاهانة المزيفة والاحترام المزيف للميكانيكية، الخ.

مثال:

ـ يقـول سائق السيـارة العُصـابي والـذي أخفق في تشغيـل سيـارتـه: «أنـا؟ . . ليست عنـدي الرغبة لأتلف ماكنتي . . أضيع نقـودي بغية توفير ثانيتين؟ أليس هذا بفعل أحمق!!!» (انه لايفكر في الكلمة الاولى لكنه يسعى لتبرير نقصه، في نظر الاخرين . .).

ـ اذا لم تكن سيارته قوية فانه يقول ان «عداد السرعة يؤثر خطأ بعد سرعة (٨٠) كم وانه يؤشر خطأ وينبغي عليه ان يصلحه. . . » واذا اعتقد انه أخفق فيقول. . انه يرغب بالتنزه» من اجل ان لا يتمكن الاخرون من الاستهزاء منه واعتباره ضعفاً، الخ أو ان يسوق بيد واحدة باللامبالاة المزيفة وهو يصفر صفيراً خفيفاً. . .

والمقصود هنا هو ردود فعل تعطي هدوئاً داخلياً. ويحاول ان يشعر بالمرح والهدوء والوضوح خارجاً عن هذه «المنافسة الحمقاء». ان هذه الاقوال لا تتوافق بالطبع ابداً مع احساسه الداخلي المتهيج.

ويتصرف هؤلاء العُصابيون بعدائية اذا انتقدنا قوة سياراتهم وهم الذين يخلطون ذلك مع قواهم الذاتية! اذا تمكنا من حذف مشاعر النقص عند الملايين من سائقي السيارات فان عدد الحوادث سينخفض الى النصف! لاننا سنمنع هكذا المنافسة العدائية بين العُصابين الذين لا يقرون بعجزهم قط.

التربية والشعور بالنقص

تظهر مشاعر النقص منذ نعومة الاظفار، وهي طبيعية جداً اذ يشعر كل طفل حائراً وعاجزاً امام القوى التي تحيطه ويكون صغيراً وضعيفاً ويجهل العالم الذي يحيطه ويكن له احساساً غامضاً. هل نتصور كم تبدو له الاشياء التي تحيط به ضخمة؟

ولهذا السبب فان كل طفل. يبحث قبل كل شيء عن الطمأنينة. وينبغي ان يشعر انه مُسند ومدعوم وليس مُسيطراً عليه أويعامل كشيء. وشيئاً فشيئاً تتضح شخصيته وتظهر «اناه» ويبدأ بالبحث عن الطمأنينة في داخله. ويحاول بكل قواه ويصبح عفوياً. إذن ينبغي ان تتيح له التربية بتخفيف الثقة بالنفس باقصى سرعة ممكنة. ان التربية المثالية تنصب على حذف مشاعر النقص في أسرع وقت وتوجيه الطفل نحو الثقة بقيمته الذاتية، لان نواة العُصاب تظهر اذا بقيت مشاعر النقص لصيقة به وتغزو الشخصية باكملها في السنوات التالية. وتكون حينذاك عقدة تنضج كنبات الفطر السام وتخنق الشخصية الحقيقية وتقود اغلب الافعال والافكار.

والحال ان الحقيقة غامضة الى حد ما! هذا كل ما يحطم عفويته ايضاً.

وكل شيء يستند بالطبع الى الذهن الذي تكون فيه التربية.

ومع الاسف، يعزز الكثير من التربويين مشاعر النقص، ويكفي فقط التفكير بالعدد الهائل من الاشخاص التسلطين، اذن فهم عصابيون ونمسك بهذا المفتاح عدد لا يحصى من العصابين. انها حلقة غير متناهية من التربويين العصابيين، ويصبح المتربين بدورهم كذلك. ان التسلطي يقوي بالطبع

مشـاعـر النقص حتى بالنسبـة للطفـل السليم. ويكفي ايضـاً ان نتذكر الاشخاص المنهكين لنقتنع!

ينبغي ان نرى الاشيـاء كمـا هي. ان المـربي الذي يعاني من الشعــور بالنقص هو في حاجـة لان يحمــل طفله هذا الشعــور بالنقص. كمـا يكـون بحـاجة لكي لا يمتلك طفله حياة شخصية عفوية، انه بحاجة الى ضعف الطفل لتوثيق مشاعر الهيمنة التي تعطيه احساساً بالقوة.

ويعـرف كل طبيب نفسي أحـد الاسبـاب الرئيسيـة للعُصاب البـالـغ: هناك الكثير من الاباء الذين يهيمنون على اطفالهم. ان الحـالـة الاكثـر شيـوعاً وخطورة هي حالة الام المهيمنة (عُصابية) وابنهـا. بمـا ان هذه المـرأة بحـاجة الى السيطرة فينبغي ان تمنع ابنهـا من ان يصبـح ذو شخصيـة ورجـولي. انهـا اذن بحاجة الى ضعف ابنهـا. لكن كمـا هو في الغالب تختفي هذه الهيمنة تحت مظاهر «المثالية» كيف تريد ان تخرج من هذا؟ كيف الخروج اذا كانت هذه الأم العُصابية.. أم بالمعنى الصحيح..؟

يجب ان يتـدخـل علم النفس بما ان هذا الشخص غير مدرك ابداً لتعويضاته التي تسبب له الماً كبيراً!...

واتنـاول مثـالاً آخـر تطـرقنا اليه في التحليل النفسي. لنفترض أب عُصـابي يخـاف النسـاء. ويتصـور اذن انـه «يحتقـر» ويكـره

النسـاء. فاذا كانت له ابنـة، ماذا سيحـدث! سيحـول «كـراهية» النساء الى ابنته ويحرمها ويحتقرها ويحط من مشاعرها.

لكني ارغب غالبـاً مواجهـة حالة التعويض التي تظهر في صيغ الكمـال بمـا ان هذا الاب «يحتقر» النساء، فانه سيفعل كل شيء ليمنع ابنته من ان تصبح امرأة. وهذا بدون وعي! وبغية منعها من ان تصبـح امـرأة، ينبغي عليـه ان يجعلهـا رجـوليـة اي مسترجلة فيعمل اذن لان تسرح شعرها على طريقة الرجال وان ترتدي هذه المـلابس وهـذا الحذاء وهذه جميعها تمنعها من ان يكون عندها اتجـاه انثوي. ويدفع ابنته لتقوم بمهمات رجولية ورياضية لتطوير قوتها البدنية. كل هذا حسن وجيد... لكن ما هي الاسباب التي سيعطيها في اللاوعي؟ سيدعي انه فعل هذا «لصالح ابنته» وبهذه الطريقة فانها تستطيع ان تسلك طريقها دون وجوب الاعتماد على الـرجال.. ومن خلال هذه التربية سيكون لها عضلات واعصاب قويـة. وستتمكن من الحصـول على مهنة... ولن تصبح فريسة للرجال الخ الخ.

يبـدو اذن ان هذا الـرجـل «هـو الـذي يدفـع الثمن باهظاً» وله اسباباً مبررة لاسيما واننا نرى ان الحقيقة في الصميم موجودة في النقائص!

فقـدان الحنـاز

ان فقدان الحنان يفجر بالضرورة مشاعر النقص (الكبت) عند الطفل كما هو الحال بالنسبة للمراهق. متى يكون هناك نقص في الحنان؟ عندما يحتقر أحد الابوين طفله أويسيطر عليه أويقلل من شأنـه علانيـة وطـوعيـاً. وفي هذه الحـالـة نعرف تماماً بأي شيء يتمسـك الطفـل ايضاً. ويحدث هذا في وضح النهار واستطيع ان اقول. . . لكن توجد حالات اخرى اكثر جدية واكثر «نفاذاً» بعض الشيء. واتنـاول حالـة هذا الاب الذي تطرقت اليه قبل قليل. إذ يعطي هذا الاب لابنته كل العلامات الخارجية للحنان والاهتمام هل يعود هذا الحنان المرئي الى وجدانية حقيقية؟ كلا ان اتجاهه الاكيد هو الخوف والكراهية من النسـاء. . . وحتى الابنة.

واتنـاول الان حالــة أم تسلطيـة ومهيمنـة. إذ ترعى هذه الام طفلهـا وستكـون «أم جيدة ولطيفة» كما سيدفعها الحلم ايضاً لان تعـوق ابنهـا عن انجـاز عمـل اعتيادي أو قبيح. . . بان تفعل هذا بدلاً عنــه. وتأخــذ هذه الام المسؤوليـات على عاتقهـا بدلاً عن طفلهـا ونـلاحظ ان هذه الام تغمر طفلها بالحنان وهي مقتنعة من انهـا تفعـل هذا «لصالح الطفل». لكن. . . هل هذا هو الحنان الحقيقي؟ كلا، ابـداً، تعتقـد هذه الام انـه يحب طفله بالذات. لكنهـا مخطئـة. لان هذه الام عُصـابيـة وتمتلك شعـوراً بالمقدرة

والمنعـة التي تجـدهـا في السيطرة. اذن يوجد هنا حنان مزيف لا يخطأ فيـه طفـل أو مراهق قط! ويشعرون تماماً ايضاً ان شيئاً ما لا يسيـر على ما يرام. . . وازاء هذه السيطـرة المتكلفـة يتصـرفـون هؤلاء بعدوانية داخلية عنيفة لكن ايضاً بشعور بالنقص وعدم الاطمئنان.

وهكـذا تسيـر الميكـانيكية النفسية ببطء شديد ثم تدفع ومن دون شفقة الطفل اكثر فاكثر نحو العُصاب.

هل يسبب الحرمان الشعور بالنقص ؟

ينبغي ان يكون السؤال هكذا: عند تربية الطفل، ما هو هدف التـربـويين؟ أريـد أن أقـول ما هو هدفهم البعيـد؟ ماذا سيكـون الهـدف البعيـد؟ سيكـون الهدف البعيد للشخص السليم الطفل نفسـه. وستكـون التـربية واضحة ودقيقة ويكون الشخص السليم قادر على رؤيـة خيـر الطفـل ونسيـان نفسـه، ومـاذا عن التـربوي العُصـابي؟ . . . اولاً، هل هو قادر على نسيـان نفسـه؟ كلا، حتى اذا تصـور انـه يفعله. لمـاذا؟ لان عُصـامـه يرغمـه على الدوران باستمـرار حول نفسـه باحثـاً عن تعويض يـسمح له بالعيش. وفي حالـة العصـابيين التسلطيين يتم العثور على النقيض. انه الطفل نفسـه. اذن سوف يمـوه العُصـابي فقـدانـه للوجـدانيـة الحقيقية

والصميمية ويبدي من بعد ان هدفه لصالح الطفل. وهذا سيسمح له بالسيطرة على الطفل وحرمانه والحط من قيمته طوال سنوات.

ان كل ما يحطم الارادة الشخصية للطفل يسبب شعوراً بالنقص اذا كان لهذا الطفل انطباع بتراجع قيمته الذاتية واذا عاقب شخص سليم طفله بشكل صحيح فليس هناك من شيء يدعو للخوف حينذاك يقول الطفل لنفسه: «. . . القانون هو القانون. .» وسيفكر في شيء آخر غير الشعور بالاحتقار. لكن هذا الشيء لا يحدث ايضاً عند الطفل المتربي على يد عُصابي. ولقد أشرت الى هذا بشكل كافٍ لان كل شيء فيه يتسابق على التقليل من الشعور بقيمته!

بعض الحالات الاخرى

توجد بالطبع سلسلة كاملة لانواع الحرمان والشعور بالنقص. هناك اشخاص ينقلون الى اطفالهم مخاوفهم المهووسة (اذن العصابية) اضافة الى الآباء المهيمنين. مثلاً: التوصيات المستمرة بشأن الاحتياط من الحوادث والحشرات والسقوط والميكروبات. . . توصيات مستمرة ومتكررة: «ارتدي ملابس صوفية، لانك ضعيف. . .» ـ إحذر من السقوط ـ من ايذاء نفسك ـ إحذر من الاخرين ـ انتبه لعينيك وليديك ولرجليك. . ،

واشياء اخرى! .

أو حالة هذه الام التسلطية التي تجبر ابنها على ارتداء ملابس معينة وخاصة في الشتاء والصيف . . . الى سن (٢٣)! والمقصود هنا تسلطية متكلفة يتحطم امامها كل تمرد كما لو كانت ضد جدار فولاذي . . . دهشة الخطيبة! . .

ولم اشر هنا الا الى بعض الامثلة البسيطة . إن هذه التوصيات المهووسة تنتهي بخلق شبكة من الانعكاسات المشروطة وتحطم الثقة التي ينبغي ان يمتلكها . واذا لم تتوقف هذه «النصائح» قط والتي تنجم عن خوف قلق فكيف تريدون ان يطور الطفل قوته الذاتية ولا يخاف هو نفسه في النهاية؟ وتظهر حينذاك مشاعر العجز والنقص .

وكما قلت فان الغيرة بين الاخوة والاخوات تسبب احياناً كراهية فظيعة ونقارن من جانب آخر غالباً قيمة هذا الطفل مع قيمة طفل آخر . مثلاً « . . . انظر أخاك ، خذ أخاك مثالاً ، انه ذكي ! . . . أو نكشف للطفل اننا نفضل الآخر أو ان ولادته لم يكن مرغوب فيها ! توشك مشاعر النقص هذه بالطبع ان تستمر الى سن البلوغ . كم من المرات التي اشعرنا فيها طفلة صغيرة باننا كنا نفضل صبياً . . . لكن وجودها حقيقة . . ! ان هذه الطريقة العبثية في ثقافتنا في اعتبار النساء اقل شأنا (نتساءل لماذا!) فرض على نصف شعوبنا التجديف في مشاعر النقص .

النساء والشعور بالنقص

تعاني اغلبية النساء من شعور بنقص مبرح وذلك لانهن لسن برجال. لماذا؟ لان ثقافتنا مبنية بالكامل على الرجولة ويقال عنها التفوق الرجولي. واصبح الرجل امبراطوراً على هذه الارض، وهو ليس بالدور المستبعد الذي يؤمن به! وخلال قرون كانت المرأة مرفوضة من المسؤوليات الخارجية وتركت لها وفي جميع الميادين وجدانيتها. وبالطبع أخذت حركة تحرير المرأة طريقها لكن لا يمكن اقتلاع الافكار المتوارثة بسرعةوفي حضارة كحضارتنا تحتل المرأة مكانة بسيطة جداً. ألا يعتبر غالباً ميلاد طفلة حدثاً خائباً؟ «ليس إلا فتاة!» انها دهشة مغيظة تصاحب ميلادها غالباً. وفي هذه الحالة هناك انانية شديدة من جانب الآباء الذين يرغبون بطفل لاشباع احتياجاتهم الداخلية. واذا كان ما يجول في خاطر الآباء. انها ليست الا فتاة! فمن المحتم ان يشعر الطفل بهذا ارادياً أو لا ارادياً.

والشعور بالنقص الخاص بالنساء يشكل جزءاً من حالة ذهنية تدعو للسخرية لكنها مترسخة الى حد كبير ألا يكون اذن أمراً طبيعياً ان تمتلك النساء ذاتياً شعور عميق بانهن أقل شأناً من الآخرين؟

هل يتوقف الشعور بالنقص لدى المرأة في مرحلة النضج؟

نعم، اذا كانت المرأة متوازنة جداً وحينذاك تقوم بدورها الانثوي بفرح ووضوح ساحر وللاسف فالتخلص من الشعور بالنقص لدى المرأة نادر جداً. ويبدو كل شيء ضدها: الكثير من الرجال، جميع القوانين وحتى قواعد اللغة حيث يقضي المذكر على المؤنث على الرغم من تغلب الاخير عدديا! واذا وجهنا السؤال لعدة نساء فانهن يجبن دوماً: «انا؟.. كم أردت ان أكون رجلاً..».

وهذا يعني انهن يمتلكن الرغبة بان يحظين بامتيازات كبيرة منحت فقط الى جنس الرجال. وفضلاً عن ذلك فانهن يمتلكن الرغبة في الحصول على الصفات التي (تبدو) رجولية وهذا يعني: الشجاعة والقوة والاستقلال وحق الاختيار، الخ والنساء اللواتي يحملن مشاعر النقص فمن الطبيعي إذن ان «تحتج» المرأة وتبحث عن تعويض ومن المنطقي ان تبحث عن رفض دورها كأمرأة، وان تتوجه الى الدور الرجولي. ان هذه الاعتراضات تنعكس في نوع المشية والملابس وتصفيفة الشعر والمنافسة الرياضية والمطالبات النسوية الخ الخ. وهكذا تدخل في منافسة عدوانية مع الرجل.

وللاسف يثير كل هذا السخرية لكننا بذلنا ما في وسعنا لتطويره ويمكن حينذاك طرح حلين على النساء اللواتي يعانين من الشعور

بالنقص الذي يرجع الى ادوارهن:

أ ـ الشعور بالعجز وبالخضوع.

ب ـ «الاحتجاج» التعويضات والمنافسة.

والنتيجة؟ يفكر الرجل: «انني لا احتمل ان أكون مجتازاً» أو «مأموراً» من قبل إمرأة!...» وتفكر المرأة: «.. آه، هكذا الامر!.. سوف أبين لهم قيمتي، انا! وسوف أبرهن لهم على انني لست أقل شأناً!»

ان الشعور بالنقص الانثوي هو إذن حالة ذهنية عامة. كم هو عدد الأباء الذين يرغبون بطفل «للمحافظة على اسمهم وعلى السلالة ومواصلة مهنتهم».

وها هي الانانية مرة أخرى! لكن من يقول: «المحافظة على الاسم «يعني ان يمتلك طفلاً»... ويخيب ظن هؤلاء الآباء بفضاعة إذا «كان الطفل بنتاً». ماذا يحدث احياناً؟ هذا الشيء العبثي: يرفض الأب ذهنياً ان يكون لديه بنت. إذن يحاول ان يكون عنده صبياً. ويعلمه السياقة «كرجل»! وكذلك انواع الرياضة وطريقة المشي وارتداء الملابس كصبي ويدفع ابنته لتقوم بواجبات رجولية... بماذا ستفكر اذن البنت؟ ان كل ما هو رجولي هو جيد وان كل ما هو انثوي ضعيف ومحتقر.

وتكون هكذا عند المرأة قناعة بانها أقل شأناً «لانها ليست الا

امـرأة». هل نتخيـل القـوة الخـارقة التي تحتاج هذه الفتاة الشابة لتجد دورها ثانية كامرأة؟

من هو المتفوق؟

من المضحـك جداً «مقـارنة» الجنسين. وفضلاً عن ذلك فان المقـارنـة تحصـل دوماً بفضل المعايير الرجولية. إذن: كل شيء مغلوط ومنذ نقطة البداية، انها جرس الانذار عينه اذا استطعنا قول ذلك.

مثـال: من الشـائـع التفكيـر في ان النساء لا يحظين بالنبوغ. لكن من يفكـر في هذا؟ الـرجـال، طبعـاً... والنسـاء ايضـاً من خلال شعورهن بالنقص. والحال ان تعريف النبوغ يقدم دوماً من قبـل الـرجـال! ينبغي عليهم ان يقولوا ان النساء لا يتمتعن بالنبوغ عينه الذي يتمتعون هم به، وهذا ما يستعيد آنفاً الحقيقة. ويتمتع كل انســان بنبـوغ خاص به ومن ثم تكـون الادوار متبنـاة بشكـل صحيـح. واذا امتلك الـرجـل نوع من التجـرد والتعليـل (عنـدمـا يحـدث له هذا) فالمـرأة تمتلك دومـاً تقـريبـاً النبوغ الطبيعي في ادراك الاشياء على حقيقتها وبعمق. وهذا ما يدعى «بالحدس الانثوي».

لكن أليس الرجل جديراً بهذه الوجدانية الصميمية؟ نادراً لانه أحاط وجدانيته بالعقل والمنطق.

ومن هذا «نقول» ان المرأة أقل «ذكاء» من الرجل، لكن ولمرة أخرى من يقول هذا؟ الرجل! ان الذكاء محدد من خلال معايير وضعها رجال.

ستكون الحقيقة إذن. لا تتمتع النسوة بالذكاء الذي يتمتع به الرجال. والحال ان للذكاء عند المرأة سلطة: «تتمسك» المرأة داخلياً بالاشخاص والاشياء كما ان المرأة وجدانية جداً وتساهم بسهولة في النظر الى الاشياء وبعمق. وهذا ما يعطيها غالباً اليقين للاحكام التي تتخذها حيث ينسج الرجال الاكثر ذكاء هذه للاحكام ببطىء شديد. ان اختلاف الجنسين ينتهي هكذا بطريقة عجيبة، إذا تطور الرجل باتجاه تجرد المنطق فان المرأة تتفتح في الاعماق. ألا تشبه المرأة الارض الام والماء؟.

الوسط العائلي والشعور بالنقص

ينبغي ان تكون القاعدة الكبرى على النحو التالي: ينبغي عليَّ أن أسهر كي يكون التقييم الذي يحمله طفلي عن نفسه متوازناً. واذا كان كذلك فينبغي ان أعمل على ان لا يتراجع هذا التقييم الذاتي ابداً».

اعتقد انني أشرت بما فيه الكفاية كم هو سهل تحقير الطفل. ولقد رأينا انه يوجد عدد كبير من «الاشخاص المنهكين»

والمهيمنين والتسلطيين، وهـذه الارضيـة نمـوذجية لظهور مشاعر النقص والعجـز والحـرمـان وكذلك يمكن ادراج انانية الآباء ايضـاً كأختيـار آخـر ضمن هذا الاطـار. ويـرغب الكثيـر من الآبـاء في «اعداد» الطفل على صورتهم ويرغبون في ان يكون سلوك الطفل متـوافقـاً مع إرادتهم الشخصيـة. وفي هذه الحـالـة (وهذا شائع) فانهم لا يقيمون وزناً ابداً للشخصية أو لعفوية الطفل التي تصبح كالعصا التي نقسمها الى نصفين.

● ان من يقول تربية يقول نقل القوة والتوازن، ولا نستطيع ان نعطي إلا ما نملكـه، وينبغي علينـا ان ننحني امام الآباء الذين لا يعتبـرون انفسهم اسيـاداً مطلقين لاطفـالهم والذين يحاولون قبل كل شيء ان يعرفوا انفسهم.

ألا ينبغي علينا ان نتعلم قبل ان نُعلم الآخرين؟

الوسط المدرسي

يُعـد الـوسـط المـدرسي مهماً جداً ايضاً بالنسبة للطفل. وهنا ايضـاً يدور نوع ثقـافتنـا غالبـاً حول التفوق البراق وفقدان التعاون والتفوق الاجتماعي والمالي! لنرى النتيجة إذن. في البداية وقبل كل شيء تتشكـل الـوحـدات ويرفض الضعفاء ويحتقر المـاكين الصغـار ويحتـرم الاغنيـاء ويعجب بهم. واذا استطـاع الافـراد المنفصلون ان يكـونـوا عُصـابيين فيمكن ان تكـون عليـه ايضـاً

مدارس كاملة. ويقصد حينذاك «بحالة ذهنية» التي توضحها على وجه الخصوص بعض المؤسسات. ولقد جمعت اسرار أليمة لرجال ونساء يالغين لم يتمكنوا من نسيان التحقيرات المشكوك فيها والتي يشعرون بها في هذه المؤسسات وندعوهم من خلال هذا بـ «النفاجين» في حين انهم «عُصابيين».

ويهذا يصبح الفقراء خُدام الاغنياء، ويقوم الفقراء والذين لم يحصلوا على استحقاقاتهم بخدمة الطلاب الاغنياء والموسورين وهذا ببساطة نوع من التمرد وهكذا يتشر التفوق المزيف الذي يقدمه المال بطريقة بشعة ويتوغل حينذاك الاطفال في آبار الشعور بالنقص ببطىء ليخرجوا في سن الرشد مليثين بالتعويضات. ويمكن حينذاك ان ينجم عن هذه التعويضات رجل كقاطع طريق كبير وتشير غالباً محاكم الجنايات الى نتائج انعدام الحنان وهذه التحقيرات وتجني ثقافتنا الاجتماعية حينذاك الكراهية التي بذرتها لا اكثر ولا أقل. ان القضاء على الاحتقار يمنح الحنان ويقضي على جرائم عديدة.

ويهزأ بعض التربويون العُصابيون في المؤسسات من فقر وعوز بعض الاطفال ومن مهن آبائهم ومن خجل الطفل ومن نطقهم، ويجري كل هذا امام صف يضحك نتيجة لهذه الاستهزاءات!

■ ان هؤلاء التربويون هم بالطبع مرضى ويقوم بعض التربويين

(كما قلت آنفاً) بممارسة الاستمناء امام الطفل. وهنا يوجد فقدان واضح جداً للذكاء وللحب ولا يكون اهمية لاي تعليق في هذه الحالة.

ان الطفل المحروم والذي يفتقر الى الحنان والثقة في نفسه هي أحد المشاكل الاكثر صعوبة. وتكون هذه مؤلمة جداً في وقتها وفي المستقبل من بعد. ويصبح الطفل المحتقر والمحروم على الارجح شخصاً عُصابياً ويبحث عن تعويضات في القوة وفي الهيمنة التي تخفي ألمه الداخلي. ويصبح بدوره ربما رب أسرة أو تربوي وتكون آنذاك سلسلة من دون نهاية والتي تكلمت عنها آنفاً.

علم النفس والشعور بالنقص

تظهر مشاعر النقص وكذلك الحاجة للتفوق من خلال آلاف اللمسات البسيطة الدقيقة التي تشكل بدورها لوحة كاملة. واحياناً يدرك العُصابي فجأة ان رد الفعل هذا غير «حقيقي». لكنه يرفض هذا الشعور فوراً وخاصة عندما تكون الافعال هي المقصودة والتي تجعله يصدق قوته وكماله. لماذا؟ لانه يخشى من رؤية نفسه كما هي عليه. إذن يحتقر نفسه ويكرهها. وحينذاك يلاحظ انه ليس على حق لانه لا يتمكن من عمل اي شيء. وفي هذه الحالة فان اي شخص قد يستطيع ان يبحث عن تعويضات.

وعلى ايـة حال فان ادراك هذه التعـويضـات قد ترعب العُصـابي ولنفتـرض انـه يقوم بافعال لطيفة ومؤدبة ولائقة وانه معروف بحسن سلوكه ونزاهته «وكذلك بالتضحية في سبيل الآخرين» إذن يصدق نفسـه ويعتقـد بهذه الصفات التي تخفي له جروحاً عميقة! ويقيم افعاله هذه على انها متماسكة.

ولنفتـرض الآن انـه يدرك فجأة ان هذا التمـاسـك ليس الا «سطحيـاً»؟ وانـه يعـرف بشكـل واضـح وبـدون استعداد ان هذه الصفـات تخفي مشـاعـر كبيـرة بالنقص ومشاعر العدائية والانانية والضعف والخـوف؟ ويتصـور نفسـه قوي ومطلق وطيب ومحبوب ويجد نفسه فجأة امام حُطام شخصه الذاتي وتنهار كل البنى في هاوية.

ماذا سيحصـل له؟ سينهـار هذا العُصابي ببساطة وتتحطم آلية الطمأنينة عنده.

■ ولهـذا السبب يكـون العُصابي غير قادر على مساعدة نفسه على الاقل في البداية. وينبغي ان يتدخل الطبيب النفسي ويكون العلاج النفسي احياناً مؤلماً لكنه ضروري جداً. ويجد العصابي نفسـه على الـصـعيـد النفسي ومن خلال علم النفس مجـرداً ومـرتعـداً. ويتخلص من بعض المـلابس البـراقـة الغيـر منجـزة باتقان. ويمنحه بعد ذلك علم النفس لباساً مريحاً ومضبوطاً على قياسه ليعطيه فرصة التطور من دون إزعاج أو قلق.

هل يوجد من هؤلاء العصابيين ممن يعانون من الشعور بالنقص؟ نعم هناك عشرات الملايين! هذا هو نوع ثقافتنا الذي هو السبب الرئيسي لان هذه الثقافة تبني الحياة على المنافسة على حساب الآخرين وعلى حساب التفوق الفردي الوضيع وعلى الهيمنة واللجوء الى القوة الخ. اذن فمن المحتم ان ينتشر هؤلاء العصابيون وترافقهم سلسلة طويلة من الآلام وحياة غير موفقة.

س. ج. يونج: السريالية والعودة الى الاصول

لا تكشفوا عن علمكم الكبير الا للحكماء... (جوته)

ان فكرة يونج بسيطة فهي مفتاح علم مساري لكن أيضاً مفتاح للعلاج النفسي المقتدر. ان فهم هذه الفكرة يتطلب شرطاً جائراً: عدم اعتقاد المرء انه مركز العالم! وعدم الاعتقاد ان حيازة العربة الانيقة والانارة الكهربائية يبعدنا نفسياً عن اجدادنا البعيدين. نترك الانسان المنهك بغية تناول الانسان - الانساني مع يونج. ويرى الانسان المعاصر نفسه فيه ثانية والمشابه له دوماً. وتتطلب افكار يونج ان نجد ثانية روح عميقة للطفل أو للشخص للبدائي. ومن جانب آخر فان العودة الى الاصول البدائية لا تعد انحطاطاً بل انبساطاً مدهشاً. وفي هذه الحالة سيكون كل شيء واضحاً ويكفي ان تترك الامور لتسير، وسوف نرى حينذاك ان اجدادنا م

يزالون خلف الباب مستعدين للدخول من دون ان يطرقوا! .

ويعــرف كل عالم نفسي ان الحلم الصبـاحي يُظهـر اشكـالاً للتعبيـر (صـور ورمـوز) تختلف عن ما هي عليه في الحلم الليلي ولقـد تنـاولنـا هذا فيما سبق والحال ان هذه الرموز للحلم متماثلة عند الاشخاص مهما كان الاختلاف بسبب اللغة أو التربية أو البلدان.

صور الانسان

ان بعض الكلمـات وبعض الصــور تحمــل المعنى نفســه لاشخـاص مختلفين لمـاذا؟ لمـاذا هذه الصورة وهذه الكلمة هل ستكـون لهما المعنى العميق عينه بالنسبة لشخص صيني كما هو الحــال بالـنسبــة الى شخص فرنسي مهمــا كانت ثقــافتهمــا ومستـويـاتهمـا؟ لمـاذا تمثـل خرافات كل عصر وكل جنس رموزاً متمـاثلة؟ الا يكون هناك «مخزناً» ذهنياً جماعياً يحمل الآثار لكل دمـاغ انسـاني عنـد الـولادة؟ ألا يمكننـا الـذهـاب أبعد من ذلك ونفترض وجود «وسط» ذهني خالص تسبح فيه الافكار الفردية*؟

---

* ماذا يقـول فرويـد؟ هذا لا يدهشـك الا اذا علمت ان السيدة المسؤولة عن المنزل تفهم السنسكريتية في الوقت الذي تعرف فيه عن فطنة انها ولدت في البوهيم ولم تدرس ابداً هذه اللغة. هذا هو تفسير ما ورد.

اللاوعي الجماعي

انه اذن لاوعي سامٍ والذي سيكون عينه لجميع الاشخاص.
لنرصد شخص يكون عنده العقل النقدي مقطوعاً لاي سبب كان (حلم صباحي، انفعال، الهام فني، رعدة متوسطة، بعض جلسات للتحليل النفسي، الخ). وسوف نتأكد حينذاك من شيء مثير، ويسير كل شيء كما لو ان الاشخاص العصريين يحملون في دواخلهم الذكريات الانفعالية لاجدادهم البعيدين.

وهكذا فان الشخص العصبري يستخدم الصور عينها والرموز العميقة عينها والتي تبدو نوعاً من الميراث الذهني للانسانية جميعاً من دون تمييز بسبب الثقافة أو الجنس.

ألا يكون عجيباً ان تتكرر بعض شخصيات الاساطير على وجه البسيطة باشكال متشابهة؟

ينبغي علينا دراسة الاديان والميثولوجيا والاساطير الشعبية والفولكلور بغية ايجادها على تفاوتها. لكنني لا اتحدث هنا الا عن علم النفس العملي. واتناول هذه الرموز اذن بهدف الشفاء. إذ تعود بنا هذه الى اعماق الانسان ومعانيها العظيمة. وبما ان حالة الوعي تنسينا هذه فلا تكون حينذاك موجودة بل انها في الظل

في خلفية اللاوعي*

الرموز

سأعرض الرموز بطريقة جافة من اجل ان تكون اكثر وضوحاً. وستتوضح بعد ذلك بعضها وسوف يجد كل فرد هذه الرموز في داخله سليمة منذ عشرات القرون.

١ ـ يمكن ان يكون الرمز علامة مادية تشير الى شيء مجرد أو غير موجود.

امثلة: الصولجان، شيء ملموس، سيكون رمزاً للملكية (تجرد). وسيكون المثلث الكامل رمزاً للاله.

وكذلك بالنسبة الى القفاز الذي تم نسيانه في مكان ما رمزاً لشخص غائب الخ.

هل يمكن ان تؤثر هذه الرموز؟ نعم. اذا كانت مثقلة بالانفعال. اذا كان هذا الشخص محبوباً أو مكروهاً سيكون هناك اسناد انفعالي على القفاز المنسي. وسيكتسب هذا القفاز اذن «سلطة» انفعالية. ويفجر حينذاك مشاعراً وانفعالاً. (امثلة تلف

---

* انظر ثانية الى مثال حلم جان. عاش في حلم الرموز الفعالة (المتعة الجنسية تقريباً) للسيف وللزنبقة. إذن هذه الرموز موجودة في داخله كما هي موجودة في داخل كل واحد منا.

القفاز اذا كان هذا الشخص مكروهاً، استعاضة اذا كان محبوباً).
يكون الرمز بدون انفعال من دون حياة ولا يحمل اية قيمة انسانية.
٢ ـ يمكن ان يقدم الرمز جزءاً للكل.
مثال: سيكون المخلب رمزاً للأسد.
٣ ـ يصبح الرمز حقيقة حية تحتفظ بسلطة حقيقية. انه أهمها جميعاً.
مثال عادي: بالنسبة للبعض يملك القط الاسود سلطة حقيقية خيرة أو شريرة.
سأتناول فقط الرموز الكبيرة المثقلة بالانفعال وسوف نرى قدرتها في العلاج النفسي.

كيف يولد الرمز

على الرغم من التقنيات الحديثة استطاع الانسان ان يتخلص بالكاد من البرد والجوع والخوف. ولقد عوضت الحياة العصرية مخاوف اجدادنا. لكن هذه المخاوف لم تلغ نهائياً! ويكفي وجود لاشيء حتى يجسد الانسان نفسه ثانية في هذه المخاوف القديمة.
ان الحياة هدف الانسان الحي اذن يعنون الانسان انفعاله الى:

١ ـ الى كل ما يعطي الحياة.

٢ ـ الى كل ما يسمح باستمرار الحياة.

كذلـك يوجـد جنسين وكان هناك وفي كل وقت مبدأين مهمين في العالم:

١ـ مبدأ ذكري الذي هو	فعال	مشع	مخصب	نافذ
٢ـ مبدأ انثوي الذي هو	غيرفعال	ممحي	مخصب	مخترق

وهذا منطقي وعلى صورة الرجل والمرأة.

لنتطرق الان الى الرموز الستة المهمة التي تتحكم بالانسانية جمعاء.

الرموز الذكورية الرئيسة

١ـ الشمس* (فعالة، مشعة، مخصبة)

٢ـ الأب (الدليل المنير والمشع)

٣ـ النار* (فعالة، مشعة، مرتبطة بالشمس).

٤ـ عضو التناسل الذكري (رمز الخصوبة، فعال، مخصب، نافذ)

---

* تحمل هاتين الكلمتين علامة التأنيث في اللغة العربية على عكس ما هوعليه الامر في اللغة الفرنسية، إذ تحملان علامة التذكير.

الرموز الانثوية الرئيسة

١ـ الارض (غير فعالة، مخصبة)

٢ ـ الماء (مخصب لكن غير فعال وممحي)

الشمس

لنضع رجلاً متحضراً خلال الليل في وسط غابة. نشاهد ان لهذا الرجل وبعد بضعة دقائق من المشاعر عينها لرجل يعود الى عشرات آلاف السنين وامام هذه المشاعر البدائية ستبدو له سيارته وجهاز التلفزيون في سخرية عبثية.

يجعل الليل من هذا الرجل وأمام نفسه وسط الطبيعة عدائياً وسيكون رد فعله كاجداده: سيخاف. ماذا سيتمنى قبل كل شيء؟ ان تشرق الشمس. ان شروق الشمس يحد من الرعب في الصباح الحقيقي أو الخيالي. وتنشر الشمس الضوء والحرارة والحياة والطمأنينة والجمال.

لنفترض الآن ان هذا الرجل يفقد تماماً عقليته العصرية ويصبح كالبدائي. ويوم بعد آخر سيرى «صعود» الشمس وليلة بعد أخرى ستتزل «الشمس» معلنة خوفه اليومي.

ويحل شيئاً فشيئاً الانفعال محل الرؤيا المادية للظاهرة المرتبط بها.

أ ـ يرى البدائي شروق الشمس ويختفي خوفه الانفعالي .

ب ـ ثم يقـوم البـدائي بعمـل تقـارب بين شروق الشمس و الحرارة ـ الضوء ـ اختفاء الخوف. ويصبح هذا التقارب اكثر فاكثر انفعالية .

جـ ـ تصبـح الشمس حقيقـة حيّـة «شخص» يسمـح بالضوء ـ الحرارة الطمأنينة .

د ـ تصبح الشمس إلهاً بحيث يصلي لها ويعبدها البدائي .

هـ ـ بمـا ان الشمس «تصعـد» الى السمـاء فان فكـرة الصعود البسيطة تفجر لدى الانسان شعوراً من الغبطة والفرح والضوء.

في ايامنا هذه

وهكـذا الحـال في ايـامنـا هذه. فاذا لا تعدّ الشمس إلهاً فانها تبقى رمـزاً انفعـاليـاً لمشـاعر الغبطة القوية . يمكن ان يعيش هذه التجربة كل انسان في كل يوم .

مثال: لنرى الاجابات على كلمة «صعود»

ها هي الآن الاجـابـات المقـارنـة بين الشمس والصعود. انها اجـوبـة معطـاة من قبـل اربع وعشرين شخصاً مختلفين ومنظمين حسب الشبه فيما بينهم .

الشمس

الضوء ـ الأمل ـ الثروة ـ الكمال الفضاء ـ الاله ـ الحياة ـ الجمال ـ القوة المجد ـ الفردوس ـ الغبطة ـ الأب ـ النار ـ الحب

الصعود

الضوء ـ الامل ـ الكمال ـ الفضاء الاله ـ الحياة ـ القوة ـ المجد ـ الفضاء ـ الفرح (الغبطة) الاب الازلي ـ الحياة ـ الجمال ـ الحب الازلي

ان مقارنة جواب بجواب غير مُجدٍ. لم أحصل قط على جواب واحد فقط لا يكون متفائلاً أو ايجابياً.

نتأكد إذن ان المشاعر عينها تظهر باستحضار الشمس والصعود وهذا عند اشخاص مختلفين.

ان هذين الرمزين مرتبطان بما هو مشرق وقوي. انهما مرتبطان بالحب لانه مرتبط بالنقاء وبالتكامل وبالله (الموجود في

«الاعلى»).

مثال: لا يأتي على لسان اي شخص القول: «كان ينزل الى الضوء. وسيُصدم كل شخص. لماذا؟ باستفسارنا لدى الاشخاص نحصل على الاجوبة التالية حسب درجة التفكير والذكاء:

- «النزول» الى الضوء؟... هذا لا يحدث «الصعود» الى الضوء.

- لان هذا لا يُقال. الضوء هو الى الاعلى.

- لا اعرف... لكن هذا يزعجني... كما لو كان شيئاً مخطوئاً تماماً... لا اعرف لماذا... يوجد شيء ما في داخلي يقول لي هذا.

- الضوء حسن فيما كان الى الاسفل أو الى الاعلى. لكن «الى الاسفل» لا يؤثر عليَّ، في حين ان «الصعود» الى الضوء يعطيني انطباعاً بالمعرفة وبالنقاوة. انه انطباع متعذر تحديده وأفترض ان كل العالم يحظى بالشعور عينه.

نضع الله، الفردوس، حب الله، الكمال، الخ «الى الاعلى» لماذا لا «الى الاسفل»؟

لقد «صعد» المسيح الى السماء. لماذا لم «ينزل» الى السماء؟ لان السماء الى «الاعلى»؟ لكن لماذا لا «الى الاسفل»؟

تفجر فكرة الصعود دوماً عند الشخص «المتحضر» مشاعر التنقية. لا تختلف مشاعر متسلقي الجبال والطيارين عن هذه. إذ يمنحهم الصعود شعور بالقوة وهذا أكيد. لكنهم يقولون على الخصوص: «عالياً، نشعر بالنقاء..»

ونلاحظ دوماً هذه المشاعر في الفنون وفي جلسات التحليل النفسي. «الصعود» و«الشمس» يمكن ان يؤديا الى مشاعر جنسية عامة وكذلك الى الحب وهذا منطقي الحب مرتبط بالتنقية والتجرد عن الذات.

نفهم إذن ان التحليل الجيد للاحلام يتطلب معرفة باللغة الرمزية وهذا يعني البدائية.

جلسة تحليل نفسي

مطلوب من السيدة (س) ان تقول «كل ما يجول بخاطرها» بعد تلفظ كلمة شمس. السيدة (س) تبلغ الثلاثين متوازنة جداً وذكية جداً وهي في حالة من الاسترخاء التام وعيناها مغلقتان في ظلام كامل.

-... ارى الشمس، عالية في السماء، محاطة بلهب أصفر وشبيهة بستائر من الضوء وتتجه هذه نحوي ببطىء مثلما يحدث في الاحلام. أصعد الى الاعلى في يُسر رائع ولدي انطباع انني فاقدة للوزن. اوه!... لكنني اشعر حقيقة بالصعود، انه انطباع

رائع من الاسترخاء. . . أقترب بهدوء من الشمس التي تكبر اكثر فاكثر. اللهب الذي يحيطها يبدو. . . كما قلت. . . دون شراسة، لدي انطباع انها حسنة وانها تحبني. . . أشعر الآن باللهب وهو يقبلني وارى خلف الشمس حديقة كبيرة مضاءة هادئة جداً مع كواكب من كل الالوان. وفي نهاية الحديقة، هناك باباً مضاءة مع شاب يمسك في يده سيفاً من النار وعندي انطباع انه يبتسم لي. . . انه شعور باختفاء الانسانية الشريرة». . . اشعر بانفعال حقيقي. . . لدي شعور انني أدخل الى ازلية من الضوء. . . أرى فجأة ابي. . . ها هو امامي. انه مشع تماماً ويمسك ايضاً سيفاً من الماس. . . ويمدني بمفتاح ذهبي كبير ويشير الي بالباب المضيئة. . . الذي ارى امامه اشخاصاً يرتدون البياض.

لنتوقف الى هنا. نرى ان تداعي الافكار الحرة هذه مليئة بالصور التي تحدثت عنها واكرر القول ان ثمانين بالمائة من الحالات تتكرر الصور عينها.

تقود كلمة الشمس وبانتظام الى: لهب - (صعود) - يُسر (تحرر من الذات) - حديقة منيرة، مع كواكب (صورة فردوس، مع كواكب باشكال هندسية كاملة) - باب مضيئة - شاب مع سيف من النار (يذكر برئيس الملائكة في الدين) - كما لو ان انسانيتي السيئة

تختفي (تنقية) ـ سرمدية الضوء (الله) ـ والدها (سوف نرى لماذا) ـ والدها مشرق ـ سيف من الماس (سيف = قوة، ماس = ثروة، وهي هنا ثروة روحية) ـ مفتاح ذهبي (الذي سيسمح لها بفتح باب النقاوة) ـ شخصيات ترتدي البياض (كمال، تنقية، ملائكة).

ان جميع صور هذا الحلم موجودة في الاساطير الانسانية وعلى الدوام. ومن المثير جداً ان نعثر على هذه الصور خلال جلسات التحليل النفسي والتي يكونها اشخاص مختلفون كلياً.

رمز مهم جداً: الأب

لقد رأينا فيما سبق كيف ان الفكرة تظهر في:

أ ـ الاجابات على كلمة «شمس».

ب ـ الاجابات على كلمة صعود.

جـ ـ الحلم الذي شاهدته السيدة (س) انطلاقاً من كلمة «شمس» ونعرف القول: «يمثل والدي بالنسبة لي شمساً» . . . كالشمس، والدي قوي ومشع. يقودني والدي كالشمس ويضيء لي الطريق كما يمنحني الطمأنينة».

انه لشيء مهم: الشمس هي الاب وهو الاخير بطل بالنسبة للطفل. ان الاب عبارة عن كيان مقتدر وعظيم. ومن جانب آخر فان الاطفال يفخرون بآبائهم، الخ. وبالنسبة للطفل يكون للأب

صفات تفوق قدرة البشر وموضع اعجاب شديد.

والحال ان الطفل لا يضع والده موضع الاعجاب لكنه يصنعه للاب بشكل عام! ويمثل الاب بالنسبة للطفل رمزاً حتى قبل ان يكون على هذا والده. ويفرض الطفل بشكل لا واعٍ ان يتوافق والده مع الرمز وتكون عنده القوة والمجد والعصمة من الخطأ والاشعاع. اذن يكون الدور العملي بالنسبة للأب صعب.

لانه ينبغي عليه ان يتوافق مع النظرة الرمزية للطفل. انه دور صعب، اذا لم يتوافق والده (لاي سبب كان) مع الرمز ويظهر لدى الطفل تناقض (يمكن ان يؤدي الى فقدان التوازن النفسي).

حالات: مهنة الاب غير مرموقة، الاب ضعيف، الاب مهيمن جداً، الاب غير متعلم، الاب غير محبوب، الاب فقير، الخ.

ان كل هذه الحالات الشائعة تجعل من الفكرة التي يكونها الطفل عن الاب بشكل عام عظيمة ومتفجرة وقوية وتتحطم هذه الفكرة امام ما هو عليه والده.

وبالتأكيد يمكن ان يصحح هذا. انها مسألة فطنة وذكاء وعلى الخصوص مسألة توازن.

حالات أخرى: بدأ مراهق بكراهية والده لان هذا الاخير سقط مريضاً. وتتفجر هذه الكراهية رغماً عنه ويعاني المراهق من مشاعر ندم كبيرة. ويقول ان «والده نزل عن المكانة الرمزية

المثالية». ينبغي ان يقول هنا ايضاً ان والده لا يتوافق مع رمزه الداخلي.

بما ان دور الاب رمزي وعملي في الوقت عينه لذا يكون هذا الدور أصعب الادوار. ومن الخطير ان تتم الرؤية عبر رمز قوي. وليس هناك قط من أب إله في العالم حتى اذا كان كذلك في عين طفله. ان كل أب انسان وليس إلا انسان وينبغي ان يتوجه ذكائه لما يعتبره طفله كرجل وكصديق وليس باله شمس.

النار

لقد كانت النار دوماً اداة لعبادة حقيقية. وفي ايامنا هذه ترتبط النار على وجه الخصوص بمشاعر الحب. نقول (دون ان نفكر فيما نقول). احترق من الوجد وقلبي مشتعل... الخ لماذا نمثل الحب المطلق (القلب الاقدس مثلاً) بشعلة مضيئة في مكان القلب؟ لماذا يُعلن عن الالعاب الاولمبية براكض يحمل شعلة؟

وفي نصب الجندي المجهول هناك شعلة ايضاً. وفي كل سنة نحرّك الشعلة «للمجهول» لماذا نوقد الشموع في عيد الميلاد.

لماذا نوقد شمعة امام تمثال معين؟

اذا قال شاب لخطيبته «قلبي مشتعل بالنار» فسيمر هذا الكلام

بالتأكيد كالرسالة عبر البريد. لماذا؟

ها هي الاجابات الشائعة بشكل عام على كلمة نار ومن قبل مائة شخص.

نار
ضياء، ضوء، حب، تنقية، حياة، شمس الله، طاقة، فكر، مجد، قوة، الخ

اذن يلتقي المعنى الصميمي للنار مع معنى الشمس أو الصعود. واذا استعرضنا ثانية الأجوبة السابقة سنكتشف ان هناك اجوبة مشتركة مثل: الضوء، الحب، المجد، الله، التنقية.. ماذا نقول بعد؟

وفي اللغات القديمة كانت كلمة النار مرادف للحياة وللضوء وللحب وللحيوية وللقوة (مقارنة مع الاجوبة الحديثة)!

ويعرف المحللين النفسانيين مثلاً كيف ان فكرة النار مرتبطة بالحب (يكفي ان نفكر بالصور الدينية وفي ألسنة النار «النازلة» على الرسل) الخ.

اذا اثارت النار الحب فهذا يعني انها يمكن ان تثير الجنس

بشكـل عام أوبشكـل خاص. لتخيل المعانقة «لبعض المتصوفة او الانعكاسات الذاتية للمحبين الملتهبين»!

ألا يكون كل هذا تسلية ممتعة اذا لم يعش الانسان على هذه الرموز والحال ان ما يحدث هو العكس! وفضلاً عن ذلك اذا نجمت هذه الرموز عن انفعالات لا واعية فيمكن ان تتفجر هذه بدورها.

انها حالة لهجات بعض الرسامين «الملهمين» الذين لا يفعلون غالباً الا على العثور على هذه الرموز الكبرى الموجودة في دواخلهم.

إذن هنـاك فئتين من الاشخـاص: هم الـذين يعيشـون على الرموز الكونية لكنهم يجهلونها على الرغم من ان هذه الرموز تحتكمهم.

والـذين يعرفونها يعيشون في اعماق اعماقهم ويكونون قادرين على استخدامها لمساعدة وفهم الاخرين وهؤلاء هم المطلعين.

النار ابنة الشمس

تبعث النـار كالشمس بالحرارة وبـالضـوء وتزيل الخوف وعند القدماء كانت النار تدعى: الاب، والنار الارضية: الابن.

وكـانت هنـاك مراسيم عديـدة وعلى الاخص تلك المتعلقة بالانقلاب الشتوي (وهو في ٢٥ كانون الاول) ويمجد الطقس في

هذه المناسبة ميلاد الطفل ـ النار.

وَاستمرت الديانة المسيحية على هذا التقليد الرائع. وبما ان المسيحيين لا يعرفون تاريخ ميلاد المسيح بالضبط لذا استمروا على مراسيم ميلاد الطفل ـ النار. وحُدِّد (٢٥) كانون الاول تاريخاً لميلاد المسيح. وكان المسيحيون يشعلون نيراناً كبيرة احتفالاً بهذه المناسبة وتذكرنا بهذه شموع عيد الميلاد الجميلة.

وبدلاً من ان يعود بالانسان كل هذا الى شيء بسيط، نرى انه يذكره وعلى وجه الخصوص بالقرون الماضية وبكل الاشخاص الذين عاشوا ويعيشون على هذه الارض.

عضو التناسل الذكري
(دليل الخصوبة والحياة)

لقد تعلق الانسان العادي وعلى الدوام بالحياة.

إذن كان من الطبيعي ان يتوله بكل ما يعطي الحياة وكل ما يتيح باستمرارها. واذا اجبنا ما يسمح بالحياة واستمرارها (الشمس مثلا) وبشكل فطري، فاننا نبحث عن الرمز المادي الذي يمثل الحياة نفسها.

والحال انه لا يمكن ان يكون هناك حياة بدون عضو التناسل الذكري. وتستند كل الحياة الى هذا العضو الذي أصبح مبدأ

ذكوري عام. وسوف نفهم بسهولة ان عبادة كونية استطاعت ان تتوطد بشكل مساوٍ لما هو الحال بالنسبة للشمس أو النار.

وكان عضو التناسل الذكري بالنسبة للبدائيين يمثل الحياة بفضل العملية الجنسية ونفهم جيداً ان هذه العملية تمثل هنا الحياة نفسها بطريقة سليمة تماماً وصافية وغريزية وطبيعية. ان عمل عضو التناسل الذكري لهو فعل خلاق، انه المبدأ الذكوري الفعّال المؤثر النافذ والمخصِّب.

وقد ساهمت الانحرافات العبثية المتوارثة في تقليص، وتلويث معناه. ونفهم: في عصرنا تسبب كلمة «الجنس» البسيطة في احمرار وجوه الناس! عند البدائيين كان الجنس فعلاً مقدساً معشوقاً لانه يمثل الحياة!

ها هي من جانب آخر بعض الاجابات على عضو التناسل الذكري اعطيت من قبل اشخاص عُصابيين اولاً أو من قبل ذوو نشاط جنسي زائف.

> عضو التناسل الذكري
>
> الجنس ـ . . . هذا يزعجني . . . ـ خطيئة ـ . . . انه عبث لكنه يخجلني . . . رجل، . . وانا اكره الرجال . . . ـ متعة ـ ظلمة ـ ينبغي علينا ان نتعلم كيفية التحدث عن هذا بشكل سليم. أتصور ذلك كما لو كان شيئاً محرماً لكنني ادركت ان التربية الجنسية غير صحيحة.

ثانياً من قبل اشخاص متوازنين بشكل سليم.

عضو التناسل الذكري

الحياة، الخليقة، استمرار الحياة - القوة الخصب، الحب، الكمال، عمود، شجرة

وأقول ثانية ان العملية الجنسية تعني رمزياً فعلاً مقدساً. وهذا ما هو سارٍ في يومنا هذا. وعند بعض الاقوام السليمة للغاية يكون العمل الجنسي عاماً احياناً ويعتبر طقس حياتي ويتزاوج بعض القرويين على الارض وقت البذر (رمز الخصب). وهذا ليس الا مثالاً إذ حظيً عضو التناسل الذكري على عبادة كونية.

كيف كانت (وكيف هي الان في الاحلام وفي الفنون) تصورات عضو التناسل الذكري؟ كل ما هو قوي وايجابي ومنتصب وعمودي.

مثال: اشجار (انظر الى الجواب على الشجرة) عمود، رماح (تصور الرقصات حيث تغرس الرماح رمزياً في حُفر في الارض). سيف (انظر ثانية الى حلم جان). مقطع العربة (انظر من بعد ذلك)، الخ.

لقد حظي عضو التناسل الذكري بتصورات معمارية عديدة

سواء أكانت بصيغة حقيقية أو بصيغة منمنمة.

لم يعد الجنس أداة عامة في الشعائر لكنه بقي رمزاً متأصلاً فينا. ان الجنس الحقيقي مرتبط فقط بالحياة نفسها بل بكل ما يجعله روحياً وليس من لا شيء إذ ان اساس العديد من العُصابات سببه نشاط جنسي غير صحيح.

الارض

ما هي التعابير الاكثر انتشاراً والمتعلقة بهذا الرمز الشائع؟

الارض المغذية ـ الارض الامومية ـ الارض الام.

فضلاً عن ذلك، الارض: مخصبة ـ سلبية ـ تعطي ثماراً

ومما يلفت الانتباه ان الربط الفكري بين الارض والمرأة موجود منذ الازمنة البعيدة! تعد الارض رمزاً انثوياً ومخصبة للغاية. ويقال «احشاء الارض حتى من دون تصور ما تعنيه مقارنتها مع إمرأة.

وفي العالم أجمع وفي كل الاوقات تذكرنا خصوبة الارض بالمرأة الثور الولود. وقد عملت الميثولوجيا الكونية من السماء ومن الارض زوجان الهيان.

وبالنتيجة: تخصب السماء الارض بواسطة المطر والارض المخصبة تسبب الوفرة. وتقارنُ نصوص هندوسية الزوج بالسماء

والـزوجـة بالارض وتعتقـد بعض الاقـوام ان الارض هي «بطن امومية» حيث يخرج الرجال.

ان امثلة الاعتقـاد في الارض الام يمكن انْ تذكـر الى مالا نهاية. أليس هذا مدهشاً.

ويغيـة ان تكـون الارض مخصبـة ينبغي ان تكون محروثة. إذ يمكن ان نتصور ما يمكن ان تتضمنه الحراثة والخصوبة. وهذا ما حدث في اساطير عديدة وفي الطقوس.

اذا كانت الارض كالمـرأة المخصبـة فان الادوات المخصصة لتخصيبهـا ينبغي ان تصبـح رمـوزاً لعضو التناسل الذكري؟ وهذا بالضبـط ما حدث ومحراث العـربـة هو أحـد رموز عضو التناسل الذكري الاكثر شيوعاً.

لقـد مثلت بعض العـربـات في الآداب صيغـة عضـو التنـاسـل الـذكـري ووجـد الشـاعـر بودلير لنفسه رمزاً ابدياً إذ وصف قبلات العشيق بعملية حفر الاخاديد بواسطة المحراث.

وفي بعض اللغـات تعني نفس الكلمـة: معـزقـة (اداة تقلب بهـا الارض) وقضيب. وتقـارن العـديـد من الاسـاطير الزوجة الشابة بخـط المحـراث المفتـوح بواسطـة سكة المحراث ويصور الهنود خط المحـراث بالمـرأة. وهنـاك العـديـد من البـدائيين الـذين «يخصبـون» الارض ويـرمون الخِرَزْ التي تمثل الاعضاء التناسلية

الذكرية في خطوط المحراث الخ .

ونعـرف كذلـك طقس لطيف عنـد الاستـراليين : إذ يرقصـون حول حفـرة في الارض تمثـل العضـو الانثـوي ويـزرعـون من ثم أعواداً (رموزاً لعضو التناسل الذكري) .

ان رمز الارض ـ الام المخصبة والوفيرة هو ذو منطق صارم وذو جمـاليـة كبيرة . ويبقى هذا الرمز من خلال قوته وسرمديته هو ايضاً في داخـل كل واحـد منـا ليظهـر ثانيـة على السطح تحت ظروف مختلفة كما هو الحال بالنسبة الى الرموز الاخرى.

قا ل لي اجنبي :

ـ ارغب في ان أدفن في ارض وطني .

ـ لماذا؟

ـ . . . لا اعرف . . . لدي انطباع انني سأجد أمي ثانية وسأنام فيها الى الأبد.

هذه بعض الـتصـورات لكلمـات تم الحصـول عليهـا من جلسات علم النفس ومن حوالي مائة شخص.

الارض
الثروة ـ الخصب ـ الوفرة ـ الطمأنينة ـ الموضع الام ـ الامومة ـ المخصبة ـ المرأة ـ البكر ـ سلبية

الماء

ان الماء رمز انفعالي قوي مهيمن منذ ملايين السنين. ويبدو الماء شائعاً في الاحلام الليلية وفي الادب والشعر والرسم والاغاني الخ. وها هي اجابات لتصورات عامة معطاة من قبل مائة وخمسون شخصاً على الماء وسوف نرى انه لم يتغير اي شيء.

الماء

يغطي ـ خصب ـ وفرة ـ قمح ـ هدوء تنصير ـ ماما ـ يرويني الى الابد ـ نقاء شباب دائم ـ تجدد

أسرد هذه الاجابات حسب الرموز:

١ ـ رمز الخصب: خصوبة، وفرة، قمح.

٢ ـ رمز الانوثة: ماما، غطاء، هدوء.

٣ ـ رمز التنقية: نقاء، تنصير

٤ ـ رمز التجدد: السرمدية ـ الارتواء الى الابد، التجدد.

والحقيقة ان الماء جمع دوماً هذه الرموز عند جميع شعوب الارض. ويكفي القليل من الحدس لفهمه.

الماء رمز الخصب والانوثة

تعطي المرأة المخصبة طفلاً كالارض المخصبة بالماء والتي تعطي الغزارة، وهذا يحدث من تلقاء نفسه. ومن جانب آخر نتذكر ان السماء والارض يشكلان زوجاً إلهياً. فمن الطبيعي اذن ان يكون الماء (المطر) الذي تبعثه السماء معبوداً كالاله الذي يمنع عقم الارض ـ الام ومن بين عشرات آلاف الشعوب عشق الروس إلهاً كان في الوقت نفسه الام والارض والرطوبة. ونعرف المنهل الموجود في اكسفورد الذي يشفي العقيمات. وهناك العديد من الينابيع التي يمكن ان تتحقق عندها الامنيات.

يقال في الادب: «الماء الامومي» يغلفه. «يشعر انه في الماء، كغاطس في ذراعي أم». وهناك العديد من الاشعار والاساطير التي تتحدث عن الماء كاله أو كأم. يتحدث الصينيون عن الماء كنموذج للحكمة، أليس هو نقياً ومتواضعاً ويتلائم بانسجام مع كافة الاشكال؟ كم هو عدد الاغنيات التي لم تكرس الى البحر، إلى الانهار والينابيع والمناهل الخ؟

ويكفي ان نتصور نهر السين! انه «محب» «يسجع» «امرأة» «زوجة» انه «يحتضن» باريس وهو «نزوي» و«متزين». تنضم هذه الاغنيات الرمزية الكبرى للماء وهذه الرمزية العميقة تؤشر الغريزة المتوارثة لكل واحد وتعمل على نجاحها.

ومن جانب آخر، يمكن ان يكون الماء رمزاً للخصب وللولادة. نذكر هنا بعض المعطيات المأخوذة عن ميركريا إيليا (تاريخ الاديان): في السومري كان الماء يعني ايضاً «المني» و«الحمل» و«الجيل». وفي ايامنا هذه وعند البدائيين يختلط الماء (في الخرافة) مع البذر الرجولي (المني). وفي جزيرة فاكوتا تذكر خرافة كيف ان فتاة شابة فقدت بكارتها لانها سمحت للمطر بان يلامس جسمها.

سوف نرى بعد بضعة أسطر حلماً لفتاة شابة ١٩٥٨ (تتناول هذه الخرافة بالضبط).

ان العلاقة بين خصب الارض وخصب المرأة هي اذن قوية جداً ومنطقية تماماً.

الماء رمز التجدد والتنقية

لقد حفلت الاساطير العالمية بصورة «الرجل المسن» الغاطس في الماء حيث يغطس ويخرج ثانية مكتسباً جسداً جديداً». هذه هي صورة التعميد ورمزه. ماذا تقول التقاليد؟ لقد ولد الكون في

الماء وقبل ان يخرج من المياه كان بدون شكل ولم يكن اساساً موجوداً. ويعني الغطس عودة الى العدم أما الطفو فيعني الولادة الثانية والتجدد والنقاء.

وعلى الارض يمثل الطوفان (الموجود في العديد من الاساطير) المعنى نفسه: العودة الى العدم لانسانية قديمة وميلاد عصر جديد. وسيغطس كل الابطال في البحر وتحوي الرحلات الجهنمية على معبر رافد أو رحلة تحت المحيط وغالباً ما تكون في بطن وحش.

ويكون مكان الموت غالباً في قارب وعلى ممر مائي. وتنقل العديد من القوارب ارواح الموتى الخ.

واخيراً يخرج الموتى من الماء منتصرين ومتجددين.

ومن ثم حكاية مناهل الفتوة والمناهل العجيبة والينابيع والانهار المقدسة والابار الطقسية الموجودة في عصرنا (وانهار وروافد فرنسا ذائعة الصيت في هذا المجال وعديدة جداً). وفي منطقة الكونواي يغطس الاطفال المرضى في آبار القديس ماندرون.

وفضلاً عن ذلك كانت التنقية بواسطة الماء موجودة منذ الازل ويقول إيزيشيل: سأذر عليكم ماء نقياً وستصبحون انقياء... والتعميد والغسل وذر الماء هي علامات حية دوماً.

والماء هو حقاً أحد الرموز الرائعة الموجودة في العالم.

استخدام الرموز في العلاج النفسي

هل بامكـانـنـا استخـدام الرموز لتفجير الانفعالات؟ انفعالات مضطربة مُشفية؟ اذا كانت الصورة الرمزية هي تعبير عن مشاعر، ألا يمكنـنـا ان نستخـدم صورة لتقودنا الى هذا الشعور؟ ألا يمكننا استعمالها لنصيغ ايحاء عميقاً؟

وهكـذا نصـل الى مرحلة جديـدة من العـلاج النفسي . انهـا مرحلة ممتعـة للغـايـة . ويمكن ان يكون لها فاعلية «عجيبة» حقاً سواء بالنسبة الى التحليل النفسي أم بالنسبة الى الشفاء .

الحلم اليقظ

منذ حوالي عشرين عاماً شهد روبرت دوسي تحت اشراف ي . كازالانت سيـاق «حلم متيقـظ» ولقـد دهش لغـزارة ولقـوة الصـور الحـاضـرة الى ذهن «الحـالم» وبـدأ دوسي فوراً بابحاث واوضح طريقة جديدة اضافت الكثير الى علم النفس .

ماذا تستخدم اذن هذه الطريقة؟

١ ـ الرمز لتحليل المرض .

٢ ـ القوة الديناميكية للرموز للتأثير على المريض .

٣ ـ تفعـل بحيث ان الـرمـز يصبـح حقيقة حية ومؤثرة (كما هو بالنسبة الى البدائيين) .

شروط هذه التنقية :

بمـا ان المـراد هو الحصـول أو العثـور على الجـوهـر الرمزي فينبغي ان يكون المريض مقطوعاً عن «ذهنه النقدي» لأقصى حد ممكن. إذن يكـون الاستـرخـاء العضلي والجسمي اسـاسيـاً. وتمكن ان تستخـدم تقنيـات عديـدة بهذا الصدد. وعلى اية حال سيكون المريض معزولاً وعلى قدر الامكان عن العالم الخارجي (ارتخاء وظلمة وعينين مغمضتين ألخ).

ومن ثم يمرر الشخص (تدريجياً) من حالة الوعي الطبيعي الى حالـة أخـرى: حالة حيث يمكن ان تتحرك فيها الفاعلية الرمزية. ويبقى بالطبـع الشخص واعيـاً. ويتمثـل الحلم اليقظ بشكل عام في «حـوار رمـزي» موجه. ويلعب عالم النفس من جانب آخر دور الـواخـز والمحلل: ومن جهة اخرى تكون المادة مزودة وبوفرة من قبل الشخص المريض.

وعلى سبيـل المثـال، ها هي ثلاث مقـاطـع قصيـرة جداً من جلسـات الحلم اليقظ.

- ١ -

جانين إمـرأة شابـة يبلغ عمـرهـا ثلاثـون عامـاً ومسترجلة وهي مدرسـة لمـادة الرياضيات ولا تعرف الكلمة الاولى للرمزية. يشير هذا المقطـع تمـامـاً الى ان الـلاوعي الـرمزي لا يهزأ بشغف من

«العقل الحسابي ١٩٥٨». وأكرر القول ان هذه «التنقية «العقل النقدي» - ينبغي ان يكون ملغياً على أعلى الدرجات والحالات الاكثر عبثية كما ينبغي ان يكون في امكانها الحضور من دون ان يصطدم المريض (كما يحدث في الحلم الليلي تماماً).

-.. أشعر انني أسبح ببطىء نحو شاطىء وكان هناك شيخاً مبتسماً يبدو لي لطيفاً جداً واستقبلني وقادني الى صخرة حيث ينبع ماء صافٍ جداً. ودفعني الشيخ الى هذا الينبوع من الماء وشعرت... بنقاء... عُدت الى الوراء وخرجت من الماء... ولاحظت انني حامل... وهذا شيء يقززني كما انني لا ارغب بطفل. ومسكني الشيخ من ذراعي واغطس رأسي في الماء الذي سبحت فيه.. وقال لي: «لا تخافي»... ونظر الى بطني مبتسماً وقال لي: «هذا حسن». انني حامل وبدأت بالغناء... وفي مكان الصخرة. أرى الآن شاباً ينفث الماء من فمه.

يمكن ان يكون هذا الحلم اليقظ مدهشاً.

لنعود الى رمزية الماء ونتأكد من التشابه العجيب مع الاساطير القديمة للخصب بواسطة الماء.

ويمكن ان تحلم آلاف النساء ومنذ ملايين السنين بالطريقة عينها التي حلمت بها جانين.

لنأخذ هذا الجزء من «الحلم اليقظ».

١ ـ يستقبل جانين شيخ ميتسم (حكمة، عفو، معرفة).

٢ ـ جانين مدفوعة الى ينبوع الماء على الصخرة. وتحظى جانين باحساس النقاء.

٣ ـ لاحظت جانين نفسها حاملاً. ها نحن الآن في صدد الرمزية للماء المخصب.

٤ ـ تشعر بالاشمئزاز من نفسها. هذا طبيعي لانها ترفض دورها كامرأة. وازاء حملها للاشياء يعني هذا انها تشعر بانها غير «نقية».

٥ـ يغطسها الشيخ في الماء (غطس = موت) يتبعه طفو تجدد ونقاء. تتوافق اقوال الشيخ مع رمز «التعميذ».

٦ ـ ما زالت جانين حامل. غيَّر هذا «النقاء» وجهة نظرها وبدأت تغني.

٧ ـ يظهر في مكان الصخرة شاب. ينفث هذا الشاب الماء من فمه.

وهذا لمرة أخرى رمز الماء المخصِّب، إذ تأتي الخصوبة من الرجل وتوافق عليها جانين.

ماذا حدث بعد ذلك؟ لقد اندهشت جانين كثيراً بحقيقة قبولها (في الحلم وفي خلال الايام التالية) بدور المرأة وبالخصب الذي نشأ عنه. ولقد أفاد العلاج النفسي من الاحساس العميق الذي

اعطاه هذا «الحلم اليقظ» واستمر العلاج على اساس قوة الرموز.

وتحررت بسرعة جانين من عقدها وقبلت بدور المرأة. وهي الان متزوجة وانثوية تماماً.

- ٢ -

الشخص المعني هنا مهندس واعزب ويبلغ من العمر اربعون عاماً. وبعد تقنيات الاسترخاء، دُعيَّ هذا الشخص لكي يقول الشيء الاول الذي يراه أويشعر به وسوف نرى ان «العقلاني» لا يستمر طويلاً هنا ايضاً.

١ - أشعر انني مضطجع. ومنطوياً كديك البندقية. ومن جانب آخر فان هذا الوضع هو الوحيد الذي يعطيني احساساً بالنعاس... ان صورة البيضة التي أجد نفسي فيها تحضر الى ذهني... وهذا شعور قوي جداً بحيث انني أشعر انني بداخل البيضة... في طمأنينة. ومع ذلك يبلغ عمري اربعون عاماً. أشعر بارتياح فيها.

هُنا يطلب منه ان يقول باي شيء يُقارن هذه البيضة، ولا يتأخر جوابه.

٢- بجنين (يشبه البيضة بجنين). هل انني خائف جداً من الحياة ومن مسؤولياتها؟ اشعر باستمرار تجاه العمال... وينبغي عليَّ ان اوجه لهم الاوامر... انه لشيء رائع هذا الشعور وهذه

الصورة لاختفائي كما لو انني لم أولد بعد.

وهنا يطلب منه الخروج من هذه «البيضة» بطريقة مهما كانت.

٣ ـ ،،، استرخي بغضب مفاجىء... تحطم كل شيء و... أشعر انني طافٍ فوق الماء على مساحة شاسعة منه مع شمس قوية صفراء جداً في القعر ويبدو كل شيء في صمت مخيف. لديَّ شعور غريب بالانتظار.

يطلب منه ان يعوم.

٤ ـ... أشعر انني أعوم ببطىء، بقوة، سأتوجه الى شاطىء وفجأة تتوقف حركتي ويعيقني مسلك يبدو أنه خرج من الماء وصعد الى السماء الى مالا نهاية. ان هذا الدرب لمشع والسماء مظلمة. أشعر انه يتوجب عليَّ ان أسلك هذا الدرب اذا رغبت في تغيير...

ما هي الرموز التي نجدها؟

١-صورة محددة للتعلق بأمه وبالعودة الى أمه. يقول هو نفسه: أشعر انني كالجنين (ضمنياً: في بطن امه).

وتسبب هذه الطفالة عنده من جانب آخر شعور بالنقص وخوف من المسؤوليات وتجاه انثوي وعزوبة وخوف من النساء وعدم امكانية ترك والدته والزواج مع تمرد ضد هذه الحالات من

الاشياء. (نلاحظ هنا انه في جلسة اخرى سيرى شيئاً مفزعاً ويكشف الوجه القاسي لامه).

٢ ـ شروحات شخصية لحالته.

٣ ـ رمز جميل ومألوف. ونفكر هنا في التقاليد: لقد تشكل العالم في الماء. اذن هناك صورة لميلاد شخصي جديد، «ميلاد جديد لحياة جديدة» ويقول هو نفسه «لدي انطباع لنوع من الانتظار».

ان رمز الماء متكرر في الحلم اليقظ: لان الكثير من الناس يرغبون «التغيير» ـ «الولادة الثانية» ـ «التنقية» ومن الطبيعي إذن ان يعود كل هذا الى رمز الماء.

٤ ـ يصل الى طريق «صاعد». ويقول «أشعر انه ينبغي عليّ ان أسلك هذا الدرب اذا اردت ان اتغير».

وهنا عندنا رمز الصعود ـ التنقية، التحرر من الذات (من جانب آخر يكون الدرب مشعاً ـ مضيئاً).

بأي شيء يكون الحلم المتيقظ ممتعاً؟

لنقارنه مع التحليل النفسي التقليدي. يستند التحليل النفسي الى حد ما الى فهم الشخص. ويستند الى فهم عُقده من اجل تصحيح طبعه. إلا اننا نعرف ان كل عمل انساني متسبب قبل كل شيء عن انفعال أو شعور وان هذا ليس له علاقة مع الذكاء أو

العقل. ان الذكاء شيء جوهري لفهم النفس لكن هذا لا يكفي. وهنا يكمل الحلم اليقظ بشكل حسن جداً التحليل النفسي. لماذا؟ لانه يعمل مباشرة في اللاوعي. كيف؟ باستخدام اللغة عينها وهذا يعني عن طريق الصور والرموز! هناك شيء ملحوظ يجب تسجيله في احلام اليقظة وهو الهدوء الذي تسببه بسرعة. وأحد نتائجه الاكثر شيوعاً: اختفاء الارق. ومن جانب آخر يظهر شعور بالتحرر لماذا؟ لان المريض يشعر انه يتصرف ويعيش حلمه حقيقة. ان العمل الناجح في الحلم اليقظ له ارتدادات فورية على السلوك الخارجي.

ـ ٣ ـ

هنا ايضاً مقطع قصير من حلم يقظ أدنه ايڤون وهي إمرأة شابة تبلغ من العمر ثلاثون عاماً ومتزوجة. تعاني من شعور كبير بالنقص وبالذنب وهذا مرتبط بعقدة اوديب*. باردة جنسياً لكن زوجها متفهم حالتها.

وكنقطة بداية اقترحنا عليها ان تشعر كما لو انها في بيتها في وضع عائلي:

---

* انظر الى «التحليل النفسي» و «عقدة اوديب» في الفهرست

١ -. . . أشعر انني في بيتي. . . انني اقرأ.

ـ ماذا تقرأين؟

٢ - اوه. . . كتاب عن القديس توماس داكان. أحب قبل كل شيء الاشياء الروحية. . . ارغب في ان أكون روحاً نقية. . .

ليس هناك اي تعليق أوسؤال من قبل المحلل النفسي. اقتراح جديد تشعر انها في منزلها:

٣ -. . . انني في الحالة نفسها، أقرأ. يقوم زوجي باجراء بعض الحسابات: وتلعب ابنتنا بالقرب منه، ويبدو كل شيء هادئاً كالمعتاد. .

ـ انهضي، وليكن لديك احساس بالتوجه نحو باب يطل على الخارج.

٤ -. . . اتوجه الى باب يطل على الحديقة، أفتحه وأخرج، ليس هناك من حديقة. . . أجد نفسي امام سهل يغمره ضوء القمر الى مالا نهاية.

٥ - أعود ببطء، انني خائفة. . . اختفى منزلي، كل شيء يتركني. يمتد السهل على مد البصر. . . لدي انطباع بالوحدة القاتلة. هل هذه أنا؟

ـ ليكن لديك انطباع بالتقدم نحو هذا السهل.

٦ -. . . انا. . . لا اجرؤ. ارغب في التعلق بشيء ما. . . أبحث عن زوجي، أوعن شخص ما. . . كلا، لا أجرؤ على

التقدم، ارغب في ان يظهر منزلي ثانية.

ـ ليكن في يدك سيفاً وتقدمي.

٧ - نعم... عندي سيفاً. أشعر انني أقوى، أتقدم. ويظهر أمامي فجأة حاجزاً مغلقاً وكبيراً. وخلفي هناك حشد كبير من الناس ينظر إليَّ... انني مرفوضة من قبل هؤلاء الناس الذين يرغبون باعاقتي عن العبور... لدي رغبة في الهرب... انا...

ـ فكري في سيفك.

٨ - أفتح الحاجز، انني خائفة لكنني أتقدم ببطيء. لدي انطباع ان هؤلاء الناس أقل تهديداً مما كنت اعتقده. ها أنا ارمي بسيفي!

وأستمر ويبتسم الناس إليَّ. لدي شعور بالهدوء في جسمي، هنا أقترح عليها ان تجد طريقة «للصعود».

٩ - أخرج من الحشد. لا أرى شيئاً الا السهل.. أشعر انني واثقة من نفسي اكثر. وعلى مسافة قريبة ارى شيئاً مضبباً وبدأ يتوضح... انه سُلَّم... معدني أو من الكريستال، لا أعلم... ويتسلل هذا الى السماء كالسهم ويوجه لي نداءاً للسعادة... لا استطيع ان أنظر اليه كهدف... اعتقد ان الكشف عن نفسي هو الى الاعلى، وارى منزلي في القمة وينبغي عليَّ ان أصل اليه بنفسي لكن بصورة أخرى.

الى ماذا يشير هذا المقطع؟

٢ - «أرغب بالحصـول على نفس نقيـة»: يشيـر هذا الارتداد الى ان روحيتها تعويض عن الشعور بالنقص.

٥ـ شعور بالهجر، مرتبط ايضاً بالشعور بالذنب.

٦- مشاعر الخوف. السيف، مصدر راحة وقوة ويزيل هذا الخوف.

٧ - الحاجز والحشد. شعور جديد بانها مرفوضة.

٨ - تتقدم. ترمي بسيفها بشكل عفوي وتعاني من الشعور بالتحرر.

٩ - تجيب «على الصعـود» بواسطـة رمـز السلم. وفي كافـة الاوقـات، يشيـر السلم الى «تغييـر في المستـوى» ورمزياً يسمح بالانتقـال من ما هو مادي الى ما هو روحي. وفي ايـامنـا هذه يرمز السلم بشكـل عام الى هذا التغييـر في المستـوى»: يصعـد ملك «درجـات العـرش» الذي يؤشر الانتقال من المادي (الشعب) الى الروحي (الملكية). وكذلك يصعد الكاهن درجات المذبح التي ترمز الى الانتقال من المادي (الارض) الى الروحي (الله) الخ.

وبصعود هذا السلم تشعر ايقون انها «ستغير مستواها» يعني ان تصبـح غيـر ما هي عليـه. ومن الجـدير بالملاحظة انها تعاني من المشاعر عينها التي كان يعاني منها المهندس كما ذكرنا آنفاً.

لمـاذا حلّ السلم ببسـاطة محل الدرب الصاعد الى الفضاء. كان قد صرح هو ايضـاً . أشعـر انـه ينبغي عليّ ان أسلك هذا الدرب اذا رغبت في التغيير.

النتائج الاضافية المكتسبة بواسطة طريقة الحلم المتيقظ

١ - تغييرات في العادات ـ هذا طبيعي بما ان العادات تأمرها الانفعـاليـة الـلاواعيـة . وفضـلاً عن هذا، يفـرض الكبت والعقد النفسية عدة عادات داخلية تظهر على السلوك الخارجي .

٢ - نمو الشخصية من جميع النواحي . يجدّ الشخص ثانية منابعه الغريزية ويتعلم العيش في اتحاد منسجم معها . (وهذا هو تمـامـاً عكس العقـد النفسية) . ان هذه الطريقة توفق بين الشعور واللاشعور وتحد من القلق المتسبب عن التمزق بين اتجاهات مختلفة .

٣ - اكتساب كفاءات جديدة مثل الانتباه والتركيز والوضوح .

٤ - تطور كبير للحدس وللخيال البنّاء .

٥ - معرفة بالقوة البديهية للانفعالية وتطبيقها في الحياة العملية .

٦ - زيادة الرغبة في العمل . ان لهذه الطريقة قيمة تربوية غير قابلة للنقاش عند الكبار والمراهقين على السواء .

تلخيص:

يتسبب كل رمز عن شعور انساني وعن انفعال عميق. ويستطيع كل رمز انفعالي بدوره تحفيز الشعور والفعل. وتشير التجارب النفسية (والفنية) جيداً كيف ان الرموز الكبيرة تعيش دوماً في اللاوعي لكل واحد منا. إلا انهم اذا عاشوا هذه الرموز. فانهم يفعلون. وتقطع «الحياة العصرية» الانسان عن طبيعته الكاملة، ومن هنا، يعتقد رجل المدينة ان الرموزميتة حيث اصبحت هذه تسليات بسيطة للذهن. لا شيء أكثر زيفاً... اصبح الرجل الحديث أكثر حزناً. لننظر اليه مع سيارته القوية والمترو واجهزة التلفزيون والسينما بالالوان والبنايات الخ. وعلى الرغم من كل هذا، يكفي غالباً ان تفجر اغنية بسيطة انفعالاته ودموعه. قوة الرجل الحديث! عن ماذا يحزن هذا الرجل؟ عن دوره الكامل كرجل مع رغبة جامحة ليجد انسانيته ثانية... وها هو تحت ظروف معينة إذ يطفو كل شيء على السطح: انفعالات ازاء الطبيعة، انفعالات «غير قابلة للشرح» عند سماع اغنية ساذجة، احلام ليلية تطول فترة تأثيرها، احلام والهامات... انفعالات «مضحكة» عند قراءة حكاية خرافية أو أسطورة قديمة...

إلا ان هذه الخرافات مليئة بالرموز الكونية. ولهذا السبب يتم تناقلها بسهولة عبر القرون في حين ان الاعمال الفنية «المتقنة» اختفت الى الأبد... والفضل يعود الى علم النفس المعمق

الـذي اتـاح الفـرصة للانسأن ليجد في نفسه ثانية الجنة المفقودة والتوافق المنسجم مع العالم! . . .

تحليل اللاوعي عن طريق التخدير ومصل الحقيقة

ان تحليل اللاوعي هو ما يشبه مقولة «الحقيقة في الخمر» على الطـريقـة الحـديثـة. انـه التحليـل النفسي المتحقق تحت أثـر التخـديـر (التخـديـر= التنـويم عن طريق وسـائل كيمياوية بينما التنويم المغناطيسي= تنويم بواسطة وسائل الطبيعة).

يتطلب علم النفس المعمق بالطبـع الـوصـول الى الـلاوعي والسـمـاح للاوعي هذا بالظهـور وذلـك للتحليـل والانسجـام مع الحياة الواعية.

ينصـب التحليـل عن طريق التخـديـر على اعداد هذه العملية بواسطة الطرق الكيمياوية:

أ- تحقق هذه العملية بسرعة حالة قريبة جداً من النوم.

ب- تترك هذه الطريقة الشخص قادراً على الاتصال مع العالم الخارجي.

وتحمـل هذه الطـريقـة اسمـاء أخـرى: ازالـة العقد النفسية بالتحليـل النفسي (انظـر الى هذا التعبير في «التحليل النفسي»،

التحليـل النفسي الكيميـاوي، التشخيص عن طريق التخـديـر والتركيب عن طريق التخدير).

ما هي الادوية المستخدمة؟

غالبـاً ما تكـون من المنومات البريتورية ذات المفعول السريع (پـونتـول رنيسـدونـال، اڤيپـان، تاركـو نومال، سيكونال، الخ).
وكذلك اعداد وريدي الى ان تظهر علامات ما قبل النوم.

وفي علم النفس لا يكون وخز الابرة اذن الا إعداداً للمريض.
و«تـرفـع» هذه الابـرة وتسمح للطبيب النفسي للبدء في العملية.
وهـذه العمليـة الفنية مستلهمة بصورة كبيرة من التحليل النفسي.
وفي الـواقـع. فان التحليـل النفسي عن طريق التخـديـر طريقة سريعة جداً للوصول الى حالة مثالية للعمل النفسي.

أ- تقـود الى السطـح المعطيـات المـوجـودة والمغمـورة في المنسيات (ذكريات الطفولة، الوسط العائلي، الكبت الخ).

ب- تسمح من بعد.ذلك في تجميع الظروف الداخلية وتنسيقها.

نقد لهذه الطريقة:

اذا كان الصـراع الداخلي ليس في العمق تماماً وليس قديماً، فان طريقـة التحليـل عن طريق التخـدير بالمواد الكيمياوية تشهد

نجاحاً مذهلاً. ولقد شاهدنا هذا خلال الحرب حيث ساعدت وبسرعة على الحد من الصدمات الانفعالية التي كان يعاني منها المقاتلون.

واذا كان الصراع عميقاً واذا كان هذا الصراع عُصاباً له أثره منذ زمن طويل فيمكن ان يكون هذا عقبة مهمة. ان تحليل اللاوعي عن طريق التخدير يوشك ان يكون له علامات وليس فقط على الطبقات العميقة (كالتنويم المغناطيسي) وعلى اية حال فانها يمكن ان تكون فنية جداً وممتعة جداً تسمح بالتقصي وبسرعة عن الاسباب الحقيقية للمرض النفسي.

مصل الحقيقة والشرطة:

هل نستطيع تطبيق تحليل اللاوعي عن طريق التخدير على مجرم؟

هل يمكننا استخدامه لمعرفة «القعر النفسي» للموقوف؟ والسؤال بالطبع خطير جداً ويمكن ان يكون له ارتدادات كبيرة. انها مشكلة حرية الفكر التي تقع في شباك اللعبة! وتتعدد الآراء كما تم التطرق ايضاً الى ممارسة التحليل النفسي عن طريق التخدير في الطب الشرعي.

■ تجاه المجرم: ان معرفة الظروف المحيطة (تربية، وسط عائلي، تحقير، شعور بالنقص، كبت) توضح بشكل أفضل بالطبع فعل المجرم ويسمح التحليل النفسي اذن بمعرفة نقاط الانطلاق النفسية للجانح. وبفضل هذه الطريقة، يمكن ان نجد متغيرات غامضة لا يسمح المنطق ابداً باكتشافها. وبالنسبة للجانح يوضح تحليل اللاوعي عن طريق التخدير فعله. ولا يعني التوضيح التبرئة. لكن الشرح الكامل للفعل الاجرامي يفهم غالباً اننا ازاء حالة مريض عقلي. وضمن هذا الاتجاه يساعد البنتول على تحديد درجة المسؤولية الجزائية. ولا ننسى ان بين المسؤولية التامة وعدم المسؤولية الكلية هناك سلسلة من عدم الشعور بالمسؤولية الجزئي. وفي هذه الحالات، يسمح احياناً استخدام علم النفس المعمق «بترويض» المجرم.

■ تجاه الشرطة - «ألا نتخوف (يقول البروفسور بيدليڤر) عندما نفتح الباب قليلاً - لانه ليس هناك إلا الخطوة الاولى التي تكلف - يكون لدينا ميل اكثر فاكثر لتطبيق أثر مادة البنتول؟ وينبغي ان تبقى العدالة في فرنسا صافية وترفض كل طرق العنف التي لا نزال نمارسها وعلى الاقل في بداية التحقيقات البوليسية.

ويدافع المذنب عن نفسه كما يُسمع: ويكون ذهنه متحرراً. ولا يمكن ان يمسك به أحد ويدافع عن نفسه كما هو: ذكي أم غبي،

محتـال أو صريـح. ولا يؤدي القسم ويمكن ان يكذب وتقع على عاتق القضاة مهمة تقييم ذلك في ضمائرهم المتحررة اضافة الى قدراتهم الانسانية امام قدرات الآخرين..

ويـنـدمـج هنـا اذن التحليـل عن طريق التخـديـر مع اختـراق للضمير. لكن التحليل النفسي واحد منها ايضاً بما انه يبحث عن الدوافع الحقيقية! واذا ذهبنا الى أبعد من هذا يمكن اعتبار ان اية ثقـة هي بمثـابـة خرق للضميـر وكـل شيء يستنـد إذن الى شيء واحد: قبول الشخص ورضاه.

ملخـص

ليس هنـاك ايـة مشكلة اذا كان الشـخص مقتنعـاً باللجـوء الى الـوسـائل المستخدمة والى الهدف المتبع انها بالطبع الحالة التي نستخـدمهـا في تحليـل الـلاوعي عن طريق التخـدير في العلاج النفسي الذي يهدف الى الشفاء فقط.

وفي الطب الشـرعي فان تطبيق تحليـــل الـلاوعي عن طريق التخـديـر يستنـد اذن الى ظروف عديـدة. فمن جانب آخر يسمح بتبـرئـة من هو مشكـوك فيه. ومن جانب آخر يمكن ان نخلط بين قاطع طريق والكذاب!

هل ان هذا الوغد حُر في الكذب، نعم أو لا؟ هل نستطيع ان نجبـــره على قول الحقيقـــة ضد إرادتـــه؟ ونـلاقي مشكلة حريـة

الضمير. ونذكر هنا قضية نورومبورغ، إذ رفض رودلف هيس تحليل اللاوعي عن طريق التخدير. ولقد أخذ رفضه بنظر الاعتبار وكذلك حريته في الدفاع عن نفسه كما يريد.

العلاج النفسي الجماعي

لقد تطرقنا لحد الآن الى العلاج النفسي «للاشخاص» وهذا يعني العلاج الممارس على شخص واحد. وعلى أية حال، فان هذه الطريقة تمثل احياناً جانباً سلبياً: لا يتوصل الشخص الى تقدير انه غير منقطع ابداً عن الانسانية ويعتقدعن يقين ان حالته هي الوحيدة ولا يوجد اي شخص يُعاني من مشكلة كما يعاني هو منها وبكلمة واحدة يستمر هذا الشخص في الشعوربانه خارج عن المجتمع وهذا (ما يعتقده) يكن له العداء.

ومن الممتع حينذاك تجميع عدد معين من الاشخاص. وسيكون كل شخص على الارجح قد فحص على انفراد. لماذا؟ من اجل ان يكون للمجموعة تجانس معين في نوع المرض وان يستطيع كل شخص ان يجد نفسه في الآخر.

كيف تجري الجلسات الجماعية؟ ان الهدف الاول هو ايقاف فكرة الانعزال الاجتماعي وستكون الجلسة اذن مبنية على لقاء يشارك فيه كل الاشخاص الموجودين. يشير الطب النفسي

النقـاشـات ويمكن ان تقرأ «تقارير» بعض الاشخاص الموجودين وقـد تكـون هذه التقـارير باسماء مستعارة أو لا. وبالطبع لا تكون كذلك على الارجح ويمكن ان يتبع هذه التقارير عروض اخرى تتبعهـا منـاقشـة عامـة تكون ممتعة جداً. ان دور الطبيب النفسي ينصب على التحفيـز ضمن إطـار البحث لتبـادل وجهـات النظـر والتزود بالشروحات. ويمكن ان يكون لهذه الجلسات اساساً في التحليل النفسي.

لقـد تطـور العـلاج النفسي الجمـاعي مؤخـراً في امريكا وفي انكلترا وبخاصة في اوقات الحروب.

الفهرست

الفهرست

الفهرست



ت : ٩٣٢٢٧٠٦